

وفود المهتدين إلى خاتم النبيين والمرسلين

صلى الله
عليه وسلم

إبراهيم حسن خلاّف



دار الامين
DAR AL AMEEN



وفود المهتدين
إلى خاتم النبيين والمرسلين



دار الامين

DAR AL AMEEN

طبع نشر توزيع

١ شارع سوهاج
خلف قاعة سيد درويش
الهرم - الجيزة

جميع حقوق الطبع
والنشر محفوظة للناشر
ولا يجوز إعادة طبع
أو اقتباس جزء منه بدون
إذن كتابي من الناشر

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

رقم الإيداع ١٩٩٣/٣٣١٧

I.S.B.N.

977-5424-15-1

وفود المهتدين إلى خاتم النبيين والمرسلين

صلى الله
عليه وآله

إبراهيم حسن خلاف



دار الامين
DAR AL AMEEN

إهداء

إلى روح أمي وإلى روح أبي اللذين ربياني صغيراً وإلى زوجتي الحبيبة التي
ما تزال ترعاني كبيراً .

* أهدى هذا الكتاب .

إبراهيم حسن خلاف

تهديد

منذ بعث الله سبحانه وتعالى محمد بن عبد الله نبيا ورسولا للناس كافة، وهو يعمل بلا كلل أو ملل من أجل تبليغ رسالة ربه، ونشر دعوته التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى.

ولم يكن الطريق مفروشا بالورود.. أبدا، ولا كان خاليا من العقبات، والمتاعب والألام.. ولم يكن الناس وبخاصة قريش يستقبلون دعوة الرسول إلى عبادة الله الواحد، ونبذ عبادة الأصنام بالرفض.. وإنما كانوا يعاندون، ويجاهرون بهذا العناد، وكانوا يعاندون رسول الله، ويعلمون على الملأ هذا العداء.. وكانوا يؤذون رسول الله، ويعلمون بهذا الإيذاء، وكانوا يطاردون المسلمين، ويتلذذون بهذه المطاردة.. ثم يدخلون في مواجهة مع رسول الله والمسلمين، ينتج عنها شهداء من الجانب الإسلامي.. وقتلى من الجانب الآخر.. وتشريد أسر، وضياع أموال، وتصفية لوجود مجتمعات بالكامل، وترحيلها إلى ديار غير الديار!!

وكان هذا إيذانا بالتغيير الشامل في كل مناحي الحياة.. بدءاً بالعقيدة.. وانتهاء حتى بالخطوة يخطوها الإنسان.. لا في الجزيرة العربية فحسب، ولكن في العالم كله..

بدأ الرسول الدعوة وحيدا، وليس معه غير ربه.. يناصره، ويرعاه، ويؤيده بالجيل الأول من المؤمنين.. ذلك الجيل الرائع من أمثال أبي بكر وعمر، وعثمان، وعلي، وخديجة أم المؤمنين.. وبلال الحبشي، وياسر وسمية، وابنهما عمار، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي.. بدأ الرسول الغرس الصالح في مكة يواجه جبابرة الزمان، وصناديد الكفر من أمثال أبي جهل، وأبي لهب وغيرهما من أعداء النور والحق!

يواجه هؤلاء الطغاة وحده لكنه يصبر على رعاية الغرس فيرويه من عرقه ودمه، وصبره، وكفاحه، وحلمه.. ويفلح الغرس بأمر الله، وتمتد جنوره وتذهب بعيدا بعيدا، ثم يصلب عوده، ويفرع في المدينة ويكون له أغصان وأوراق وظلال، ثم ثمار.. هي من إبداع المبدع جل جلاله.. هي نصر من الله وفتح مبين.. هي دخول الناس في دين الله أفواجا.. هي تسبيح من الرسول الكريم، واستغفار لربه على ما منحه من فضل، وما أسبغ عليه من جود بزوال دولة الكفر وميلاد دولة الإيمان.. دولة الإسلام.. دولة التوحيد، والحب، والألفة والحق والعدل، والسلام.

... وكان صلح الحديبية حدثا جليلا في حياة الدعوة، من يراه بعين بصيرته، وينفذ إلى أعماقه بعقله، يدرك أن الشرك في طريقه إلى النهاية، وأن الحياة الدينية الجديدة تفرض وجودها.. وتتشكل تبعا لذلك الحياة الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والعسكرية.

ثم يتوج صلح الحديبية في معناه القريب بفتح مكة، وفي معناه البعيد بهزيمة هوازن وثقيف.. وفرض الهدوء.. يشمل الجزيرة التي تتفرغ في ظل النظام الجديد للدعوة وما تشتمل عليه من معانٍ، وقيم، ومبادئ، ومثل، هي قوام حياة الإنسان في كل زمان، وكل مكان.. ولا يكون بعد هذا الفتح العظيم إلا بعض جيوب هنا، وبعض جيوب هناك.. لم تعد هناك قوة في الجزيرة تستطيع أن تواجه محمدا. وعم السلام.. وأتاح هذا السلام الفرصة للعقل يعمل. وأعد رسول الله ﷺ جيشه وذهب إلى تبوك فالتقى الله الرعب في قلوب أعدائه من الروم فلم يخرج منهم أحد لمواجهة.. وكانت هذه الحملة رسالة قوية الدلالة فهمها العرب في الشام، والعراق، والبحرين، واليمن.. ومن بقوا على فكرهم داخل الجزيرة..

وعاد رسول الله ﷺ بعد أن صادقه أهل الشام من الملوك ورؤساء القبائل، والعشائر وتحالفوا معه سواء من أسلم منهم أو من بقي على نصرانيته.. وقد فقدوا جميعا الثقة في حليفهم القديم «الروم».

ثم كان أن دانت الجزيرة كلها من أقصى الشمال في الشام وأقصى الشرق في البحرين والعراق.. وأقصى الجنوب في اليمن، وأقصى الغرب حتى سواحل البحر، إذ أخذ ما تبقى من قبائل لم تسلم توقف وفودها للقاء محمد فور عودته من تبوك وتبايع بالإسلام.

وكانت مظاهرة لم ير التاريخ لها مثيلا، والمدينة تستقبل وفود العرب للنبي ﷺ من ثقيف، ومن تميم، ومن طيئ، ومن البحرين وحضرموت، وقبائل الأزدي ومراد وهمدان، وبنى سعد، وبنى عامر... ومن كل مكان.

بعض هذه القبائل جاء إلى رسول الله ﷺ وهي تفرق في بحار من الندم لأنها تأخرت في قبول الدعوة.. وبعضها جاء بدافع المصلحة وحماية النفس والمال بقبول

الدعوة، لكنهم ما يكادون يصلون إلى المدينة، وتحتويهم روحانياتها، ويلقون رسول الله ﷺ حتى تتلاشى المصلحة الخاصة وبوافعها، ويعودوا وقد نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله، ثم يكون وقعهم أشد على الكفار من أى شيء آخر..

ولقد تناولت في هذا الكتاب جانبا من هؤلاء الوفود، وخصوصا من جاوا إلى النبي فور عودته من تبوك يحذوهم الأمل في أن يقبلهم رسول الله ﷺ وهم يخلعون حياة الكفر، ويلبسون حياة الإيمان.. يقبلهم رسول الله ﷺ مسلمين.. مؤمنين.. موحدين.. مجاهدين في سبيل الله راجين أن يكفر الله بهذا العمل عما بدر منهم في أيام سابقة من عداء للإسلام والمسلمين، وما كان منهم من تأخير في قبول الدعوة.

واسوف أعود، بإذن الله، إلى هذا الموضوع ذاته أجلي موقف وفود أخرى وفدت على رسول الله ﷺ منذ كان في مكة قبل الهجرة، وحتى ذهابه إلى تبوك.

وهذه الوفود كلها تمثل جانبا خصباً من جوانب الدعوة، تناولتها كتب السيرة بأسلوب علمي مقتضب، يجد القارئ وبخاصة الشباب بعض العسر في الوصول إلى فلسفتها التي بنت عليها ذهابها إلى المدينة ومبايعة النبي ﷺ بالإسلام.

ولقد حاولت قدر الطاقة تجلية هذه الوفود التي وفدت على رسول الله ﷺ بعد عودته من تبوك وبيان فلسفتها التي قامت على اقتناعها.. أو اقتناعها الذي قام على فلسفتها في قبول الإسلام بطريقة.. وأسلوب.. وصيغة فنية، ما قصدت من ورائها إلا تيسير الأمر على أجيال القارئ من مختلف الأعمار والثقافات، مع التزامي الدقيق بالخط التاريخي كما ورد في أهم مصادره وهو سيرة ابن هشام.

فإن أكن وفقت فهذا غاية ما أملت وما قصدت، وإلا فلقد حاولت وبذلت غاية الجهد، وأنا مطمئن إلى أنه على المرء أن يسعى، وليس عليه إدراك النجاح.

والله أدعو أن يجعله خالصا لوجهه الكريم

إبراهيم حسن خلاف

رئيس قسم التربية الدينية واللغة العربية

بمدرسة ناصر الثانوية للبنات

الصدقة .. واللؤلؤة ..

وفد ثقيف

أخذ نفسا عميقا .. ثم صعدته في ألم

ما أقرب الزمن!!

كم مر على هذا الحدث من سنين ١٩

وهز رأسه في أسى عميق...

لاشك أن الحدث كان شائنا، يتنافى وأبسط قواعد كرم الضيافة على الأقل، ونحن
قوم لم نكن نحتاج إلى من يذكرنا بهذه القواعد، أو أبسط بساطتها!

وسرح «عبد ياليل» بفكره.. ثم أردف وهو يحدث نفسه

ماذا كان يغلف العقل ، والقلب أنثذ عندما ذهبت منا حرارة الرحمة، وتورات سمة
الإشفاق من الصدور؟

ماذا ران على العقل، والقلب، أنثذ فلم نبسط له رداء المودة، وهو يفد علينا بالرحمة
ولم نعامله بما يليق به، ويدعوته التي ما خرجت في مضمونها على مفهوم العشيرة
النقية، والفطرة السلمية، وهي تتناول الحياة؟!

.. قال الرجل

«لا تسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تربوا» وكلنا يعلم أن
السرقه مزريه بالمرة، مخلة بالشرف، وأن القتل خطيئة، وأن الربا أخذ مال بغير حق ..
كلنا يعلم أنها نقائص .. خطايا .. كلنا يعلم عن يقين في قرارة نفسه أن ما قاله محمد
حق!

.. وقال الرجل:

«ارحموا الضعيف.. ووقروا الكبير، ولا تنهروا السائل، ولا تنهروا اليتيم»

والله ما أنكرنا، ولا أنكرت التقاليد النقية هذه الدعوة !!

.. وقال الرجل:

«استوصوا بالنساء خيرا.. فما أكرمهن إلا كريم.. وما أهانهن إلا لئيم» وما عرفنا
المرأة إلا أما، وأختا، وابنة، وزوجة! رضعنا منها الحياة، وعرفنا منها الإباء، والشمم،
والشرف، والنخوة، ووجدنا فيها السكن، وبجانبها الأمل وبقربها السلوى، وفي جوارها
المسرة، وفي رحابها البشر والسعادة!!

وكنا نصدقه، ولا نجد غضاضة فيما يدعو، ويجبذ:

.. وقال الرجل:

«أقيموا الصلاة، وأمروا بالمعروف، وأنهوا عن المنكر».

وما جهلنا الصلاة، بل كنا ننشدها في لحظات كربنا، وأوقات شدتنا:

.. وقال الرجل:

«أتوا الزكاة، وحجوا البيت، ولم يقل إنه إجبارى على كل واحد، وإنما قال: «إن
استطعتم إلى ذلك سبيلا».

وكنا ننفق على الشعراء أكثر مما يطلب منا.. ما يأخذه الشعراء في كلمات قليلة
يقولونها أضعاف أضعاف ما يطلب منا إنفاقه زكاة.. مع كامل علمنا أن الشعراء لا
يستحقون شيئا مما يأخذون.. فقط ننفق عليهم لأننا غاؤون، أما الحج فنحن نقر به، ولا
نجهله ونعظم البيت ونقدسه.

.. وقال:

«غياث الملهوف، والسرعة عند الصريخ».

وكنا نباهى بهما، ونعدهما من المفاخر عندما نحتج بالأنساب، وجيل الأعمال.

ما اختلفنا في شئ مما يدعوله، وما وجدنا فيه إلا نظاما جديا في ظل معبود
واحد وهو ما اختلفنا عليه!!

كان يريد في ظل هذا المعبود الواحد أن تأتلف الحياة، وأن تنتظم مفرداتها في

سلك واحد.. هو سلك التوحيد، يجعلها كالدر النظيم..

نعم.. ما اختلفنا فى شئ إلا أنه كان يريد الحياة منتظمة، وعلى أسس ، وما كنا نريدها إلا على حالها من الفوضى، ونحن ندرك فى يقين أن حياة الفوضى لا خير فيها، ولا أمل يرجى من ورائها.

وينكت «عبد ياليل» الأرض ببقايا سهم فى يده، ثم يستطرد:

ماذا كان يريد لنا عندما دعانا إلى عبادة الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لا شريك له، ولا أب ، ولا زوجة، ولا ولد؟

وإن اختلفنا معه ظاهريا، إلا أننا كنا نعى مدى صدقه، ومن خلال تعاملنا مع آلهتنا ، وازدراءنا لها كنا نصدقه، فما كانت آلهتنا إلا حجارة جامدة، لا تدفع شرا ولا تجلب خيرا، صنعها واحد منا فى زمن، واختفى ، وترك نماذجها أمام أعيننا.. نراها ولا ترانا، نحس بها متلما نحس بأديم الأرض من تحت أرجلنا، ولا تحس بنا، ونفزع إليها وهى فى غيبة عنا، لا تبصر ، ولا تسمع، ولا تحس!

حتى هذا المأخذ الذى أثار عليه تراب الصحراء ، وأهال عليه حجارة الجبال، ما كنا فى أعماقنا نكذبه فيه.

أه!! لقد سبقتنا قريش فى فهم المغزى من هذه الدعوة، عندما انطوت على نفسها تفكر فى الخسارة التى ستحقها عندما يتوحد العرب فى ظل مبعود واحد، وضللتنا، وهى تحارب محمدا... وإلا فلماذا عرضت عليه أن تجعله ملكا لو كان يريد الملك، وتعطيه مالا كثيرا لو كان يريد المال ... لماذا فعلت قريش كل ذلك فى مراحل الدعوة الأولى؟

وهز «عبد ياليل» رأسه يمينا، وشمالا فى أسى وحسرة !!

ماذا دهانا بيت «عبد ياليل» أننذ ومحمد يأوى إلينا، وترفضه؟ ويلجأ إلينا ونتخلى عنه؟ ويحتذى بنا ونخذله؟ ويطمع فى كرم ضيافتنا، وحسن استقبالنا، وجميل استماعنا، ونهينه بين جدران بيوتنا، وأمام حريمنا، وذرائنا، وعلى مشهد من الجيران، والعشيرة.. ثم نظرده، ونغرى به السفهاء يزفونه بفاحش القول، ولاذع السخرية، ويقذفونه بالحجارة، ويطاردونه، ولا يتركونه حتى يغيب هناك فى القلاة بعيدا عن

الأنظار، ولا يكون عن ملاحقته إلا عندما تباعد بيننا وبينه المسافات؟!

ويطرق «عبد يا ليل» في حزن صامت، وحيرة مفاجئة:

أية رجولة بقيت لنا؟ بل أي لؤم، وأية مشأمة حاقت بنا ونحن نستقبله في دارنا هذا الاستقبال؟ أية نخوة عربية، وأية شهامة، ونجدة، يمكن أن نتمدح بها، ونحن نرفض تأمين روعته بين ظهرانينا، وقد خرج من مكة رافضاً امك قريش ومالها، حاسر الرأس تحت وقدة الشمس الحارقة، ويكاد يكون عارى البدن إلا من ثياب بسيطة تستره في قيظ الصحراء، المهلكة، وقد تحمل وعثاء السفر، وآلام الغربة، وجفاء الأهل، والعشيرة، وفقد الزوج والسكن في خديجة بنت خويلد، والمظلة الوحيدة الواقية غدر الطبيعة القرشية في عمه أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم، وليس له من رفيق يؤنس وحشته في هذه الدنيا الغادرة الماكرة إلا مولاه زيد بن حارثة، وقد تنكرت له الدنيا، كما تنكرنا لكل قيمة، ولكل مثل شريف رفيع، وقد أظلمت أمامه كما أظلمت في كل ناحية من نواحيها هنا، وهناك، وفي كل مكان:

وضرب «عبد ياليل» رأسه بيديه:

— أي بشر نحن.. وأي أناس نكون؟!

يختار بيتنا دون بيوت ثقيف والطائف عامة.. يختارنا دون أهل ثقيف كلهم، وينزل علينا مكرماً لنا بنزوله، فلا نكرمه نحن؟ يأتى لضيافتنا مشرفاً لنا.. فلا نستضيفه، ولا نشرفه، ولا يكفيننا أن نخرج على نواميس الشرف، ومواثيق الإباء العربى، وطبيعة النجدة البدوية والهمة، والنخوة الإنسانية، فنتنكر له، ونخذله، ونطرده.. بل ونحقره ونطعنه في كبريائه، وصميم فؤاده بإغراء سفلة الناس به لنجهز عليه، ونمزق منه العظم واللحم، حتى تسيل دماؤه.. دون أن نذكر حتى مجرد ذكر ما بيننا وبينه من صهر ونسب!!

واحتبس في صدر «عبد ياليل» زفرة توشك أن تنقطع لها نياط القلب، وشعر كأن البيت تضيق جدرانه، وتلتئم على عظامه فتحطم منه الضلوع ولا يقدر على التنفس.

وجعل يلور ببصره دون أن يبصر، أو يرى شيئاً كبر أم صغر، حتى صنمه القابع في ركن من أركان البيت.. كأن غيمة سوداء احتوته.. أو طمرته الرمال تثيرها رياح الصحراء المشنومة.

تململ فى مجلسه كمن يبحث عن فرجة فى قبر يرى من خلالها النور..
وكاد يصرخ.. بل صرخ، ولم يكن لصرخته أى رجع لصدى.. كأنه فى بئر عميقة
مظلمة.. مخيفة، وهو فى قاعها لا يجد من ينقذه!!

★ ★ ★

وانتفض واقفا كالذئور يعنو خارج البيت.
لا يعرف كيف سار، ولا يعلم ماذا رأى وهو يسير، ولا يظن مجرد ظن كم قطع من
مسافة فى جوف الصحراء بعيدا عن البيوت.. وريح يحسها جديدة تلم وجهه وهو
يشعر كأنه يعلو من الأرض، ولم يتوقف حتى صار على قمته، وعلى صخرة هناك
جلس.

وتحولت الريح إلى نسيمات رقيقة.. ماذا؟
أكان كابوسا .. أم حلما مفعظا؟
لا .. لا كابوس.. ولا حلم..
إنه واقع مر.. واقع غير صحيح.. عليه هو أن يصححه، ولا يحتاج منه إلا إلى
شجاعة فى اتخاذ القرار!!
ونظر إلى السماء يتأملها..
فى الأفاق نجوم تلمع..
ما زال يرى.. وقد كان خال نفسه لا يرى!
ودار ببصره يمنة، ويسرة.. ورأى على البعد نيرانا تشب.. هذه هى بيوت ثقيف.. لم
يبعد كثيرا إذن.

وجال مع بصره بفكره فى أماد سحيقة..
فكر فى كل شئ دون أن يعلق بذهنه شئ.. إلا محمدا.. احتواه فى كل شئ:
منذ رددناه هذا الرد الفاحش المنكر، وهو يدمى جسمه، وتدمع عيناه دون أن يفوه
بكلمة يشتفى بها لنفسه، أو توعد يحفظ به ماء وجهه.. يكون فيه دركه لثأره.. ولو فعل
فلا أحد يلومه.. فهذا حقه المشروع فى الدفاع عن النفس.. وليته فعل!!

★ ★ ★

ترى .. أكان إمساكه عن الكلام عن الرد علينا ترفعا منه، وكبرياء؟

إن كان كذلك فما أشد ما يوقع بذلك علينا من إيذاء!!

أم كان إشفاقا علينا.. وإدراكا منه أننا في عماية جاهليتتنا لم نكن نرقى إلى مستوى الإنسانية في الإنسان.. والادمية في الأدمى؟

إن كان كذلك فما أفظع هذا العقاب وما أقساه!! ونحن نستحقه.

ولاريب أن دموعه التي ذرفت .. ودمه الذي سال، لم يكن منا.. بقدر ما كان علينا رثاء وترحما!!

ألا ما أقواك يا محمد رغم ضعفك!

وما أضعفنا أمامك رغم قوتنا!

وما أكرمك.. وأسخاك رغم قلة الزاد والراحلة!

وما أفقرنا، وأتعسنا، والمال عندنا لا يعده عاد، ولا يحصيه محص؟

كنا نظنك، وأنت تقتحم بيوتنا علينا، لتعرينا لأنفسنا.. أنك تقتحم عرين الأسود واعتقدنا، ونحن لا نملك أمامك إلا هز ذيولنا أننا الذين نعريك، وكنت تنبهنا في جهالتنا إلى مبلغ ضعفنا، وقلة حيلتنا.. وكنا نعتقد أننا الذين نلعب معك لعبة الأقوياء مع من لا حول له، ولا حيلة، ولا رجاء!!

ألا ما أشد غباعا!! بل ما أشد ضلالنا، وتيهنا في حياة خلت من كل مقومات الحياة ما أشد ضلالتنا، ونحن ننهش اليد الممتدة إلينا بالحياة على طبق من نور!!

★ ★ ★

هزمت يا محمد قريشا في بدر.. ثم في أحد رغم ما بدا على السطح.. ثم هزمت الأحزاب، ومن تصدى لك من العرب في كل مكان.

وكنا لا نظنك تنتصر أبدا، وأن إلهك سيخذلك، وستنصر العرب ألهتهم، فلم يتخل عنك إلهك.. وقد تخلت عن العرب ألهتهم!!

★ ★ ★

أدرك الآن لماذا تركت ذيول الأسود.. وتعاملت مع رؤوسها، وكنت تصر عندما يواجهونك ما داموا قد بدأوا العدوان: إما أن تنصلح هذه الرؤوس أو أن يطاح بها! حتى عندما اعتقد العرب بصلحهم معك في الحديبية، وبما وضعوه من شروط للصلح أنهم نالوا منك.. كنت أنت الذي تنال منهم، وتنتصر عليهم بشروطهم، وينودهم التي وضعوها!!

أية قوة قاهرة تساندك؟

فتحت مكة المعقل الأخير لصناديد العرب، فخضعت مكة، وقانون الحرب يمنحك سوق مكة كلها في السلاسل، والأغلال، والإطاحة برؤوس.. واسترقاق رؤوس.. ولكنك أعلنت العفو الشامل.. وحكمت التسامح الذي ما بعده تسامح، وقد شخصت إليك أبصارهم في رعب ليس مسبقاً بمثل، وهم يتساطون:

ماذا أنت فاعل بنا؟!

وتعلنها مدوية تهتز لها جدران الدنيا:

أذهبوا فأنتم الطلقاء!!

من أنت؟!

★ ★ ★

وكان يجب أن ينتهي مسلسل الكره، والحقد، والثأر.. لكن هوازن عادت تثير ما عفا عليه الزمن.. وعبأت قواها.. وحشدت حشودها ضدك.

وقادنا الطيش والعمى فاشتركتنا مع هوازن في حنين، وكنا في حنين أسود لا تدري أن عقولها في ذيولها، وذيولها في عقولها!!

جاءت هوازن ومن تحالف معها..

ونحن تحالفنا معها..

جاءت هوازن بقضها، وقضيضها..

واقبنا، أثبت أننا في هديرنا الفارغ الأجوف لم نكن إلا ثغاء كغناء الشياه، وها هي ذى طوايير الأسرى ممن واجهوك بالآلوف من الرجال، والنساء، والشباب.. من الأشراف.. ومن غير الأشراف..

والغنائم يتركونها لك كالجبال ضخامة..

ومن بقي على قيد الحياة ولم يقع فى الأسر.. من فر هاربا هائما على وجهه.. من
نجا برأسه من سيوف أصحابك، وأخذ يضرب فى الصحراء بلا نصير، ولا دين، ولا
أهل ، ولا ولد، وقد خسر كل شىء ، ولم يكسب شيئا.. عاد بالعار، وخزى الدهر!!
وكان لا بد أن تأتينا فى ثقيف غازيا.. لا.. بل مؤدبا..

هذه المرة كان معك جيش .. وجيش لا يدرى مبلغ قوته، هو جيش ينتصر أبدا،
وكنا، وما زلنا فى عماية من أمرنا، ومن كثرة عدَدنا، وضخامة عدَدنا، ووفرة المال لدينا،
وتوهمنا الشرف، والسيادة والحسب!!

اعتقدنا أننا المنتصرون، وكنا نحن الخاسرين!!

حاصرتنا .. وقبعا فى دورنا.. وخلف أسوار حصوننا كالعجائز أو كالإبل البهم فى
الحظائر..

اعتقدنا أنها تصفية حساب قديم..

وأشهد يا محمد أنك أوجعتنا فى حصارك لنا، وضريك إيانا من خلف الأسوار ،
وقتلك لنا !!

وأشهد أيضا أنك كنت تستطيع إبادتنا، ونحن لا نملك إلا الاستتار خلف وهم القوة
الكاذب..

وما كنا نمتنع عليك مهما أوتينا من قوة.. فما كانت قوتنا إلا جعجة بدون طحن..
إن هى إلا أرقام صماء تحصى عدد ما عندنا من إبل وشاة وخيل.. وهى الأرقام ذاتها
التي نحصى بها عدد الرجال، وما معهم من أسياف، ونبل، ورماح!!

وكانت قوتك المحيرة.. والتي أعجزتنا فى فهمها، وإدراكها تسوق أمامها قوتنا
الرقمية.. ثم تأخذها غنيمة بعد النصر.

أشهد يا محمد أنك أوجعتنا، وجعا لم تحس به الدنيا كلها من قبل، ولن تحس به
من بعد، وأنت تنصرف عنا.. وكان فى إمكانك على الأقل أن تسوقنا فى الأغلال إلى
المدينة تضحك الدنيا كلها علينا كما سقت هوازن، ومن جاء معها فى حنين!!

لكنك مرة أخرى توجعنا بتركك لنا، وانصرفاك عنا، وكأنتنا لسنا أهلاً لمنزلتك؟

★ ★ ★

لماذا تركتتنا يا محمد... وأبقيت على حياتنا، ولم تبدنا؟!

واعتصر «عبد ياليل» ذهنه:

لنتعذب في ضاآلتنا أمام عظمتك، ونشقى بضغفنا أمام قوتك.. لتثبت أننا جبناء
رعاع في الحرب كما أثبت من قبل أننا رعاع، وجبناء في السلم؟!

لتقول لنا إننا أحر من أن نتصرف إلينا قوتك، فتركتنا إلى تبوك حيث لا عدل
لقوتك على هذه الأرض إلا قوة الروم الخرافية؟!

واستند «عبد ياليل» إلى حجر على هذا المرتفع، ولم يكن هذا الحجر إلا نموذجاً
لمعبوده «اللات».

وعندما تبينه اتجه إليه متسائلاً في حيرة ، وحنق شديدين:

هل تستطيع أن تقول لى: لماذا فعل محمد ذلك؟!

وتأمل وجه الصنم على ضوء النجوم الباهت، وهو يردد في سخرية:

أحذرك أن توقع في روعى أنك أخفته.. أو أن قوتك هى التى ردتة.. أو أن لك سحراً
أثر فيه!!

ثم ضرب بيديه وجه الصنم فى غيظ:

هلا تقول شيئاً؟! قل إن كان عندك ما تريد قوله!! قل إن كنت تستطيع القول.. ألا
ما أحبأك من إله، وما أبشعك!!

★ ★ ★

وتلمست أذناه، وقدماه على الأرض وقع حوافر خيل..

فترك مكانه.. وهرع إلى بيته يتكفأ فى طريقه، ويتعثر فى الحصى والرمال مفزعاً
وخال نفسه يصيح:

إنها خيل محمد.. لقد عاد محمد من تبوك.. إنه الغزو من جديد!!

ودخل داره وهو يكاد يهذى:

يا ويلنا من محمد إن لم نفهم محمدا.. ونعرف كنه ما يدعو إليه.. ونقدره حق قدره
فلا متجاة من محمد إلا محمد نفسه!!

وقبل أن ينتظر «عبد ياليل» ليرى صياحه المزعوم بين قومه.. دخل بيته، وأغلق
عليه بابه.. ودار في صحن الدار حول نفسه كمن به مس؛ فلم يستقر بعد على قرار.
ثم استند إلى أريكة صادفته، وألقى بجسمه عليها خائر القوى، ولم يتنبه إلا على
صوت يقتحم عليه خلوته.. إنه صوت رسول عمرو بن أمية أحد أصحاب، «عبد ياليل»
وأحد نواهي العرب المعدون!!

★ ★ ★

واقتضب «عبد ياليل» حديثا سريعا مع الرسول، فهم منه أن صاحبه يريد أن
يلقاه..

وسمح للرسول بالانصراف ليبلغ صاحب العزيز أنه في انتظار مقدمه الكريم، وقد
أحس بعض الهدوء.. وبعض الراحة.

فلم تكن حوافر خيل الغزو إلا من نسج خياله..

ثم تهيأ للخروج لاستقبال صاحبه، والترحيب به، ودعوته إلى ضيافته.. فما أحب
لقاء الأصحاب في هذه الأوقات، وما أكرمهم يملأون فراغا تحس به النفس ساعة
الوحشة!!

خرج للقاء صاحبه، وكأنه يجد في مقدمه طوق نجاة من بحر حيرته، وخوفه وشقائه
وتعاسته.. ولم يفكر للحظة واحدة فيم وراء هذا الصاحب، وما الذي يدعو به إلى زيارته
في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

ولو كان في موقف غير هذا الموقف، ووقت خلاف هذا الوقت لامتشق حسامه،
وتكعب قوسه، وامتطى جواده.. فمثل هذه الزيارة في هدأة الليل دعوة للنجدة.. هي
صريخ بغير صريخ.. والعريى العريى يدعى دون دعوة لأن يسرع النهضة في الصريخ!!

★ ★ ★

- والتقيا.. وكان السلام قصيرا، والترحيب أطول قليلا من السلام.

ودار بين الاثنين حديث.. لا هو بالطويل، ولا هو بالقصير.. إنها زيارة عمل.. قصد

الصاحب منها توصيل رسالة.. بل نصيحة.. هي من صديق لصديق.. يتوقف عليها إما بقاء ثقيف كلها إن هي استجابت لها، ولم تعرض عنها.. أو أن تهلك ثقيف كلها كذلك إن هي تجاهلتها، وطرحتها وراءها ظهريا!!

وصادفت البذرة الطيبة أرضا معدة.. فقط هي في حاجة إلى الرعاية.. فيكثير من الجهد، وقليل من الصبر تصير البذرة شجرة، وتؤتى أكلها.. عندما أشار، «عبد ياليل» إلى صاحبه أن يلقي بما عنده طوق نجاة كان أو حبل بقاء.. وأن يبسط له القول فيما جاء له، فقد ضاقت عليه السبل، وبقينه صراحة أن لا منجاة من محمد إلا محمد.

وتبسم الصاحب تحت ضوء النجوم الشاحب أمام البيت، وقد أدرك أن وقادته لن تذهب سدى، وأن كلامه سوف يكون ملء السمع والبصر، ونصحه سيجد عقلا متفتحا، وقلبا واعيا.. فقال:

– قد علمت يا صديقي ما كان عليه أمر محمد وما صار إليه.

فقال «عبد ياليل»:

– لا تزدد همي!!

فقال عمرو بن أمية:

– وهل هناك ما يشغلني، ويشغلك.. بل ويشغل الدنيا كلها سواه!!

أتذكر يوم أن جاءكم هنا أول مرة.. وقدماء متورمتان، وقد نال منه التعب والمسير.. ودخل داركم: أمتع دار في ثقيف.. بل أمتع دور العرب.. وليس معه إلا زيد بن حارثة.. لا أهل، ولا ولد.. ولا مال، ولا رجال ولا سلاح..

جاءكم وليس معه سوى كلمة الله يدعو إليه، وألا يعبد في الأرض سواه!!

فأشاح «عبد ياليل» بوجهه في حزن عميق:

– قلت لا تزدد همي!!

فأردف عمرو بن أمية:

– لقد رأيت من حاله الآن ما رأيت.. فمحمد لم يتغير، وقد تغير العرب جميعا..

ومحمد لا يزال يدعو لإلهه الواحد ولا يعبد في الأرض سواه!! وصار العرب يدينون لإلهه، وله بالطاعة والولاء.. وما هو ذا الإسلام الذي نبت في الجزيرة غريبا، تمتد جذوره في الأعماق، وتنتشر فروعه في كل الأصقاع... وغدت تظلل راياته القبائل العربية والعشائر والأحياء.. أينما وليت وجهك، وحيثما يمت بصرك.

وصمت لحظة.. ثم أردف:

وما هو ذا محمد الذي جاءكم أول مرة وحيدا، يجيئكم هذه المرة بجيش لم تعرف العرب من قبل له نظيرا... لا في عدده ولا في إعداده، ولا في إيمان وقوة رجاله.. فيدك حصونكم، ويوشك أن يقتلعها من جذورها اقتلاعاً ثم ينصرف عنكم بعد أن كادت تذهب نفوسكم!!

ألم يسأل أحد منكم نفسه: لماذا فعل محمد ذلك؟! لماذا ترككم، وكان إزهاقكم وشيكا؟! والله ما علمت رغم ذلك أنه يريد بكم سوءاً ولا شراً.. وإنه كان وما يزال يرجو لكم الخير!!

فتمتم «عبد ياليل»:

– الخير؟! –

وأكمل عمرو بن أمية:

– قد تجدني غير منطقي فيما أقول أمام واقع الحصار المر، وما صاحبه من قتل، وحرق وتخريب فماذا كنت تنتظر من حرب غير هذا؟! لكن ستذهب دهشتك عندما تعرف هذا الخير!

فاعتدل «عبد ياليل»:

– هاته إذن، فلقد اعتاض على الأمر، وكأني أمام لغز جعلني لا أستطيع فهمك يا صاحبي!!

فقال عمرو بن أمية:

– إذن فاسمع باهتمام، وفكر جيدا فيما تسمع مني قبل أن يصلني جوابك.. ومحمد يحكم الحصار حواكم طلب منه أحد أصحابه أن يدعو الله عليكم ليهلككم فقد ثبت

لأصحابه أنه لو دعا ربه فإنه يستجيب له، ولو فعل محمد فإنكم ستهلكون لا محالة.. بلا ضرب.. و بلا كر أو فر، ويستريح منكم، ويريح أصحابه من عناء حرب يوفرون طاقاتها ومشقاتها، والجهود المبذولة فيها لميدان آخر واقوم سواكم!!

وها أنت ذا ترى ما صار إليه.. فلقد ذهب بعد الانصراف عنكم بجهده كله ليواجه الروم.. ألا تقول لك هذه المسيرة شيئا؟!

لقد وعدت العرب كلها مغزاها، وخصوصا أنه لم تواجه حملته أية مشاكل من أى نوع لا فى الذهاب، ولا فى طريق العودة!!

وعلى حدود الروم صنع محمد صلحا.. وأقام أحلفا مع عرب غسان، وقد عجزت الروم بقوتها الخرافية عن أن تواجهه، وكان عجزها أكبر أمام ما صنع من صلح، وأمام ما أقام من أحلف مع صنائعها فى المنطقة.. وجاء وصيحة لا إله إلا الله محمد رسول الله تقزع الوثنية هناك خلف التخوم!!

وصمت «عمرو بن أمية» لحظة، وهو يتفرس ملامح صاحبه الغارق فى بحر متلاطم من الأفكار وسيل لا ينقطع من الموازنات ثم قال:

- ألا ترى يا صاحبى أن محمدا بخروجه للقاء الروم قد صفى الموقف العربى تماما!!

وألا ترى أن العرب قد انتهت أمرهم عند محمد؟!

وأثق تماما أن من بقى فى الجزيرة ولم يلقه محمد.. فسيسعى هو إليه يبايعه مسلما موحدا غير مشرك، وغدا تنبئك الأخبار!!

وقال «عبد ياليل»:

- وبم أجاب محمد صاحبه؟! هل دعا علينا؟!

وأشرق وجه عمرو بن أمية:

- لا يا صديقى.. لقد دعا لكم، ولم يدع عليكم!!

فقال «عبد ياليل» فى اهتمام:

– وكيف؟!–

أجاب عمرو بن أمية:

– قال محمد فى جواب صاحبه: «اللهم اهد ثقيفا وأت بهم».

فاتجه «عبد ياليل» إلى صاحبه، وعينه تلمع ببريق غريب:

– أوقال محمد ذلك حقا؟! إن هذا يفسر سر رفع الحصار عنا؟!–

فقال عمرو بن أمية:

– أولم أقل لك: إن محمدا ما كان يريد بكم إلا الخير؟!–

فقال «عبد ياليل»:

– وبم تشير على..؟!–

ووجد عمرو بن أمية الفرصة سانحة، فألقى بأخر ما عنده، وما دعاه إلى المجيء فى أحشاء الليل وتحت جنح الظلام:

لقد أسلمت العرب كلها يا صاحبى.. وأنتم لن تواجهوا محمدا بعد اليوم وحده بل ستواجهون من ورائه كل العرب.. وأنتم وحدكم ليس لكم بحرب محمد طاقة، فانظروا فى أمركم!!

فقال «عبد ياليل»:

– أسلمت العرب جميعا.. ذاك صحيح، وليست لنا بحريهم طاقة.. وذلك أيضا صحيح. وكفى ثقيفا ما حاق بها بسبب عنادنا وكبريائنا الزائف.. وهذا أيضا صحيح! ثم بسط يده لصاحبه، وهو يودع كبرياء زائفا، وهو يتخلى عن عناد كثيرا ما أوردتهم موارد الهلكة، وقد شع من عينيه ضوء مثير.. انعكس على كل المرائى، فبدت فى ثوب جديد، وشعر بهدوء يتسلل إلى عقله، وقلبه.. هدوء لم يآلفه من قبل، وأحس براحة ذات مذاق مثير.. وقال لصاحبه:

– نعمت.. ونعمت مشورتك، وإنى والله منذ اللحظة فاعل!

★ ★ ★

وتنهياً لثقيف أن تجتمع حول دار «عبد ياليل» بعدما سمعت من وقع حوافر الخيل، وبعد أن انتشر بين ربوعها من خبر وفادة عمرو بن أمية على بيت «عبد ياليل» وطرح الأمر بينها.

وجعل الجميع يتدارسون كل الظروف، والملابسات، وعقد الموازنات فى دقة متناهية، وأن تخرج ثقيف كلها باقتناع يكاد يكون تاماً، وهو أنه لا أمن، ولا أمان بعد اليوم إلا فى ظل الدين الجديد، وأنه لا بد من الانقياد الذى تأخر زمناً ليس باليسير... ثم اتفقوا على أن يرسلوا إلى محمد بالمدينة وفداً يمثلهم يعلن أمامه بيعتهم بالإسلام واعتناقهم الدين الجديد، وإقرارهم بربوبية الإله الواحد فى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

★ ★ ★

وقع اختيار القوم على «عبد ياليل» من ثقيف كلها.

وكان هذا متوقعا، تفرضه طبيعة الظروف، وموقع «عبد ياليل» من ثقيف كلها.

ولم يرفض «عبد ياليل» الاختيار.. فهو له بلا مرء.. فقط.. هو لا يذهب وحده إلى محمد وليكن معه ثلة تمثل ثقيفا كلها بكل شعابها، ويطونها، وأحيانها.

فلا تزال صورة «عروة بن مسعود» الثقفى ماثلة أمام عينيه.. كأنها لم يمر عليها سوى لحظة من الزمن.

فبعد أن أنهى الرسول ﷺ حصاره للطائف.. وقفل بجيشه عائداً إلى المدينة يجهز للخروج لتبوك تخلص «عروة بن مسعود» من قومه، وترك ثقيفا خلفه يتبع أثره. وظل يغذ السير وراءه حتى أدركه فى طريقه، قبل أن يصل إلى المدينة، وأسلم على يدري رسول الله الشريفتين.. ثم طلب من الرسول أن يأذن له فى العودة إلى ثقيف كرة أخرى. وكان «عروة بن مسعود» ظنه بقومه حسن، فذكر لرسول الله ﷺ ما يطمئنه عليه، وعلى إسلامه، مبينا أن منزلته من قومه تجيز له ذلك.

وكان «عروة» فيهم مجاباً مطاعاً، بل كان كما قال أحب إليهم من أبكارهم ومن نور أعينهم، وعاد الرجل راجياً إن هو دعاهم إلى الإسلام ألا يخالفوه.

وصعد مرتقعا بينهم.. وفي وسطهم، ونادى فيهم بنداء الإسلام، ودعاهم بدعوة التوحيد، مظهرا لهم دينه، محرضا لهم ليتبعوه.. ويسلموا
والتفوا حوله من كل ناحية.. وفاجأوه لا بالإسلام وإنما بأن أمطروه من كل اتجاه بسيل من السهام حتى قتلوه، و«عروة» لا يعبا لهم، ولا لسهامهم.
فقد أسلم، وحسن إسلامه، واحتسب ما لاقاه في سبيل الله.
ولما سنل وهو في النزع الأخير لشدة إصابته:
«ما ترى في دمك؟»

قال:

«كرامة أكرمنى الله بها، وشهادة ساقها الله إلي، فليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفوني معهم». ونفذت عشيرته وصيته، ودفنته مع شهداء المسلمين في حصار ثقيف.
➤ من المؤمنين رجال صدقوا ما عهدوا الله عليه، فممنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا ➤ الأحزاب: ٢٣

★ ★ ★

لا تزال صورة «عروة بن مسعود» ماثلة في ذهني.. ذهن «عبد ياليل» تسترجع مخيلته خيوطها.. وحروفها.. خيطا خيطا.. وحرفا حرفا، ولا تزال ألوانها رغم تقادم العهد بها كأنها تصطبغ في اللحظة، وخشى إن هو ذهب إلى الرسول ثم بايعه، وعاد وحده معلنا إسلامه وداعيا قومه إلى ما آمن به أن ينكلوا به كما نكلوا بـ «عروة» من قبل.

والموقف دقيق بالغ الدقة.. حساس أشد ما تكون الحساسية.. لذا كان طلبه الوحيد ألا يذهب وحده، وألا يعود من عند رسول الله وحده.. بل لابد من فريق معه في الذهاب والعودة.. فريق يمثل ثقيفا كلها.

ومادامت المسألة منذ بدايتها قائمة على الحسابات الدقيقة، والموازنات المتناهية في

الدقة فلنكن هي في النهاية بنفس حسابات البداية وموازنتها.

وقدر إن حدث له من قومه ما حدث له «عروة» من قبل ألا يكون وحده مستهدف القوم واسوف يشغل كل فريق من ثقيف بمن كان منهم في الوفد، وينجو «عبد ياليل» إن لم ينج من معه!

واختار القوم وفدهم معه.

فكان من الأحلاف: الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب، وشرحبيل بن عيلان بن مسملة ابن معتب.

ومن بنى مالك: عثمان بن أبي العاص بن بشر بن عبد دهمان «أخو بني يسار»، وأوس ابن عوف «أخو بني سالم بن عوف» وتمير بن خرشة بن ربيعة «أخو بني الحارث».

وتأمر عليهم «عبد ياليل» وقاد مسيرتهم إلى المدينة.

★ ★ ★

واعتدل الميزان.. الطالب يصير هو المطلوب. ومن رفض «عبد ياليل» وفادته يوما، ولم يحترم ضيافته في بيته، ورده ردا لثيما خبيثا، وأهانته بإغراء السفهاء به، يطاردونه حتى يخرجوه من بينهم، وهو يضرع إلى ربه داعيا:

«اللهم اهد قومي، فإنهم لا يعلمون» يقوى عوده، ويشدد ساعده، ويطارد الكفر في مواقعه، ويعود يطلب «عبد ياليل» وقومه، ويشدد عليهم الحصار وعلى كفرهم، وعندما يضيق الخناق عليهم، ويصل الضيق بهم مداه، وتبلغ الروح منهم الحلقوم، يفك الحصار ويعود وهو يدعو لهم: «اللهم اهد ثقيفا وأت بهم».

وقد اعتدل الميزان بهدايتهم، ووفادتهم على رسول الله ﷺ.

نعم: يعتدل الميزان صوب الإنسانية، ويدنو الركب من المدينة، ويتلقاهم «المغيرة بن شعبة» وينزلون عليه في جانب من جوانبها، وهو يرعى ركاب الرسول ﷺ وأصحابه في نوبته.

ويسعد المغيرة لمقدمهم.

ويرحب بمجيئهم ترحيب محب صادق في حبه.

وافرط سعادته يترك الركائب.. وينطلق على عجل يخبر الرسول ﷺ باستجابة الله لدعائه فى ثقيف.. ينطلق فى سرعة الريح.. ليبشر الرسول بقدم ثقيف.

وتتلاحق الأحداث.. فليقاه فى طريق عنوه أبو بكر الصديق، ويعلم منه الخير، فيقاسمه سعادته، ويشاطره فرحته، فقد كان وفد ثقيف هذا هو أول وفد يصل إلى المدينة مبايعا بالإسلام بعد عودة الرسول ﷺ من تبوك، ويطلب أبو بكر من المغيرة أن يسمح له ليكون هو مبلغ الرسول الكريم بشأنهم.. ويتنازل المغيرة عن رضا وسماحة، فما يهمه أن يكون هو أو أبو بكر محدث الرسول فيهم.. ما يهمه هو أن ثقيفا جاءت، واستجاب الله دعاء نبيه الكريم فيهم: «اللهم اهد ثقيفا وأت بهم».

★ ★ ★

ها هى ندى ثقيف أتت.. يحدث أبو بكر رسول الله ﷺ ويخبره خبرهم.. بينما يرجع المغيرة يلزمهم، ويكرم وفادتهم فى انتظار ما قد يأمر به الرسول ﷺ بشأنهم. ومنذ اللحظة الأولى لقدمهم يدخلون المدرسة الإيمانية..

وها هو ذا المغيرة يهيئهم للالتحاق بها.. فيعلمهم الدرس الأول فى المنهج الإيمانى، ويشرع يعلمهم تحية الإسلام، وكيف يحيون بها رسول الله ﷺ عندما يشخصون أمامه تاركين تحية الجاهلية!!

★ ★ ★

بعض الرجال جاء صادق الرغبة.. مخلص النية.. وبعضهم لازال فى أعماقه بذور شك.. لا بأس : فقد جاؤا إلى الهدى والنور، وسوف يذهب النور بكل أثارة لظلمة، وسوف يقضى طبيب القلوب والنفوس، على كل نبتة شيطانية لا تزال فى القلوب، والضمائر، وإن يفلتهم الخير أبدا.

ويهش الرسول ﷺ لمقدم القوم.. ويبش لهم، ويكرم وفادتهم، ويرون جميعا من السماحة والود، والحب الصادق ما لا عهد لهم به، ويحسون فى حضرتة، وبلا استثناء هدوء بال، وراحة ضمير، وطمأنينة نفس لم يألوفوا مثلها أبدا، ولو للحظة واحدة فى حياتهم الماضية!!

مشاعر فياضة بالرحمة، والإخاء، والحنان، كانت هي الزورق الجديد الذي وجد
«عبدياليل» نفسه، ومن معه، داخله، يعبرون به بحر الحياة المتلاطم!!

مشاعر فياضة بالرحمة، والحنان ، والإخاء أخذت تتفجر ينابيع حب، وود وإنسانية،
من قلب «عبد ياليل» فتتلاشى معها مشاعر الحقد، والكراهية، والغطرسة، والكبرياء
الزائف... ونور يتسلل إلى قلبه، شيئا فشيئا، حتى أحاطه، وقشع عنه، وإلى الأبد، ظلمة
الجاهلية

ألا ما أكرمك يا محمد وأنت تبدو وكأن شيئا لم يحدث .. فلا عتاب، ولا ذكر لما
مضى ، وكأنه لم يكن.. وكأنك لم تُهَنّ في بيوتنا، وكأنك لم تجد مرارة الطرد من
دورنا!!

ألا ما أكرمك يا محمد، وأنت تنسى كل إساءة، ولا تذكر أية سيئة، وتعاملنا، وكأنك
تلقانا لأول مرة، وكأننا لم نتصد لك، ولم نحاريك.. ثم تشعرونا كأننا عندك أحسن مما
نكون في دورنا وبين أهلنا وولدا!!

ألا ما أكرمك يا محمد وأنت تبدي من السماحة، والود ما يجعل ألم الذكرى ..
مجرد ألم الذكرى، يتلاشى أمام عظمتك، ولأنت يا محمد رسول الله حقا وصدقا..
ولنحن كنا المكذبين الضالين!!

★ ★ ★

وكان «عبد ياليل» أراد طلب الصفح ، وطلب المغفرة، وتكاد تجأر عقيرته بما يحتبس
في داخله أوتعفو عني يا رسول الله؟!

وما يمنعه سوى مهابة من سماحة الرسول، ووده وتجاهله.. بل نسيانه ما مضى
وكانه لم يكن شيئا مذكورا.

ما يمتع «عبد ياليل» سوى مهابة لفته في أرديتها المعبقة بعطر الإيمان، شغلته عن
كل شيء حوله، وفي داخله.

ولم طلب الصفح.. وقد صفح؟

ولم طلب المغفرة.. وقد غفرا؟

ولم طلب العفو.. وقد عفى؟!

ويكاد «عبد ياليل» يذوب ألماً، وأسفاً، وحسرة على ما بدر منه، وما كان من قومه،
ومن ثقل إحساسه بالذنب فى ساحة السماحة والعفو يوشك أن ينهار لولا أنه يولد من
جديد!!

نعم: بالإسلام يولد «عبد ياليل» من جديد، ويصير مخلوقاً جديداً يشعر لأول مرة
بقيمته... وكيف لا؟ والرسول الكريم يقول: الإسلام يجب ما قبله؟!«

★ ★ ★

واقترضى الحال أول الأمر طرفاً ثالثاً ينقل للرسول ﷺ أفكار الثقفين.
ويوصلهم من الرسول دعوته، وتعاليم الإسلام.. فكان الذى يمشى بين الرسول
وبينهم خالد بن سعيد بن العاص.

وتتوالى الدروس الإيمانية، إلا أن ثمة هنات حدثت من الوفد مدعاها، كما سبق
أنفا، بعض شكوك لا تزال عند بعض أفراد من الوفد لقرب ما بينهم وبين جاهليتهم
فكانوا لا يطعمون طعاماً يأتيهم من رسول الله ﷺ إلا إذا أكل منه خالد بن سعيد..
لا بأس، فليأكل خالد مبتدئاً.. ثم يأكلوا.. واسوف تمتلئ بطونهم طعاماً، هو طعام
الرحمة!! ويسألون رسول الله أن يترك لهم «الطاغية» وهو اللقب الذى كانوا يطلقونه
على «اللات» يتركه لهم رسول الله ثلاث سنوات يهدمها بعد ذلك إن أراد هدمها بعد
هذه المدة..

ويأبى رسول الله ذلك.. ويعلمهم عبادة الواحد الأحد.. ونبذ الشرك.. والكفر فى أى
شكل كان أو مسمى!!

ويتدرجون فى الطلب حتى يطلبوا أن يترك لهم الطاغية شهراً بغية أن يكون فى
تركها سلامة لهم من سفهاء قومهم، ومن ذراريهم ونسائهم:
والعلم الأول صابر عليهم.. يلقنهم الدرس تلو الدرس فى حكمة، وموعظة حسنة وهو
يرفض فى يقين ذلك المطلب أيضاً.

★ ★ ★

ويسألون رسول الله ﷺ أن يعفيهم من الصلاة.. ويعلمهم نبى الرحمة أنه لا خير
فى دين لا صلاة فيه«

وتتهاوى الحيل، وتسقط المعاذير، ولا يكون ثمة حجج.. ثم يسلمون، ويبايعون بالإسلام.

★ ★ ★

ويعلمهم بلال وهو يأتيهم بطعام رسول الله كيف يكون الصيام، فقد كان وفودهم على رسول الله في رمضان .

يعلمهم بلال كيف يكون الصيام في رمضان . . . متى الفطور؟ ومتى السحور؟ ومتى الإمساك عن الطعام؟. ومن لطيف ما حدث أنهم كانوا يقولون لبلال وهو يأتيهم بالسحور:

«إنا لنرى الفجر قد طلع» فيقول بلال.. «قد تركت رسول الله ﷺ يتسحر، وذلك لتأخير السحور» وكانوا يقولون عندما يأتيهم بالفطور: «ما نرى الشمس كلها قد ذهبت بعد» فيقول بلال:

ما جئناكم حتى أكل الرسول صلى الله عليه وسلم.. ثم يضع بلال يده في الإثاء حتى يكون أول من يأكل!

★ ★ ★

ويطلبون من رسول الله ﷺ ألا يكلفهم بهدم أصنامهم بأيديهم إن هم عانوا إلى أقوامهم، ويوافقهم الرسول العظيم، ويستجيب لهم نبي الرحمة. أليس الإسلام يسرا؟ و«لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» ﴿البقرة: ٢٨٦﴾.

ثم يكلف رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة، وهو من ثقيف، وأبا سفيان. ابن حرب أن ينطلقا مع الوفد في طريق العودة، ويحطما الأصنام، والأوثان، ولا يتركا لصور الشوك أثرا هناك، وأن يحتفظا على ما لهذه الأصنام من وقف عليها، ومن نذر وقرايين قدمت لها، وما في حوزتها من أموال ذهبية وخرز!!

وينتهي الوفد من البيعة بالإسلام بيعة كاملة، ويكتب لهم رسول الله ﷺ كتابهم يؤمنهم فيه على ديارهم، وأموالهم، وأنفسهم!!

ويؤمر عليهم في عودتهم أحدثهم سنا.. يؤمر عليهم «عثمان بن أبي العاص» الذي

قال فيه الصديق أبو بكر:

«إنى قد رأيت هذا الغلام منهم من أحرصهم على التفقه فى الإسلام، وتعلم القرآن»
ويعهد الرسول الكريم ﷺ إلى الأمير الجديد بأخر عهد قبل الرحيل:

« يا عثمان.. تجاوز في الصلاة.. واقدر الناس بأضعفهم، فإن فيهم الكبير،
والصغير، والضعيف وذا الحاجة».

ويقر الوفد الإمارة بلا شحناء، وبلا ضغينة.. وبلا حقد!!

★ ★ ★

ويعتدل الميزان صوب الإنسانية.. فلا تكون قيمة الإنسان بما عنده من ذهب وفضة
ولا بما له من غزوه ، وعدد رجال وعدد وسلاح.. ولا يكون تفاخر بالأحساب والأنساب
فمنذ اللحظة ... الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربى على عجمى إلا
بالتقوى، والعمل الصالح».

ويعطيهم نبي الرحمة شروطهم، ويكتب لهم كتبهم، ويأذن لهم في العودة.. تكلؤهم
عناية الله، وتحوطهم رعايته وتحف بهم ملائكة الرحمة!!

وينطلق الوفد ظافرا إلى ثقيف.. نورهم يسعى بين أيديهم، وعن أيمانهم، وعن
شمالهم، والسكينة تغمر أرواحهم، والرحمة تهز أعطافهم ، وتوقظ فيهم شمائل
الإنسانية الرفيعة، وتقرب قافلة النور من ثقيف، ويوشك الجمع على إيتاء القوم..

وتنبثق من أعماق اللحظة الجادة بعض الطرائف.. فيحاول المغيرة جريا على عادة
القوم أن يقدم أبا سفيان لكبره، ومنزلته لما اختاره الرسول له: يضرب بمعوله جسد
الشرك، فيهدم الأصنام، ويحطم الأوثان.

ويحتال أبو سفيان على المغيرة زاعما أن القوم قومه، وهو أولى بالدخول عليهم، ولا
ضير إن هو أعمل فى الأصنام معوله.

ويقبل المغيرة غير هياب، ولا وجل ، ويعلو «الطاغية» من فوره، يطؤها بحذائه، وهو

يُكَبَّر، ويعمل فيها معوله، ومن دونه بنو معتب قومه يحيطونه من كل جانب خشية أن يرمى أو يُصاب كما أُصيب من قبل عروة».

★ ★ ★

ومن طرائف اللحظة كذلك أنه لم يتحسر على هدم «الطاغية» ولم يحزن على زوالها إلا أبو سفيان، ونساء ثقيف.

فقد خرجت النساء ينحن، ويولون، ويبكين، ويقتلن محرضات الرجال لحمايتها، وإعتاقها من معول المغيرة:

لنَبْكِينَ دُفَاعٌ ★★ أسلمها الرُّضَاعُ

لم يُحْسِنُوا المِصَاعُ^(١)

(١) المِصَاع: الضرب والقتال، أى أسلمها اللئام حين كرهوا القتال.

وأبو سفيان الذى جاء مكلفا بمشاركة المغيرة في هدم الأصنام يتتقى، ويقف على
البعد ينظر إلى «اللات» والمغيرة يعلوها بجسده، ويطؤها بنعله، ويعمل فيها معوله هدمًا،
وتقويضًا .. أبو سفيان يقف على البعد ، وينظر إلى «اللات» وهى تتقوض فى تحسر
قائلًا:

«واها لك.. أها لك!!».

ولا عجب .. فريما حنين لا يزال يشده إلى الماضى.. إلى الجاهلية، فقد كان له
فيها نور وأى دور؟ سيادة في قومه.. وقيادة لجيوشهم.. وحماية لقوافل تجارتهم، وثراء
أى ثراء من تجارته، ومخصصاته من الربا، وعوائده.. كانت لأبى سفيان في الجاهلية
كلمة فى السلم، وفي الحرب، فى نظام اجتماعى تعلو فيه كلمة السيادة.. والأغنياء..
والأقوياء، ولا ترتفع فيه سوى صيحة القوة تصطك لها أسنان الضعفاء!!

وأبو سفيان رجل يحب الفخر، وقد جعل رسول الله ﷺ له يوم فتح مكة شيئًا
تتضاعل بجانبه كل ما كان لأبى سفيان فى كل حياته الماضية.
وها هو ذا طيبب القلوب يجعل له شيئًا آخر يكون فى التاريخ لو صدقت السرائر،
وحسنت النوايا ما بقى التاريخ.

★ ★ ★

فى موقف واحد.. ولحظة واحدة من هذا الموقف تحظى ثقيف كلها بما يتلاشى
بجانبه كل ما أنفقت من أجله حياتها الماضية كلها.

تحظى ثقيف بالهدى والنور، وينجح المغيرة فى أن يجعل هذه اللحظة خالدة على
الزمن، فقد شهدت ميلاد حياة، واندثار حياة، وتبدل فيها مجتمع من النقيض إلى
النقيض إذ خرجت من الصدفة لؤلؤة.. كانت مخاض البحر الهائج.. المتلاطم موجه..
جاءت من الأعماق .. لؤلؤة مشرقة.. معجبة.. شع ضوءها على الموج فهدا، وتعاضم
لألاؤها على البحر فسكن.. تسعد من يصادفها، وتصادفها، وتبهج من يراها وتراه.. هى
عقيدة سمحة.. جاءت من أحشاء الزمن.. خلاصة ما حوى الزمن فى الماضى منذ
الخليقة الأولى للحاضر، والآت.. سيطرت على الزمن فانتظم.. وعلى الكون، فانضبط،
واستعد بها يستقبل الإنسان لصالح الإنسان.. ما فهمها الإنسان!! عقيدة من صنع
الخالق.. هى حبه لمخلوقه، ويسره لعباده، توقظ فى الأدمى الأدمى.

وتحيى فى الإنسان الإنسان.. تشعره بكرامته، وتفتح عقله وقلبه على عظيم سر المبدع فيه.. وتقضيه على كثير ممن خلق ليؤدى رسالته التى خلق لها، وغيبته عنه جاهليته عندما غيبته عن فهم السر فيه.. فلا سادة، ولا عبيد، ولا أقوياء ولا ضعفاء.. ولا أغنياء ولا فقراء.. الكل أمام الله سواء.. سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح».

لا فضل لإنسان على آخر بسبب اللون، أو الجنس، أو الدم، أو الحسب، والنسب أو الموقع.. بل الفضل كل الفضل بالتقوى والعمل الصالح..
﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ ﴿المطففين: ٢٦﴾.

★ ★ ★

النخيل .. وثمار الجنة!

وفد بنى تميم

(١)

ما كاد الرعاة يعودون من المراعى، ويطمئن كل واحد من بنى تميم إلى أن ماشيته قد سكنت حظائرها مع غروب شمس هذا اليوم من أيام الصيف القائظة حتى دبت في الناس حركة غير عادية!

لم تشب نار أمام دار مع هذا الغروب، وقد خلت النور أو كادت من سكانها! فقد هرع الجميع يحضرون الاجتماع الذى تصدره فى ساحة القبيلة العربية الهائلة، المقرامية الأطراف، نفر من أشرفها يمثلون غالبية بطونها، وعشائرها.

ودار بين المجتمعين حوار كان يرق حيناً، ويعنف حيناً آخر، ومع الحوار الرقيق، والحوار العنيف مؤيدون، ومعارضون، يصخبون في تأييدهم، ومعارضتهم.. وقد بدا الاجتماع من خلال هذه المظاهر الحادة غاية في الأهمية، وكيف لا يكون كذلك، ومحوره الاتفاق على تكوين وفد يذهب إلى المدينة ليلقى محمداً، ويبايعه بالإسلام قبل أن يفوت الأوان، وخصوصاً أن القبائل أخذت تتوافد على المدينة، وتبايع بالإسلام، وتحقق بذلك دماها، وتحمى مالها وحريمها، وتحافظ على ترابها، ومصالحها بين القبائل الأخرى!!

وبدأ الحوار عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمي:

إذ وقف فى أشرف بنى تميم وقال:

- يا قوم، نجتمع اليوم، وقد علمتم ما كان من أمر محمد، وما صار إليه.

ومهمتنا تقليب وجوه الرأى بأمانة، وإخلاص لا لنرى ما يمكننا عمله، ولكن لنتخذ القرار الصعب.. نذهب إلى محمد ونبايع! أم نقبع هنا خلف بيوتنا، تفزعنا النبأ، وحيث لا نجنى من وراء هذا غير الندم عندما يدهمنا محمد؟

وساعتها لن نكون بين يديه سوى أسرى، أو قتلى، يعفر جباهنا التراب، ويلعننا أبناؤنا، وتمتهن كرامتنا حريمنا ومن يجرون أنذال خزيينا وعارنا وراهن ومحمد

يسوقهن سبايا كما ساق من قبل نساء هوازن؟!

وكان الأقرع بن حابس...

ولأهمية الموضوع لديه، برك على ركبتيه وقال:

- يا قوم.. دانت الجزيرة كلها أو كادت تدين لمحمد. ومحمد اليوم، وبعد فتح مكة، وانتصاره على هوازن غير محمد بالأمس... إنه وبكل المقاييس قوة يمكن أن يصل مداها إلى أبعد من مواقعنا!

فعلق عمرو بن الأهم:

- وإلا فما معنى أن يذهب إلى تبوك؟!

ما معنى أن يذهب إلى الروم ليواجههم في عقر دارهم؟

وكما تعلمون.. بقي هناك أياما يؤذن فيها للصلاة، يعبد ربه، ويدعو له، وصياح أذانه يصك أذان الروم، ومن والاه في مواجهة أخزت الجميع، وتحد لم يستجيبوا له مما جعل أبناء عمومتنا في الشام يصالحونه، ويصادقونه، ويقيمون معه الأحلاف، وقد فهموا الرسالة، ووعوا الدرس.

وما هو ذا يعود مكلا بالنصر والفخار!

فقال نعيم بن يزيد:

- إن ذهب محمد إلى تبوك.. وعودته ظاهرا رسالة لنا جميعا في كل مكان على الأرض العربية، فهمها أبناء عمومتنا في الشام فهادونا محمدا، وصادقوه، وقد أيقنوا بما لا يدع مجالا للشك أن الروم، وقد تقاعسوا أمامه لن ينفعوهم، ولن يعصموهم من محمد إن أراد بهم سوءاً!!

إذا كان هذا أمرا لبعيد عن محمد.. فما بالكم بالقرب منه؟!

يا قوم: لن نكون أقل وعيا، ولا إدراكا بما يحيط بنا من أبناء عمومتنا في الشام.

وخصوصا أنه لم تعد لنا بمحمد طاقة!!

وكان في جانب من المجلس قيس بن الحارث...

كان يتمل في مجلسه قلعا ضائقا، فابتدر المجتمعين في حدة:

- يا قوم.. والله لكأني أشم في كلامكم ريح الهزيمة والاستسلام، ما بالكم يا قوم؟
وقد بدوتم ترسخون لأمر محمد يسوقكم سوق الأغنام، وكنتم تنسون من نحن، ولا من
أباؤنا، ولا من فوارسنا، ولا ما أيا من التي خلدت أباؤنا وشمعنا، وسجلت بطولاتنا؟

فقال عطار في هدوء:

- ليست الهزيمة يا قيس..

وقال نعيم بن يزيد:

- ولا هو الاستسلام يا قيس...

وقال عمرو بن الأهم:

- إنها المسئولية يا قيس.. لقد سودنا قومنا، وأولونا الشرف، ومهمتنا أن نحافظ
عليهم، ونصون هذا الشرف بالمحافظة على العرض، والنفس والمال!
ولا مجال للجري وراء العواطف، والانخداع بالوهم.. وهم القوة والمنعة الذي نخلقه
نحن بأنفسنا لأنفسنا!

نعم يا قوم: دانت الجزيرة كلها أو كادت تدين لمحمد، وما بقي غير بعض جيوب هنا
وبعض جيوب هناك، ولا مفر من الرضوخ للواقع، وبخاصة إذا كان يترتب على هذا
الرضوخ الحفاظ على النفس، والمال، والولد، وصيانة التراب!

فقال نعيم بن يزيد:

- لقد باع كل محاولات المواجهة مع محمد بالفشل: لقد فتحت مكة.. سلمتها
قريش صاغرة.. بلا مقاومة، وما هي ذى هوازن تسلم أيضا مقهورة، ومن يرأها وهي
تحشد حشودها ومن معها من الأحلاف لمواجهة محمد.. فإنما يعتقد أنها كانت تسوق
رجالها ونساءها، وأموالها لتسلمها إلى محمد.. وأنتم تعرفون جميعكم كم بلغ عدد
الأسرى فقط من هوازن لدى محمد؟

لقد بلغ رقما مخيفا لم تعرف العرب له مثيلا في حرب من قبل.. لقد بلغ ستة آلاف
أسير ما بين رجل وامرأة، ناهيك عن عدد القتلى والجرحى، ومن تشربوا وأخذوا

يضرِبون في الأرض بلا مأوى، ولا نصير، تاركين وراءهم العرض، والأرض والخراب،
والدمار، ومن ضاقت بهم الأرض ولم يجدوا مفرا من التسليم والإذعان!

فقال قيس بن الحارث في حدة:

– ونسلم له لأنه دخل مكة، وصغرت قریش!

ولأنه هزم هوازن، وأحلافها؟!!

إذا كانت هوازن قد هُزمت فليس هذا يعيبها، وهي تدافع عن تراث العرب جميعا،
وأرادت أن تحمى الآباء والأجداد.. إن ما كان يعيبها هو أن تتقاعس، وتفر من
الميدان!

فقال عمرو بن الأهم:

– ونحن لن نفر يا قيس.. فقط نحن مقتنعون بأن تجربة المجرب ندامة، فليست
الحكمة في أن تدخل حربا تعرف مسبقا أن نهايتها هزيمة منكرة.. إنما الحكمة في أن
تعرف كيف تتجنب هذه الحرب صيانة للأهل، والمال، والولد.

ولو كانت هوازن فكرت مثل ما أفكر الآن لما أصابها ما أصابها، ولكانت استنقذت
نفسها قبل المعركة مع محمد بمثل ما استنقذت به نفسها بعد المعركة، وبعد أن حدث لها
ما حدث من قتل، وأسر، وتشريد!!

· تعلمون جميعكم أن رؤساء هوازن أجمعوا أمرهم بعد الهزيمة المرة، وذهبوا إلى
محمد، وعرضوا عليه الإسلام، فقبله منهم، ثم سألوه أن يرد إليهم ما أخذهم منهم،
فخيرهم بين أبنائهم ونسائهم، وبين أموالهم فقالوا: بل ترد إلينا أبنائنا ونسائنا فهو
أحب إلينا.

وكان محمد غاية في الكرم معهم، فرد إليهم أبنائهم، ونسائهم، وأعاد الجميع
معززين مكرمين.

ولا يخفى على أحد منا ما حدث من مالك بن عوف، وتلك قصة مشهورة إذ لحق
بمحمد يطلب أهله، ويطلب ماله معا، فرد عليه محمد أهله ورد عليه ماله.. بل وأعطاه
زيادة.. مائة من الإبل على ما كان له!!

ثم اتجه إلى أشراف تميم:

– يا قوم: استأنا مسئولين عن أنفسنا فحسب. ورب الكعبة لو كان الأمر بيدي، ولو

كنت أحمى نفسي، وما يلحقني ما سلمت حتى تُفصل الروح عن الجسد، إنما نحن نحمل من سوبونا ، وقلدونا زمام أمرهم، وإن نفعل بذهابنا إلى محمد، ومبايعتنا له شيئاً لم نسبِق إليه، فما هي ذى ثقيف تسلم لتحمل نفسها، ثم تعود وقد أخذت من محمد كتاباً تبسط به سلطانها على أرضها، وديارها ، ويحقق لها الأمن، والاستقرار والأمان بين العرب جميعاً.

فقال قيس بن الحارث، وما زالت تلازمه بعض حديثه:

- ليس بهذه البساطة يا قوم.. فوالله لا أسلم حتى أساجله، فإن غلبني فقد قضيت حاجة نفسي، وإن غلبته عدت مرفوع الرأس، موفور الكرامة، وقضيت بقية عمري كما أريدني قومي سيداً مهيباً جليلاً، وآلهة قومي مصونة لم تُمس بأذى أو تحقير!!

فقال عطار بن حاجب:

- بل هي المفارقة.. فقد لا نقدر على مساجلة محمد، إنما نستطيع أن نفاخره، فإن غلبنا كان كما تقول يا قيس.. وإن غلبناه عدنا، ولا سلطان لأحد علينا!!

وانفرج الموقف عند هذا الحد..

فقد مهم القوم بكلمات غير مفهومة، وإن كانت وجوههم تنصح عن استحسان الرأي والموافقة عليه.

وإذ أحس قيس بن عاصم...

وكان لا يزال صامتا، فقد خرج عن صمته قائلاً:

- نعم.. والله لهي المفارقة، نأخذ في وفدنا خطيبنا، وشاعرنا، فيخطبه خطيبنا، ويلقي إليه شاعرنا بشعره، فإن أجابنا محصنا القول، وإلا عدنا ولا ملأ!

فقال قيس بن حارث، وقد زالت قليلاً تلك الحدة التي كانت تسيطر عليه:

- وأنا معكم على أي أمر تعزمون!

فقال قيس بن عاصم:

- إذن نرى وفدنا، ونعلنه على الملأ:

ثم نادى:

يا قوم هذا عطار بن حاجب بن زرارة، وهو خطيبنا، وهذا الزبير بن بدر، وهو شاعرنا، ثم نظر إلى القوم متفحصا:

فمن غيرهما سيكون معنا في وفدنا لمحمد؟

فتقدم على الفور:

الأقرع بن حابس...

ونعيم بن يزيد...

وقيس بن الحارث...

وعمر بن الأيتم...

والحباب بن يزيد ...

وانضم إليهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري ..

وكان الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن قد شهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة، وحنينا، والطائف.

★ ★ ★

تهيا الوفد للسفر، واستعدوا له، وجهزوا الرحل والراحلة.

وقبل أن ينطلقوا في طريقهم للمدينة للاقاة محمد صلى الله عليه وسلم لم ينسوا زادهم، ولا شرابهم، ولم ينسوا أن يصطحبوا معهم بعض الخدم ليعملوا لهم الوجبات في ساعات الراحة أثناء السفر.

وطوال سيرهم، أو أثناء راحتهم لم يكن لهم من حديث إلا ما سيقولونه أمام محمد.. كل واحد كان يرتب كلاما يقوله، وكان هذا الكلام لا يعدو الفخر بنفسه، وبمشيرته ثم بقومه، وبقبيلته!

وكان الخطيب يعد خطبته، فيها من بلاغة القول ما يتغلب بها على كل بلاغة، ومن الفخر بما يبرز به كل فخر، ولا مانع وهو يفخر بنفسه من أن يتناول على الآخرين فيخسهم حقهم، ويسرق محامدهم، ويحيلها مثالب تخزى.

ولأن الخطبة تختلف عن الشعر فلا بد من أن يكون فيها ما يعوضها، ويحدث لها تأثيراً أقوى وأشد من تأثير الشعر، ولا شيء إلا أن يزيد الخطيب جريمة التعدي على محمد وأصحابه.. يُتم محمد وفقره، وقلة عزوته، واعتماده على أناس هم أشد منه فقراً.. وهم بدو، من كل قبيلة جمع، ومهما كثروا فلا يشكلون مجتمعاً كمجتمعهم، ولا قبيلة كقبيلتهم!!

وكان الشاعر يجهز أنغامه، ويعزف من أن لآخر بعض معزوفاته، فيطرب القوم ويزيد من حماسهم اللقاء محمد ومفاخرته، ويضرب وهو يوقع توقيعاته على أوتار العصبية فيزيدها شدة وحدة، ويحرك في النفوس حيناً إلى الأهل، والمأثور من العادات والتقاليد، وعبادة الآلهة الموروثة!

★ ★ ★

في ذروة الشد والجذب أهمل القوم بعض ما ألفوه وصار من كثرة ما اعتادوه وامتزج بكيانهم يجرى في نفوسهم مجرى الدم في العروق.. وهو شرب الخمر! نسوا الخمر أو تناسوها تماماً..

لم يقربها واحد منهم خلال ساعات السفر أو ساعات الراحة.. أهملوا الخمر، وكأنهم أرادوا أن يلقوا محمداً في تمام وعيهم وإدراكهم، فإن الأمر جلال، ويحتاج إلى يقظة، ووعي تامين!!
يا لله!! لو عقلوا لأدركوا أن الحال، وقد تغيرت بهم، فلا بد من أن يتغيروا، وأن تغيرهم بات وشيكا، وترك الخمر لو فهموا ليس إلا إرهاصاً للزمن الجديد.. لكن بقي عليهم وقت يقطعونه في الشقوة، ولا بد من أن يستوفوه!!

★ ★ ★

وصل القوم إلى المدينة.. وصلوا مجهدين، لكنهم كانوا مدركين.
بهرتهم المدينة، بعضهم رآها من قبل فهاله ما حدث لها من تغير.. وأحس روحاً جديدة تسري في كل ركن من أركانها.. تلون كل حجر بلونها.
ليست هذه هي المدينة القفر المجدبة.. إنها مزهرة مثمرة.. بهذا تنطق شوارعها

وأحجار مبانيتها..

ما هذا البهاء، وهذا الجلال!!

★ ★ ★

وقبل أن يستولى عليهم الانبهار بالمدينة حاولوا أن يقاوموا بهاءها وجلالها ويقاوموا روحها التي أخذت تحلق فوق رؤسهم، وتقرب منهم شيئاً فشيئاً.

★ ★ ★

دخلوا مسجد رسول الله، وتعمدوا الخشونة، وربحا رطبة تستقبلهم فى شدة حر الصيف.. واندفعوا بأقدام حافية يضربون الأرض فى هلع وكأن شيئاً ما يطاردهم.. ونادوا رسول الله من وراء حجراته.. نادوه فى جفاء وغلظة، ودعوه فى صياح يصم الأذان، وجلبة لا تطاق.. أن اخرج إلينا يا محمد:

وإن كان ذلك أذى رسول الله ﷺ، وأذى أصحابه من حوله إلا أن محمداً لم يتأخر عليهم، وما كان ليتأخر وهو يصدع عن أمر ربه، وما كان ليتأخر وهو القائل:

«أمرت أن أخطب الناس على قدر عقولهم».

وما كان ليتأخر وهو القائل:

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

ولأنهم تصرفوا بما لا يليق بمقام النبوة، وبأدب الرسول، فلقد نزلت فى هذا سورة الحجرات، وفى بدايتها درس شديد للذين جاوزوا حدود اللياقة فى مخاطبة صاحب الرسالة كما أن فيها تعليم، وتوجيه لمن وراهم من المسلمين:

يقول تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض أن تحيط أعمالكم * وأنتم لا تشعرون * إن الذين يَغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى * لهم مغفرة وأجر

عظيم * إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى
تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم ﴿الحجرات: ١-٤﴾

★ ★ ★

.. ونظروا إلى محمد وهو يخرج عليهم.. أخذتهم جميعا بساطته، واستولى عليهم
وقاره، وتوقير أصحابه له، يلتقون حوله، دون أن يتقدم أحد منهم عليه.

هزتهم رجفة.. أهذا محمد اليتيم؟!

لم يعد يتيما كما تصوروا..

أهذا محمد الفقير؟!

لم يعد فقيرا كما زعموا..

فيه غنى لم يعمده من قبل.. ولم يسمعوا عنه فى زمن من الأزمان!!

غنى ليست له مظاهر مادية..

ليست له مظاهر الغنى المعهود..

غنى لا يدرك بالبصر.. وإنما يدرك بالبصيرة..

غنى أروع من أى غنى فى الوجود..

وإن كانوا لم يصلوا بعد إلى كنهه إلا أنهم أدركوا بعض معاله.

هذا محمد، وحوله أصحابه، تدب فيهم روح تجعلهم كالبنين المرصوص، فيهم
صلابة ولهم مضاء، وعزم لا يلين..

انبهروا.. فلم يستطع واحد أن يوجه إليه كلمة..

قالوا معا، وهم يتسائلون على بعضهم البعض:

- يا محمد.. جئتاك نفاخر، وجئنا معنا بخطيئنا، كما جئنا بشاعرنا، فأذن لهما.

فقال محمد رسول الله ﷺ :

«قد أذنت لخطيئكم .. فليقل ما عنده».

فقام عطار بن حاجب بن زرارة، وهو يعالج نفسه معالجة، وحاول أن يواجه محمدا.. يريد أن يقول ما كان قد استحضره طوال الرحلة.. لكن أين ما كان قد استحضره من فن القول، ومن بلاغة الكلم، ومن الصفات، والأوصاف في مدح قومه، والفخر بهم، وثلب محمد وأصحابه يلقى بها على محمد وأصحابه؟!

اعتاص عليه الأمر.. نظر إلى القوم، ونظر إليه القوم.. ونطقت عيونهم عكس ما همست به شفاهم.. أخذته الحيرة، واحتوته الدهشة، وسيطر عليه قلق شديد.. مرت دقيقة.. دقيقتان.. ثلاث دقائق.. انخلع فيها قلبه، وكاد يسقط بين ركبتيه دون أن تنفجر شفاته عن كلمة هي أمل الجميع، وكانت هذه الدقائق دهرا من الألم والمرارة، لم يشعر بمثل بشاعتهما من قبل قط..

وبعد لأي قال:

- «الحمد لله»

نطقها لسانه، ونفسه تهمس إليه بعكس ما نطق به..

وكأنما يقول له شيطانه: «ليس هذا ما أردت» لكن لسانه ينطلق، وشيئا فشيئا تختفى همسات نفسه حتى يكمل القول:

- «الحمد لله الذي له علينا الفضل والمن، وهو أهله... الذي جعلنا ملوكا، ووهب لنا أموالا عظيما نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثره عددا، وأيسره عدة، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا بروس الناس، وأولى فضلهم؟

فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا، وإننا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإننا نعرف بذلك، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا».

ثم جلس.

سكت القوم من بني تميم، وهم ينظرون إلى خطيبهم نظرة غامضة، لا تعبر عن استهجان ولا استحسان، وإن كانوا في أعماقهم يشعرون بأن خطيبهم لم يشف غليلهم

فى التفاخر على محمد، وخيب ظنهم عندما لم يأت بما كانوا يتوقعون!!

★ ★ ★

وفى جلال، ووقار قال رسول الله ﷺ لمن اختاره خطيبا يرد على خطيب بنى تميم.. قال لثابت بن قيس الشماسى أخى بنى الحارث بن الخزرج كلمة هادئة هادية... كلمة نوارنية:

«قم فأجب الرجل فى خطيبته».

فقال ثابت ورنه صوته توحى بالثقة، وأفاض الله عليه.. فقال:

- «الحمد له الذى السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه ولم يك شئ قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا، واصطفى من خير خلقه رسولا أكرمه نسبا، وأصدقه حديثا، فكان خيرة الله فى العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فأمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه، أكرم الناس حسبا، وأحسن الناس وجوها، وخير الناس فعالا... ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن، فنحن أيضا والله وزراء رسوله، منع بنا ماله، ودمه، من كفر جاهدناه فى الله أبدا، وكان قتله علينا يسيرا، أقول قولى هذا، واستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات... والسلام عليكم».

وخسر خطيب بنى تميم، وخسر من ورائه قومه أمام خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم

أما كيف خسر، فهذا ما تنطق به الموازنة بين ما احتواه قول عطار، وما احتواه قول ثابت والموازنة فى هذا الزمن ليست صعبة، وإنما هى من السهولة بمكان فهذه لغتهم، وهم أدرى الناس بأسرارها، وبإشاراتها، وشياتها، وجمالها، ومضامينها.. فهى ليست مجرد قول، وإنما هى عالم كامل له قوانينه التى لا تختل، ولا تنقصهم الدرية فى استعمالها إفصاحا عن مكتوباتهم، أو فهمها كأداة تعبير ذكية قادرة..

الجانب المعنوى نفذ إلى أعماقهم.. هالهم.. استولى عليهم.. لم يستطيعوا أن يقاوموه لأنه توفر بكثرة فى خطبة ثابت خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم.. أما الجانب

المادى فقد انهزموا فيه أيضا .

ولقد بدت الموازنة التى لم تستغرق من الوقت سوى وقت إلقاء الخطبتين على النحو التالى:

خطيب بنى تميم يحمده الله ثم يعدد أسباب الحمد، ويحصرها في : أن جعلهم ملوكا، وأعطاهم مالا، وأنهم أرياب حسب، وأن عددهم كثير، وهذا القول لا يفصح إلا عما هو مألوف من منطق الجاهليين.

أما خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيعد أسباب الحمد لله فى الآتى:

أولا: يجارى خطيب بنى تميم فى أن الله جعلهم ملوكا، ثم يزيد ما لم يستطعه خطيب بنى تميم فيقول متمدحا، مثنيا على الله بما حبا به الأمة العربية من شرف عظيم، وخير عيم حين اختار لها رسوله محمدا ﷺ من خير خلقه، أكرمهم حسبا، واصطفاه بأن أنزل عليه قرآنه، وجعله الأمين على الناس، وأن الله ميز أصحاب رسول الله ﷺ بميزات منها: إيمان المهاجرين وهجرتهم، وموقف الانتصار، وانتصارهم للرسول ﷺ فى ساعات الشدة.

ويختم خطبته بالاعتزاز بمقدرة المسلمين من أمة محمد على قهر كل متجبر، وعلى ردع كل من يقف فى طريق الحق، أو يعطل مسيرته.

وإذ أحس القوم بقصور خطيبهم أمام خطيب الرسول الكريم لا لنقص فى بلاغته، أو قدرته الكلامية، وإنما مفاهيم جديدة، وقيم ثرية لاعد لهم بها انتقلت بالناس زمنا متقدما تخلفوا هم عنه زمنا طويلا، وانعكست هذه المفاهيم، وهذه القيم على قول خطيب رسول الله، فبدت روحا جديدة لا قبل لهم بوقفها أو اعتراض طريقها.

نظر القوم إلى شاعرهم كأنهم يستجدون به فى محاولة يائسة.. هب على أثرها عازما على أن يتلاشى فى شعره القصور الذى خلفته خطبة الخطيب.

قال متحمسا:

- نحن الكرام فلا حى يعادلنا * منا الملوك وفيما تنصب البيع (١)
 وكم قسرنا من الأحياء كلهم * عند النهاب وفضل العز يتبع
 ونحن يطعم عند القحط مطعمنا * من الشواء إذا لم يؤنس القزغ (٢)
 بما نرى الناس تآتيننا سراتهم * من كل أرض هوى ثم نصطنع (٣)
 فننحر الكوم عبطا فى أرومتنا * للنازلين إذا لم أنزلوا شبعوا
 فلا ترانا إلى حى نفاخرهم . * إلا استفادوا فكانوا الرأس يقتطع (٤)
 فمن يفاخر فى ذاك نعرفه * فيرجع القوم والأخبار تستمع
 إنا أبينا، ولا يابى لنا أحد * إنا كذلك عند الفخر نرتفع

وكان حسان بن ثابت الأنصارى غائبا عندما قدم الوفد، فاستدعاه رسول الله ﷺ ليجيب شاعر بنى تميم.

- وجاء.. جاء علي عجل.. جاء مسرعا، وهو يمدم بكلام حلو.. يوقع به، وهو يرقص
 قلبه فرحا، استجابة لنداء رسول الله ﷺ .
 منعنا رسول الله إذ حل وسطنا * على أنف راض من معد وراغم
 منعناه كما حل بين بيوتنا * بأسياقنا من كل باغ وظالم
 ببيت حريد، غره، وثراقه * بجابية الجولان وسط الأعاجم (٥)

-
- (١) البيعة: مواضع الصلوات والعبادات، واحدهما: بيعة بكسر الباء
 (٢) الفزع بالتحريك: السحاب الرقيق. يريد إذا لم تمطرهم السماء فأجدبت أرضهم.
 (٣) هوى: سراعا.
 (٤) الكوم: جمع كوما، وهى العظيمة السنام من النوق، عبطا: أى من غير علة، وفي أرومتنا: هذا الكرم متأصل فينا.
 (٥) البيت الحريد: الفريد الذى لا يختلط بغيره لعزته. جابية الجولان: بلد بالشام. يريد أن النبى ﷺ نزل وسط حى من الأنصار نوى منعة، وجاههم قديم متصل بجاه الغساسنة ملوك الشام.

ياجلال الشعر حين يقال فى موقف كهذا الموقف!! وبالعظمة الشاعر حين يندب
ليدمدم بشعره فى معركة كهذه دفاعا عن الحق، ودفاعا للباطل!! وبالروعة الموقف
وحسان يرى نفسه شاعر الرسول يبعث فى طلبه إذ كان غائبا، وقد أتى القوم يفاخرون
رسول الله!! أتى القوم فى مظاهرة رتبوا ليها، وهياؤا أنفسهم لما ينجم عنها، فإما أن
يكسبوا محمدا ويعودوا إلى ما كانوا عليه، ولا حرج .. أو ينتصر عليهم محمد ويكونوا
قد بذلوا أقصى ما عندهم، وحينئذ يبايعون بالإسلام ولا حرج أيضا!!

هى معركة إذن.. نعم وإيم الحق معركة لا تقل شراسة عن معارك السيف والرمح.

ويصل حسان فى الوقت المناسب.. يصل والزيرقان يهم ليقول ما قال.

وما أن ينتهي الزيرقان حتى يتسعد حسان فى انتظار إشارة من الرسول الكريم
ويقول الرسول وهو يشير إلى حسان: «قم يا حسان فأجب الرجل»

ويقوم حسان فيقول على نحو ما قال الزيرقان لكنه غير ما قال:

يقول حسان:

إن النوائب ^(١) من فهر وإخوتهم * قد بينوا سننا للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته * تقوى الإله وبالأمر الذى شبرعوا
قوم إذا حاربوا خسروا عدوهم * أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعا
سجية تلك فيهم غير محدثة * إن الخلائق فاعلم شرها البدع
إن كان فى الناس سباقون بعدهم * فكل سبق لأنى سبقهم تباع
لا يرفع الناس ما أومت ^(٢) أكفهم * عند الدفاع ولا يوهون مافعوا

(١) النوائب: السادة

(٢) أومت: دامت

إن سابقوا الناس يوما فاز سبقهم * أو وارتوا أهل مجد بالندي متعوا^(١)
 أعفة ذكرت في الوحي عفتهم * لا يطبعون ولا يردى بهم طبع
 لا ييخلون عاجار بفصلهم * ولا يمسه من مطمع طبع^(٢)
 نسوا إذا الحرب نالتنا مخالبا * إذا الزعانف^(٣) من أظفارها خشعوا
 لا يفخرون إذا نالوا عنوهم * وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع
 كأنهم في الوحي والموت مكتنع * أسد بحلية في أرساغها فدع^(٤)
 خذ منهم ما أتى عفوا إذا غضبوا * ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
 أكرم بقوم رسول الله شيعتهم * إذا تفاوتت الأمواء والشيع
 أهدى لهم مدحى قلب يؤازره * فيما أحب لسان حائك صنع
 فإنهم أفضل الأحياء كلهم * إن جد بالناس جد القول أو شمعو^(٥)
 ويبهت القوم من بنى تميم فقد أدركوا بعد الموازنة السريعة أنهم خسروا المعركة ولا
 عليهم سوى التسليم.

إلا أن الزبرقان تهتاجه قصيدة حسان فينشئ قصيدة أخرى لعله أن يجبر بها ما
 أصاب السابقة والذي أظهره حسان عندما تفوق عليه وفاز فوز مؤزرا:
 يقول الزبرقان:

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا * إذا احتقلوا عند احتضار المواسم
 بأتا فروع الناس في كل موطن * وأن ليس في أرض الحجاز كدارم^(٥)
 إنا لبالمرياع في كل غارة * نغير بنجد أو بأرض الأعاجم

لكن حسان يمتشق سيف شعره ويقرع الزبرقان فيسكته:

(١) متعوا: زادوا

(٢) طبع: دنس

(٣) زعانف الناس: الأطراف فيهم

(٤) مكتنع: قريب - حلية: ماسدة باليمن

(٥) شمعو: مزلوا والأصل اللهو والطرب

يقول حسان:

• هل المجد إلا السؤود العود والذي

وجاه الملوك واحتمال العظام

نصرنا وأوينا النبي محمدا * على أنف راض من معد وراغم
نصرناه لما حل وسط ، ديارنا * بأسياقنا من كل باغ وظالم
جعلنا بنيانا، دونه وبناتنا * وطبنا له نفسا بفيء المغانم
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا * على دينه بالمرهقات الصوارم
ونحن ولدنا من قريش، عظيمها * ولدنا نبي الخير من آل هاشم
بنى دارم لا تفخروا إن فخركم * يعود وبالا عند ذكر المكارم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم * لنا خول ما بين ظئر وخادم
فإن كنتم جئتم لحقن دماءكم * وأموالكم أن تقسموا في المقاسم
فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا * ولا تلبسوا زيا كزي الأعاجم

★ ★ ★

فرغ حسان من قصيدته، ومن قبل أفرغ الزبرقان كل ما في جعبته، ومن قبلهما أفاض
الخطيبان..

لكن بنى تميم لم تفرغ بعد..

لقد اكتشف القوم أنهم تخلفوا عن زمنهم دهورا طويلة، فاتهم فيها الكثير والكثير،
وأنهم كانوا في قوتعتهم هناك ليسوا إلا أناسا من البشر لا يعيشون إلا لياكلوا.. لا
هدف.. لا رسالة.. لا شيء ذا قيمة يحصلونه..

بعد أن استمعوا إلى ما استمعوا.. وبعد أن رأوا ما رأوا.. هالهم الفارق.. فارق لا يدرك
بالبصر، قدر ما يدرك بالبصيرة!!

أي نعمى تحتوى هذه القلوب تلتف حول محمد !!

إنه ليس بملك.. فلا والله ما للملوك هذه المهابة، ولا هذا الجلال!!

ويا ويل من وقف في طريق من كانت له هذه المهابة بين أصحابه وهذا الجلال!

وينظر القوم إلى محمد في صمت، لكنه صمت المتوسلين المعجبين.. بل صمت التائبين..

ويدرك الأقرع بن حابس ما تجيش به الأفئدة، فيقف من فوره يخاطب قومه هاتفا:

- « وأبى .. إن هذا الرجل- يعنى محمدا- لمؤتى له.. ولخطيبة أخطب من خطيبنا،

وشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا».

ويضطرب القوم في مجلسهم، وعيونهم تكاد تخترق الأقرع بن حابس: «قلها.. قلها ولا

تحف.. أعلنها واكسر طوق العبودية في قلوب غلفتها الجاهلية زمنا طويلا.. أعلنها

مدوية.. فوالله لم يعد الخوف الآن من محمد.. بل الخوف من أن نأخذ طريقا غير طريق

محمد!!»

ويصل التماوج مداه.. وما يكاد الأقرع ينتهي من كلمته، وينكسر الطوق.. وتتحرر

الأفئدة، وتصحو الضمائر، وتحيا الإنسانية في داخل الإنسان، وترقص الأدمية شوقا

إلى الحق في داخل الأدمى، وتنقشع ظلمات الجهالة، وتشرق أضواء الهداية من ثنايا

النفس الحائرة..

يخف القوم دفعة كما جاوا دفعة.. وكما هجموا على المسجد دفعة.. وكما صاحوا

مجتمعين يطلبون من الرسول أن يأتيهم ليفاخروهم دفعة..

يخف القوم..

ويبايعون بالإسلام!!

اليتم وذو العقيصتين!!

وفد بنى سعد

ما كاد الفتى القادم من الديار البعيدة إلى حى «بنى سعد» يبحث عن عمته، بعد أن تقطعت به وبها الأسباب، وهلك الأهل، في حروب طويلة بين القبائل بعضها، وبعض، وبين القبائل، ومحمد، ولم يبق إلا هو وعمته، بعد أن علم بفقد ولدها في آخر معركة اشتركت فيها «بنو سعد» إلى جانب هوازن ضد محمد بن عبد الله:

ما كاد الفتى يصل إلى ديار بنى سعد يعانى من وعاء السفر حتى فوجئ بحالة غريبة مخيفة، تبعث على الريبة والشك:

هرج، ومرج، يسود الحى..

أناس يجرون شمالا، وآخرون يجرون يمينا..

همهمات هنا، وأصوات هناك..

ولا يجمع بين الناس إلا الشك، والقلق، والحيرة، والاضطراب، والخوف القاتل الرهيب.

ماذا حدث لهذا الحى؟!

ما الذى أفزع الناس حتى لم يعد يستقر بهم قرار، أو يهدأ لهم بال، أو يستريح لهم خاطر ووجدان؟!

أية ريح صفراء تبدر بوادرها، وتقدم نذرها تثير الرعب، والخوف فى نفوس الناس، حتى بدت حركاتهم عشوائية بلا شكل، وبلا هدف؟!

لم يستطع الفتى أن يتبين وجهها تفصح ملامحه عن سبب لهذا، ولم يقدر على سبر عين يمكن أن تبوح عن سر يفسر له ما غمض من مجريات الأمور فى الحى! وكلما اقترب من جماعة لم يتبين شيئا..

وبعد لئى عرف من همماتهم أنهم يبحثون عن رجل منهم له مكانته، وقدره، وله

اسمه وسمعته، يبحثون عن ضمام بن ثعلبة.

ترى ماذا يريدون منه؟ ماذا حزيهم، وشغلهم عن نفوسهم، وعما حوالهم إلى هذا الحد؟

يسمع الفتى عن ضمام بن ثعلبة، وقدره، وعميق رأيه، وقدرته على التبصرة، ويعرف كم لجأ إليه الناس يطلبون الرأي والمشورة، ويبغون العون، والمساعدة!!

ويسمع عن بنى سعد أنهم فى غمرة الأحداث، لم يكونوا بهذه اللهفة، ولا بهذه الحيرة.. فكم مر بهم من خطوب، وكم فجعتهم كوارث، لكنهم كانوا أرسخ قدما، وأثبت جنانا مما هم عليه الآن!

وبدأ الشك يتسرب إلى نفس الفتى.. وأخذت الحيرة تعرف طريقها إلى قلبه، واحتوته الجموع، فوجد نفسه يجرى فى داخلها إلى حيث تجرى.

وصعد الناس تلا على مشارف الحى.. وهناك ألفوا ضام بن ثعلبة، ينتجع مكانا هادئا، بعيدا عن الضجيج والغبار المثار.. يجلس مستندا إلى صخرة.. يحدق فى الأفق البعيد فى صمت، وسكون تامين.

وجعل الناس يتوافدون عليه، وكلما يقتربون منه تخف الحركة، ويهدأ الضجيج، واكتمل عنده جمع غفير، وخلق كثير، وهو ثابت ثبوت الجبال دون أن تزيع منه نظرة واحدة تجاه القوم.

وقطع الصمت رجل ذو لحية بيضاء.. انحنى ظهره أو كاد:

- يا ضمام.. ألا بالله استجبت لهذه الجموع؟! فوالله ما يقدر على هذا الأمر سواك.. وإن بنى سعد كلها لتسلم إليك الزمام والقياد، بعد أن هرب من كنا نملكهم أمورنا إثر هزيمة هوازن وثقيف أمام محمد.

لم يبق إلا أنت.. وإن يعترض أحد على قرار تتخذه طالما ارتأيت فيه مصلحة أهلك، وعشيرتك، وقبيلتك.

وفى وقار صارم تلفت ضمام، وفى نظرة عميقة حدجه بها، وفى رنة صوت واثقة قال:

- لقد تغير الناس أبا عبد العزى..

- لكنك لم تتغير يا ضمام..

- وهل يقدر الناس علي حكمى إن استجبت لهم؟!

- ومنذ متى خرج القوم على حكمك، وأنت أثير لدى الجميع، وهم يقدرون مكارمك
التي لا تحصى ، فى الحرب أو فى السلم، فى السراء أو فى الضراء، فى الأمن أو فى
الخوف على السواء.

- إذن فليقولوها.. ليعلموا رضاهم بقسمى لهم، واختيارى بشأنهم وحكمى فى
أمرهم.

- أوتشك فى هذا يا ضمام؟!

لقد انخلعت بنو سعد من جنورها إليك.. أولا تعنى هذه المظاهرة لك شيئا؟!

- وماذا ترى فى حياتنا غير الشك يا أبا عبد العزى؟!

لقد صار الحاكم لحياتنا فى هذا الزمن الشك والخوف، والحيرة والقلق!

- وماذا دفع بهذه الجموع إليك الآن غير الرعب الذى يستولى على كل كيانهن؟

تريد هذه الجموع أن تعيش حياة هادئة، فيها أمن، وأمان، تتخلص فيها من صخب
هذه العيشة وضجيجها، وظلامها الذى طال أمد.. ودمائها التى روت ثرى الصحراء
بلا سبب معقول.

- وماذا تريد منى هذه الجموع؟

وقد تنفس أبو عبد العزى الصعداء:

- لقد أصبت المحزى يا ضمام.. تريد هذه الجموع أن تذهب إلى محمد، وتعتقد معه
اتفاقا يضمن لها الأمن والأمان بين ربوعها، وعلى أرضها.

- فى تهكم:

- وعند اللزوم تنضم هذه الجموع إلى فريق يحارب محمدا.. وتدخل فى دوامة حرب
لا ناقة لها فيها ولا جمل.

- كائنك يا ضمام ما زلت تحمل من قومك أن خالفوك بانضمامهم إلى هوازن وثقيف
في حربها محمدا؟!

- وما يدريك يا أبا عبد العزى أنهم لن يخالفوني إذا ذهبت إلى محمد، وعقدت معه
اتفاقا؟!

لقد غدر بى قومي، وكان يمكن ألا يحدث لهم ما حدث لو أنهم عقلوا موقفى،
وأحسوا حدى عليهم!

- يا ضمام.. لكل جواد كبرة، ولكل أصيل هفوة!!

- الغدر ليس أصالة يا أبا عبد العزى.. وإن واجهت الحقيقة ستقول لك: إن الغدر
سمة حياتنا، وما خنوع الضعيف، وسيطرة القوى، وما أكل أموال الناس بالباطل،
وذيوع الفحش والفجور، إلا من أثر الغدر فى حياتنا:

وصمت لحظة، وقد عاد إلى هيئته الأولى:

- لا تقل إذن كبرة وهفوة، فهذه تبريرات لا سند لها، ولا أساس.

وسادت فترة صمت كانت على الجموع دهرا من المزار، والخوف،

وإذ وقفت الجموع تترقب الرد.. شقت الناس امرأة فى اتجاه ضمام.. وعلا صوتها
متوسلة فقطع الصمت المطبق رغم ضعف جسدها، ووهن قوتها، وتقدم سننها.

وقبل أن يصيح الفتى مناديا لها، إذ كانت هى عمته، لقه إعجاب بها، وانبهار شديد
بموقفها، وجعل ينصت أولا لما يمكن أن تقول.

ولون أن تراه أو تحس به.. اندفعت ناحية ضمام قائلة:

- بأبى أنت وأمى ... هلا استجبت يا ضمام؟! إنها رغبة كل أم تكلت كل من
ولدت.. ورغبتى وقد تكلت آخر أبنائى.. ورغبة وكل أم لا تحب أن تتكل ولدها فى حرب
قادمة..

ورن الصوت فى أذن ضمام.. ونقل إليه من المعانى ما تزدهم بها الخواطر، ومن
الأحاسيس ما تجيش به النفس، وتفيض عن الوجدان!

رن الصوت في أذن ضمام فاعتدل في مجلسه، وتلقى صاحبتة، وهش لها، وإن كانت بشاشته احتجبت خلف صرامته فلم يبد منها غير القليل!
ويسط ضمام جانبا من عباته التي تدلت من فوق كتفه يجلس عليها القادمة...
- أقبلي أم همام .. فدتك نفسى.

وأم همام هذه فقدت ولدها في الحرب القريية.. أقرب حرب دارت بين العرب وبين محمد عندما شاركت بنو سعد هوازن وثقيفا، وخالفت عن رأى ضمام ونصيحته، وهى في الوقت ذاته من أخلص صديقات حليلة السعدية.
ولعت في ذهن ضمام فكرة، وفي لمح البصر رتب عليها موافقته:

وإذ ذاك طلب من الجموع أن تنصرف، وأن تدعه يتدبر أمره بطريقته.. وحتى يهدأ الناس أعلن موافقته على الذهاب إلى محمد شرط أن يقتنعوا بما اقتنع به.
وانصرفت الجموع على هذا الأساس، وبقي ضمام.. كما بقى معه أبو عبد العزى
وأم همام وابتدر ضمام أم همام:

- أريد أن ألقى حليلة..

- ما تريده منها..؟

فقاطعها:

- أعرف منها أمر محمد.. لقد أرضعته.. وحضنته، ولا شك تعرف عنه شيئا أى شىء!!

- بل تعرف عنه الكثير الذى لو قالتة في حينه لاتهموها بالجنون أو أنها أصابها مس من الشيطان.

- وأين أجدها؟!

- لن تستطيع أن تلقاها.. فقد برح بها المرض، وأستطيع أنا أن أجيبك فيما تريد الإجابة عليه.

لقد كنت معها طوال حياتها.. عشنا معا أيام الجذب، وقاسينا أهوالها، كما عشنا

أيام الرخاء، واقتسمنا ظلالها. وأسرار محمد معها عندي.. وستكون راضية بلا شك عن حديثي معك.. وما جئت إلا لإحساسى بأنك ستسأل عن محمد.. فأنت رجل حصيف وسترتاد الطريق الصحيح يا ضمام.

- إذن.. احكى لى.. أفصحى عما تعرفينه عن محمد..

فاعتدلت المرأة فى جلستها.. وخطت بأصابعها فى الرمل تحت قدميها عدة خطوط ثم قالت:

- لأدري إن كان ما سأقوله لك ذا أهمية أم لا.. لكنى سأقوله.. حكاية حليلة بل حكاية محمد منذ التقت به حليلة فى مكة، وأخذته من جده عبد المطلب، وعادت به إلى الديار يتيمًا فقيرًا لا ترجو من ورائه نفعا كثيرا.

فقط عادت به لأنها لم تجد غيره ترضى به.. أو إن شئت فقل: عادت به لأنها لم تجد من يرضى بها ورضى هو بها، ولو لم يرض بها لعادت فارغة اليد.. خاوية الؤفاض... بينما من كن معها عدن ومع كل واحدة منهم صيدا ثمينًا.. طفلا غنيا تغتنى من ورائه. وسكنت هنية..

فقال ضمام:

- إيه يا أمه..

فقالت وهى تحاول أن تسترجع ذكرياتها:

- كانت سنة مجدية.. أصابنا فيها القحط، لا زرع، ولا خمرع.. ووفدت حليلة على مكة حيث الثروة والجاه والسلطان تبحث عن وليد من ولدان قريش الأغنياء ترضعه..

ثم نظرت إلى ضمام نظرة ذات مغزى كبير وأردفت:

- لم تكن حليلة وحدها التى وفدت على مكة فى هذا الشأن.. بل كان معها مرضعات كثيرات من بني سعد جئن إلى مكة لهذا الغرض ذاته.

وكان الإرضاع وسيلة من وسائل التكسب فى بيئتنا، وفى زماننا لمن ضاقت بهن السبل، للتكسب فى تلك الأيام التى وصل فيها التفاوت بين الأفراد والقبائل فى المناقب والثروة، والجاه، والسلطان حدا، انقلبت به كل الموازين لحياة أمنة، مستقرة. وتنهدت تنهيدة عميقة...

- ومن أين يأتي الاستقرار للأفراد أو للجماعات، والجهالة قد استفحل أمرها، واستغلظ حتى خرجت الحرائر، وبعضهن في صحبة أزواجهن يبحثن في حزن الثروة، وعلى هامشها عن فتات يقتتن به، ويقدمن في مقابلة من صدرهن صلب الحياة للآخرين، ومن أرواحهن رحيقها وأنسها وبهجتها، ومن ينحنين على الولدان الساعات الطوال من الليل أو من النهار في دأب ومثابرة، وعزم لا يلين، وصلابة لا تعرف الضعف إلا من أجل هؤلاء الأبرار، الأطهار، وهم يفتحون عيونهم على هذه الحياة دون أن يدروا عنها ولا منها شيئاً إلا أن يأخذوا.. ويأخذوا فقط، وهذا حقهم ليوم أت لا يعرفون فيه إلا مصيرهم عندما يكبرون، ويشبون عن الطوق، ويصيرون مهينين لأن يعطوا للحياة في مقابل ما أخذوا منها، ويقدموا شيئاً مما حصلوا عليه سلفاً.. وسكت ضمام، وهو يلمس جيبته بأصابعه، ويعقد ما بين حاجبيه.

فقال أم همام:

- ذهبت حليلة إلى مكة، وكنت معها في هذه الرحلة.. وكان من عادة سادة قريش، وقد تركزت في أيديهم الثروة، والسلطة بين العرب جميعاً أن يرضع أولادهم مرضعات من غير أمهاتهم من البادية حيث الجو النقي، أصفى من جو مكة.. وفي هذا الجو النظيف السليم ينمو الوليد أول ما ينمو في صحة وعافية.. ناهيك عن الوجاهة، والفخر بأبهة الترف والرخاء..

ذهبت حليلة إلى مكة تقاسي وأهلها شظف العيش، ما لم يحس به ولا بثقله ومهانتة سواها، وقومها حيث الكل حولها مهموم بهم، وحيث الكل لا يرى في الكل إلا ضياعاً، وأسوداً، انتصبت على قوائمها لتنهش، وتفترس، وحليمة تبحث عن وليد ترضعه إنما تطلب الحياة بجانبه لنفسها ولوليدها الجديد الذي أنجبته، وعجزت بسبب القحط والجفاف أن تمد له حتى مجرد يد المساعدة لينمو، ويترعرع ويشب كما يشب لداته في المهد عندما تنهيا، وتتوفر لهم سبل الحياة في ظل عيش كريم. لم تجد حليلة الضرورى.. الحد الأدنى من الضرورى لترضع وليدها، فقد حاقت بها وبقومها سنة جدياء، أصابتهم فيها مجاعة، فلا ضرع لديها تعتمد عليه لتقتات، وتقيت، ولا زرع لما بقى من ضرع، وما كان لديها سوى ناقة عجفاء، وبعض الماعز، وأتان تعتمد عليها في تنقلها.

حياة أقل ما يقال عنها: إنها غاية فى الصعوبة.. حياة عندما توصف بصفتها الحقيقية يقال فيها: إنها افتقدت كل عناصر ومقومات الحياة.

والإنسان يا ولدى جواد بكل شئ، رضى أو كره، ماعدا شيئاً واحداً لا يوجد به إلا من أجل الحياة، وهذا الشئ هو الحياة ذاتها.

لذا ذهبت حليلة إلى مكة رغم عدم الزاد، وهلاك الراحة، ووعثاء السفر، مخاطرة بحياتها، تبحث عن الحياة لوليدها، وانفسها ولقومها، فى وليد قرشى ترضعه، وتتبلغ من ريعه لتبقى الحياة!!

ولا يستطيع قاص أن يصور مبلغ معاناتها وزوجها فى هذه الرحلة.. بل فى هذه المغامرة القاسية، وهى تقطع الطريق من ديار بنى سعد إلى مكة عليها تبلغها على أتانها تحملها، وهى فى حاجة إلى ما يحملها، وناقتها تهتز، وتضرب فى مشيتها من ضعفها فى بحر الصحراء، كشرع تلعب به الرياح، والأنواء فى خضم الصحراء المخيف.

وكان من معها من نسوة بنى سعد أحسن منها بعض الشئ.. كن يسبقنها أنا، وأنا يتملن، وما تمهلن إلا ضرورة المسافر فى القلاة الموحشة يحتاج تكوة من غيره، ليعبرها بسلام.

وحسب حليلة وزوجها أن يبلغا على ناقتهما وأتانهما أملهما، ولو قطعاً عليهما دهرًا فى القلاة!!

وتسرح أم همام هنية.. ثم تعاود حديثها:

- وتصل حليلة مكة، وتقبل مع المرضعات، ويُعرَضُ عليهن اليتيم القرشى..

فقاطعها ضمام: اليتيم؟!

- نعم اليتيم.. قالوا إن أباه مات فى إحدى رحلاته التجارية، وهو لم يولد بعد.. وكفله جده..

- إيه يا أمه..

- يُعرَضُ عليهن الوليد محمد بن عبد الله اليتيم الذى يوجد فى كنف جده عبد المطلب، ويطلب الجد منهن مرضعة له، فيُعرضن جميعهن ليتمه وكفالة جده، وعدم

السعة لديه.. زاعمات أن الجد لا يمكن أن ينفق بسخاء كما ينفق عليه أبوه، وزيادة فهذا الجد ليس في يسر غيره من القرشيين، ولا فائدة من ورائه، ولا غناء فيه، وما قطعن الصحراء واجتزن الفلاة مضحيات بأرواحهن ليعدن صفر الأيدي إلا من يقيم فقير لا يملك أهله له ولا لهن شيئا!!

كن يعرضن عنه بسبب فقره وإن كن لم يصرحن، والتلميح يغنى عن التصريح، حتى حليمة نفسها أعرضت عنه أول الأمر كما أعرض غيرها.

★ ★ ★

وتمسك أم همام حصاة.. ثم تقذف بها بعيدا:

- وتصادف كل مرضعة مبتغاها، ويحصلن على ولدان عاندهم مضمون من الثروة والرخاء، ما عدا حليمة.. تعرض نفسها فلا تصادف قبولا، وكان جواب الآباء والأمهات الرفض، والامتناع، لأن الفقر والجوع عضاهما أكثر من غيرها، فبدا ضعفها جليا لا يخفى على ذى عينين، والضعف، والهزال، ينبئان بالخبر اليقين، إذ كيف تمنح الحياة، وهي تفتقد أبسط عناصر الحياة؟!

وتبلغ الرحلة غايتها..

ويهم الجميع بالعودة..

ويتهيأ الركب للرحيل..

وتهم حليمة في حزنها مسامرة الجميع.. صفر اليدين، ما كسبت شيئا في هذه الرحلة وقد خسرت كل شيء.. إذ كانت حصيلتها من هذه المغامرة ضعفا جديدا تضيفه إلى ضعفها، وقنوطا تضيفه إلى رصيد حياتها التي ما حلت فيها حلما مشرق الملامح في يوم ما!!

وقر في ذهن حليمة أنها النهاية المحتومة، ولا بد أنها ملاقية هي وزوجها حتفهما في طريق العودة..

وفكرت بسرعة.. وهداها تفكيرها في اللحظة الحرجة، وهي تزمع الرحيل:

«إن كان ولا بد من الحرمان فشئ يسير خير من لا شيء، وطفل يتيم.. فقير.. خير

من عدمه، وإن كان قسم له كسرة خبز فسيبقى لها نصفها تمد به وإيدها المسكين الذى جاء مجهول المصير!!

وتحس حليلة بالهدوء، ولأول مرة تشعر بخفقان قلبها الذى كاد يهدأ هدأته الأخيرة، ثم يعقب هذا الهدوء نبض منتظم! هكذا حدثتني.. نعم.. نبض منتظم له إيقاع، ورنين هو رنين الحياة بعينها، وكأته نشيد العاقية.

وصارت يحدها الأمل فى غد حلو، وحياة تجد فيها دبيب الحياة وحرارتها، وهفت نفسها إلى اليتيم، وأسرعت تستحث الخطأ إليه فى دار جده، ورحبت به رضيعها، وتمنت، ورجت ألا يخيب هذا التمنى، وألا يذهب الرجاء سدى، وكأنها موفدة إليه تسترضيه أن يقبلها وأن يرضى بها.. وجاشت عاطفتها فتمنت أن تضمه إلى صدرها.. لا يهم أن تجد ما ترضعه إياه.. هذا ليس من شأنها.. ستجود ما وسعها الجود، المهم أن ترضعه ما صارت تملكه الآن، وبقوة، ترضعه حنانا، وعطفا وحبا.. ترضعه كيانا خاصا لا يتمثل للعين فتراه، ولا للحس فيلمسه، كيانا غير مجسد يفوق فى جدته أى جديد.. يفوق فى روعته أى كيان رآه، أو سمع به بشر من قبل، وقد لا يراه أو يسمع به بشر من بعد.

أحلام كثيرة قفزت إلى سطح حياتها الجديدة..

قطعا سترضعه..

وستجد لديها ما تمنحه له..

وما قدرت حليلة أن المانع سيكون هو الممنوح.. كما لم تقدر من قبل أن الطالب سيكون هو المطلوب، والمرغوب فيه.. بل والمنى فى وقت عز فيه المنى !

ويقدر ما كانت حليلة تواقه إلى محمد.. والعودة به إلى ديارها فلقد عز فراقه على جده إذ لم يعرف الكون أحدا أثر أبنا لديه كما أثر عبد المطلب محمدا.

ويشهد عبد المطلب انهيار المقاييس فى البيئة.. واستحداث موازين جديدة على يد ابنه..

وحليمة التى عاشت فى ظل ميزان معوج مائل زمنا ليس باليسير تحس اعتدال هذا الميزان على يدى هذا الرضع الفقير اليتيم.

وتنهار المقاييس فى توصيف البشر.. فلم يعد المطلوب هو الغنى وحده.. بل والفقير أيضا، ولم يعد المرغوب فيه من له أبوان يعيش فى كنفهما.. ويتمرغ فى خيرهما، ويتربع على عرش مالهما، بل واليتيم الفقير كذلك.. ولم يعد من يقدم الجود، ويقبل على المكرمة هو من يملك أسباب الجود، ويقبض على ناصية المكرمات.. بل والمعدم كذلك!!

ويعتدل الميزان صوب الإنسانية..

ستأخذ حليمة هذا اليتيم..

تأخذه وحسب..

ونسيت حتى كسرت الوحيدة التى يمكن أن تحصل منها على نصفها لابنها المسكين الذى يعيش بين أبويه، وفى حضنهما، وقد عجزا العجز كله عن منحه الحياة، ومن يدري... لعله يجد فيمن هشت له، وهفت نفسها إليه، ونبض به قلبها.. لعله يجد فيه ، وفيه فقط الحياة!!

والحياة ليست كسرة خبز..

ولا.. قطعة من قديد...

ولا.. شربة ماء.. أو رشقة من حليب..

ياالله!! ما هذه الحكمة؟!

هى لا تعرف الحكمة..

بل.. ما هذا الشعور الجديد.. الغريب؟!

نعم.. هى أدري به.. وهى فى فطرتها تدركه جيدا..

★ ★ ★

وتنظر أم همام إلى ضمام.. وتبرق عيناها ببريق مثير وهى تردف:

- تحتضن حليمة الوليد وجده يسلمه لها، وتتملى منه عيناها فى وله كتوم، هو وله

العاشق، وعشق حبیب هو عشق الصوفی معبوده یبثه لواعج حبه فی محرابه.

ما ألقى هذا الوله!!

وما أروع هذا العشق یسیطر على حلیمة.. تجلجل أصدائه الحلوة فی النفس
الكسيرة فتقوى كأروع ما تكون القوة، وتشتد كأعظم ما تكون الشدة، وتصفو كأنقى ما
یکون الصفاء!!

روح جدیدة دبت فی حلیمة..

بل وسرت فی نفس ، وعقل، وقلب صاحبها، وهو یوافق راضیا مغتبطا بصحبة
الیتیم عاندين به إلى دیارهما.

ولقد سرى شطر من هذه الروح فی الكون كله، فغدا مشرقا غاية الإشراق، ولم تعد
الصحراء هی الصحراء.. ولا الرمال هی الرمال.. ولا السماء هی السماء.. بل ولا الهواء
هو الهواء!!

كسیت الصحراء ثوبا جدیدا لم تألفه العين من قبل.. وتلونت السماء بلون جدید لم
تستطعمه النفس من قبل.. وصار الهواء نسمات رقيقة تهب بشذا جدید!!

والدابة الهرمة لم تعد هرمة.. والناقة العجفاء لم تعد عجفاء.. حملهما والولید.
وانطلقوا معا فأسرعوا فی الانطلاق..

بزوا الجمیع سرعة فی طریق العودة..

سبقت دابتا حلیمة كل الدواب فی مشية لا خشونة فیها ولا قلق.. مشية هی فی
سرعتها أقرب إلى هدهدة المهد للولید بیّد حانية.

ویزداد الطلب على الطالب.. ویصل الجمیع إلى الدیار.. وقد هض الدنيا للحدث..

فی بنی سعد.. بلا زرع یدر الضرع!

فتشرب حلیمة حتى ترتوی، ویرتوی معها صاحبها من ناقتهما التي كانت بالأمس
مجذبة ویرضع الیتیم، ولأول مرة یسبح معه أخوه فی الرضاع.

ویهطل المطر غزیرا فنحضر الدنيا فی قاحل الصحراء.. وتتواء الجبال، وتتفجر

ينابيع الخير من قلب الجذب.. ويستتير الكون في حالك الظلام!!

وتتوالى البراهانات..

وتكثر الإرهاصات..

ولا تدري بنو سعد أن الوليد اليتيم الذى عافته المرضعات يوما لفقره،
ويتمه وقلة موارده الملموسة، وحامت حوله حليلة ضرورة.. ثم أخذته رغبة وحبا
وجاءت به «بنو سعد»، وجاءت معه الخضرة تغير وجه الصحراء القاحلة.

جاء يدر الضرع فى البهم العجماء.. يسقى الظماء، ويشبع الجياع.

لا تدري «بنو سعد» أن الذى جاء لهم بالحياة وهو طفل في مفهومها المادى البسيط،
سيجيئهم يوما بالحياة فى مفهومها الواسع الرحيب.. حياة العقل والقلب.. حياة الجسد
والروح.. حياة الدنيا والآخرة فى ظل خالق الحياة وواهبها، يستقونها مرة أخرى بفكر
جديد، وقلب جديد، ويعيون منها ما كفاهم العب، وماقدروا عليه... فقط ما عليهم إلا
استرجاع شريط الذكريات، واستعادة الظواهر، واستيضاح البرهانات من وراء
الأحداث، واستقرائها.

ما عليهم إلا اليقين بالإرهاصات، واستجلائها من وراء سدف السنين الطويلة، فتتبع
«بنو سعد» أخيرا كما قنعت به أولا، وتؤمن به نبيا ورسولا كما أمنت به من قبل طفلا
يتيما لا حول له ولا قوة، وما من عناية كانت ترعاه، وترعى ما حوله ومن حوله إلا عناية
ربه الواحد الذى لا شريك له ، والذى بعثه يدعو له، ويبلغ رسالته، وينشر دينه.

وصممت أم همام، وهى تسرح فى الأفق البعيد..

ويستغرق ضمام بن ثعلبة فى فكر عميق..

.. إن كانت «بنو سعد» تأخرت زمنا ليس باليسير فى الإيمان بنبوة محمد، واعتناق
دينه، وكان الأجدر بها دون غيرها ألا تتأخر هذا الزمن ، بل كان الأجدر بها، ولها
بمحمد صلة معرفية يقينية أن تسرع إليه قبل غيرها، تؤمن به، وتؤازره وتناصره، ولو
لم يكن هناك غير شق صدره بين ظهرانيتها لكفاها فى أن يجعلها ترقبه، ولا تغفل عنه،
وتتابع تطوره حتى يأتى يومه الموعد، وغدا المأمول.

إلا أن «بنى سعد» ركبت، أو ركبتها موجة الكفر السائدة في ذلك الزمن الغابر،
فشذت ، وعاندت كما عاند غيرها، وحاربت محمدا في مواقع كثيرة كما حارب غيرها،
وضاع من يدها مفتاح خلاها.. وخلودها.. حتى جاء الزمن الذي استعادت فيه رشدها،
ووعت كل ما مضى!!

واستعادت بصيرتها نور اليقين..

فأمنت بمحمد وصدقت به..

وهي بسبيل أن ترسل وفدا آخر غير وفد حليلة.. وفدا يبایعه بالإسلام.
وما كان محمد اليتيم.. الرضيع المرضع في «بنى سعد» والنبي والرسول في
المدينة، وبني سعد، وكل أقطار الدنيا ينتظر منها، ولها أقل من ذلك.
وضمام يقبل أن يذهب إليه نيابة عنها..

توفد إليه رجلا واحد..

أمینا في وفادته..

صادقا في كلمته..

حصينا فيما سأل..

وموفقا فيما أوجب به..

★ ★ ★

تهيم الراحلة بالمرتل.. ويرقص قلب المرتحل على توقيع الراحلة، وهما ييممان
وجهيهما صوب المدينة لينعما بقاء الرسول .. رسول الله ﷺ .. محمد بن عبد الله.

لحظة من الزمن.. هي الزمن كله .. يستعجلها ضمام ليصل إلى المدينة، ويلتقى فيها
برسول الله ﷺ .. لحظة من الزمن.. هي الزمن كله .. يرى فيها ضمام محمدا،
ويتحدث إليه.. فقط يتحدث إليه، ولو جملة ، ولو كلمة، فقط يستقبلها سمعه، وعقله،
وقلبه، وهي تخرج من بين ثناياه الشريفة..

ويصل ضمام إلى المدينة، ويقدم على مسجد رسول الله ﷺ، ويريح بعيره فينيخه على بابه، ثم يعقله، ويدخل المسجد، ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه.

وكان ضمام رجلاً جلدًا، أشعر، ذا غديرتين^(١) ويقبل حتى يقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويسأل في صدق:

– أيكم ابن عبد المطلب؟ يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويرد رسول الله، ويخبره أنه ابن عبد المطلب.

ويقول ضمام:

– أمحمد أنت؟

ويقول الرسول الكريم: نعم

ويقول ضمام:

– يا ابن عبد المطلب.. إنى سائلك، ومغلظ^(٢) عليك فى المسألة، فلا تجدن^(٣) فى نفسك.

ويقول الرسول الكريم: لا أجد فى نفسى.. سل ما بدا لك.

ويقول ضمام:

– أنشدك الله إلهك، وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، أله بعثك إلينا رسولاً؟

ويقول الرسول الكريم: اللهم نعم.

فيقول ضمام:

– فأنشدك الله إلهك، وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، أله أمرك أن تأمرنا أن نعبد وحده، لا نشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد^(٤) التى كان آبائنا

(١) الغديرة: الذؤابة

(٢) مغلظ : مشدد ومثقل

(٣) تجدن: تحملن

(٤) الأنداد: الآلهة المزعومة

يعبنون معه؟

ويقول الرسول الكريم: اللهم نعم.

ويقول ضمام:

- فأتشهدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك.. أله أمرك أن
نصلى هذه الصلوات الخمس!.

ويقول الرسول الكريم: اللهم نعم.

ويتحدث ضمام.. فرصة العمر.. فى لحظة من الزمن يخاطب فيها رسول الله صلى
الله عليه وسلم، يقف الزمن كله عندها.. ويذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة..
الزكاة.. والصيام.. والحج.. وشرائع الإسلام كلها.. ينشده عند كل فريضة منها كما
ينشده في التي قبلها.. حتى إذا فرغ قال:

- فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، وسأؤدى هذه
الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد، ولا أنقص:

ثم انصرف.. انصرف إلى بعيره الذى أناخه قبل على باب المسجد.. راجعا إلى قومه
في بنى سعد.

فيقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم:

« إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة ».

أتى ضمام بعيره، فأطلق عقاله.. وما زال يغذ السير راجعا حتى قدم على قومه..
وما أن وصل حتى اجتمعوا عليه، فكان أول ما تكلم به:

«بئست اللات والعزى».

قالوا:

- لا تقل هذا يا ضمام ، فقد تخرسك الالهة أو تصيبك بالبرص أو الجنون.

ويجيب ضمام:

- ويلكم يا قوم.. إنها ليست سوى هياكل من حجارة أو طين وهى لا تنفع ولا تضر،

إن الله قد بعث رسولا، وأنزل عليه كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا
إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وقد جننتكم من عنده بما
أمركم به، وما نهاكم عنه..

فماذا أنتم فاعلون؟

وكأنه يذكرهم بما كان من أمرهم، وهم يرجون وفادته..

وتستثير القلوب..

فما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما (١)

★ ★ ★

(١) ابن هشام ج ٢

أبواب الجنة

وفد همدان

لم يترك قيس بن مالك الهمداني شيئا من أفعال الجاهلية إلا فعله!!

شرب الخمر.. فما يكاد يفرغ من كأس حتى يعب أخرى!!

ولعب الميسر.. فقد كان ذا يسار.. ورغم صغر سنه في هذا الزمن إلا أنه كان كبيرا في أهله وذوى قرياه.. وكان سيدا مطاعا في قومه.. وكانوا يقيئون من دخولهم أيا كانت هذه الدخول : غنائم.. أو تجارة.. أو سطو ونهب واغتصاب.. أو زراعة.. أو صيد وسواه.. كانت له ميزة يمتاز بها، وكانوا لا يقصرون في شئ معه!!

وطارد النساء.. فقد كانت له أكثر من زوجة، كما كانت له كذلك أكثر من خلية.. عدا من كن ينزو عليهن لرغبة أو نزوة في لحظة مجنونة.. وكل لحظاته في هذا الزمن كانت مجنونة.. ولا حساب، ولا عقاب.. فهو الكبير وصاحب الهيمنة والسلطان!!

وتعامل بالربا.. ولا حرج فقد كان التعامل بالربا هو التعامل السائد في المال، لا بين، قبائل اليمن وحدها.. وإنما بين كل القبائل العربية في كل الأماكن العربية.. في الجزيرة.. والشام.. واليمن.. والعراق.. كان هذا هو نظام التعامل السائد في المال!!

وعبد الأصنام.. والأوثان.. ولم يكن له ليعبد آلهة غيرها، فلقد شب عن الطوق ولم يجد أمامه إلا هي.. يتقدم لها الآباء بعد الأجداد بطقوسهم، ويتقربون لها بالقربان.. وينذرون لها النذور.. وكان يجد في حوزتها الحلوى، والدراهم الذهبية، والياقوت.. واللؤلؤ.. والمرجان.. ولا يجرؤ أحد أيا كان على الاقتراب منها وأخذ شئ مما في حوزتها!!

أليست آلهة؟! والآلهة قادرة على فعل أى شئ؟!!

وكان يجفل.. وتصيبه رعدة وهو يفكر في أن يعد يده ولو لمجرد التجربة.. لأنهم كانوا يشيعون أن الآلهة تصيب من يعصياها بالبرص.. وتصيب بالمرض، وتصيب بالجنون.. وتهلك من يثير حفيظتها.. وليس هناك ما يثير الحفيظة قدر التعدي على

الملكية الخاصة، وهذه القرابين.. وهذه النذور.. وهذه الحلى.. وهذه الدراهم.. والجواهر في حوزة الآلهة ملكية خاصة لها.. لا يجوز لأحد الاقتراب منها أو التعدي عليها.

وتصادف أن دخلت في عينه بعوضة، وهو يدور ببصره حول الحلى في حوزة صنمهم الإله فجفل.. وأصابه الهلع.. ولم يسترح إلا بعد أن قدم قربانا يفوق كل هذه القرابين التي كانت في حوزة هذا الإله!!

فعل كل ما كان يمكن فعله من ترهات، وأباطيل الجاهلية.. قاد قومه في الإغارة على القبائل الأخرى.. وعلى قطع الطريق.. والخطف والنهب.. والسلب.. وأقرب إغارة تلك التي قامت بها همدان كلها على مراد، وقتلت منها من قتلت.. ثم نهبت، وسلبت وخربت، ودمرت ما بقى من الديار، وسأقت من انهزم أمامها ممن بقى من مراد سوق العبيد، بل وباعتهم في سوق النخاسة!!

لم يترك قيس بن مالك سئ من أفعال الجاهلية إلا فعله.. ولم يكن يفكر أو يسأل نفسه وهو يقدم على فعل شئ أى شئ... لم يفعله؟! ما الدافع؟! وما النتيجة؟!

ما كانت تتوارد على خاطره هذه الأسئلة.. فلم تكن لحياته في ظل هذا النظام فلسفة.. كما لم يكن لها هدف.. ولا غاية تصل إليها.. اللهم إلا ما توارثه الأبناء عن الآباء من هذه الحياة!!

وذاث يوم.. وكان يقود فريقا من الشباب.. وليس في ذهنهم شئ محدد في هذا اليوم حتى بدت من بين ثنيات الوادى ظعينة.. فتواروا خلف الصخور.. واستعدوا للانقضاض عليها وهي تعبر المنحنى أمامهم..

وحانت الفرصة.. ودنت اللحظة.. وخرجوا من بين الصخور كنمور.. أو أساد كشرت عن أنيابها تنتزع بها القلوب من بين الضلوع!!

وكانت المفاجأة التي لم يحسب لها أى حساب.. فردا واحدا من القافلة أخذ يناوشهم في محاولة لاستدراجهم بعيدا عن القافلة وهي تسير..

وعندما صار المكان ميهأ له للكر والفر.. أخذ يكر، ومع كل كرة يصيح: «الله أكبر» ثم يحبذل فارسا من المهاجمين.

ويفر بما يغري بالاستعداد له للنيل منه.. والثائر لمن قتل.. ويعود فيكر..

وكان قيس ومن معه يرونه ، وهو يكر عليهم.. ولا يرونه في الوقت ذاته.. كانوا يرونه كتلة مندفعة كجلمود صخر قذف به السيل من أعلى.. فلم يكونوا من سرعته .. ولا عتفه، وشدته يتبينون شيئا من ملامح تدل عليه!!

كان جواده لا يكاد يلامس الأرض بجواره.. ثم تغلفه عاصفة ترابية وهو يقترب فما كان يرى فيه غير لمعة سيفه، وهي التي تدل على وجوده.. ثم لا يلبث حتى يخطف سيفه عمرا آخر من أعمار الرفاق.. ويذهب روحا من أرواحهم!!

وحدثت قيس بن مالك نفسه بالانسحاب.. بل بالهروب والفرار من هذا الموت المحدث.. والذي لا سبيل إلى وقفة أو مكافحته..

لكن حماس الشباب معه، واندفاعهم، وعدم تفكيرهم في المصير الأسود، والذي جرهم هو إليه كان يثنيه.

واحتوت الجميع عاصفة ترابية لم يكن في أثنائها يستطيع أن يتبين وجه من بجانبه.. وما كان يرى غير كفه.. ويستطيع قيس بن مالك في هذه العاصفة أن يعد الصيحات التي صاحبها هذا الفارس الغريب.. صيحات: «الله أكبر» فهي بالضبط بعدد الفرسان الذين جدلهم وأرداهم ، وأطاح برؤسهم من فوق أجسادهم.. هذا كله، والقافلة تسير، وكان شيئا لم يكن.

وداوغ قيس بن مالك محاولا أن يستجمع في المراوغة من بقى من الشبيبة معه.. ويهدئ من ثائرة هذا الغريب الشرس.. المتعطش للدماء، والذي لا يضارع جبروته في أى مكان، وعند أى إنسان من الناس الذين تعامل معهم في حياته على امتدادها فوجد أنه لم يبق من الشبيبة أحدا على قيد الحياة!!

وأجبره الفارس على الالتفات إليه.. وصيحته تأخذه من جميع أقطاره.. فيستولى عليه الفرز ويصيبه الوجل حتى ليسقط السيف من يده، وكأنه ماء خائنه فزوج الأصابع.. ثم ينتزعه الفارس من فوق جواده، ويهوى به إلى الأرض.

وهي ثوان يجد نفسه مقيدا بحبال غليظة.. مغلولا في يديه، ورجليه، ورقبته.. يجد نفسه مربوطا في ذيل بغل من البغال التي تحمل عليها القافلة بعض أثقالها مع الجمال

والخيول.. وتتقرب القافلة من تل.. فى سفحه بعض الخمائل.. والحشائش.. وتحين لحظة
الراحة فى القيلولة، فتتوى إلى الظل الظليل.

ومادام هناك خضرة.. فبالضرورة هناك ماء.

وعثرت القافلة على ماء نعيم.. وتحلق الرجال وأشعلوا نارا لإعداد الطعام.. ونزلت
النساء فى أردية.. وخُمر غير معهود لبسها بين نساء همدان، ولا غيرهن من القبائل
الأخرى.. وقيس بن مالك هناك بين البغال يرسف فى أغلاله.. وأنساء ذله من لقوا
مصرعهم من خيرة الشباب فى همدان، ومن فتنهم عجبهم بأنفسهم، وأنساءهم الكبر ما
يمكن أن يلقوه من مصير محتوم كذلك الذى كان ينتظرهم فى هذا اليوم المشنوم ،
وهذه الساعة السوداء، أنساء ذله ما سوف يقوله لقومه إن أتيج له أن يفك قيده..
ويتخلص من أسر.. ويعود لحياته التى كان يحياها جليلا مهيبا، له فى قومه كل شئ..
وليس عليه أى شئ.. وتمنى وهو فى معطن الإبل.. ومربط الخيل والبغال.. تمنى لو
يضره أحد ضربة واحدة شديدة تزهق روحه، وينتهى فيها عمره.. ويتلاشى وللأبد..
فهذا أهون عليه ملايين المرات من مصابه.. ومصيره!!

وقد عز الخال بعد أن أكل القوم.. وبعد أن شربوا قاموا وغسلوا بعض جوارحهم ..
ثم اصطفوا يتقدمهم واحد منهم.. وأخذ يتلو كلا ماله ترانيم، وإيقاعات رطبية.. وهم
جميعا يتجهون وجهة معينة.. ثم يأتون بحركات فيها قيام.. وركوع.. وسجود .. وسمع
ضمن ما سمع الصيحة التى كان يصيحها الفارس، وهو ينقض عليه، ومن معه:
«الله أكبر» رددوها كثيرا مع كل حركة يتحركونها.. ثم انتهوا بالسلام!!

ودخل النساء بعد ذلك أخبية صنعوها لهن.. وهدأوا جميعا كأنهم أوا إلى مخادعهم
فى سكنية، وفى هدوء، وغطوا جميعا فى نوم عميق.. وقضوا فى راحتهم بقية النهار،
وأيلة ذلك اليوم!!

لم تغفل لقيس بن مالك عين فى هذه الليلة.. وسرح به الخيال فيما يمكن أن يفعل
به.. فوجد نفسه مرة يقطع بسيوف القوم تقطيعا، وخال جوارحه تمزق، وتنتزع منه
جراحة جراحة.. ثم خال نفسه مرة أخرى مع التقاتل الشديد.. والظن الحسن ملقى به
فى ودة من وهاد الصحراء المتسعة الفسيحة نون أن تفك قيوده يلقى مصيره مع

لدغات الحيات والأفاعى، وما أكثرها ، وما أبشعها في هذه المناطق الوعرة، والتي يعرفها جيدا..

وإن نجا من الحيات والعقارب والأفاعى ..فلن ينجو من مخالب الوحوش ، وأنيابها الحادة، وفي أحسن الأحوال لن ينجو من حرارة الشمس، والعطش القاتل في هذه المفازة المهلكة.

ووجد نفسه تهجم عليه حية شديدة الخطب.. لها صوت كصوت الجرس، وقد ظهرت نواجذها، وهى تقترب منه.. ثم تنشبها فى جسده بلا رحمة، وهو يصيح فى أغلاله صيحات هستيرية.. ثم تخفت صيحاته، وهو يحس سمها يسرى فى جسده حتى يصيبه بالشلل التام، فيستسلم للقضاء، وهو تمر بذهنه حياته كلها.. وما فعله فيها.. وما فعله بها.. ويدرك أن هذه الحياة باطل.. فى باطل!!

★ ★ ★

ويصحو علي صوت رقيق.. يصحو وقد انحشرت الكلمات فى حلقه، وخبا صوته، والعرق يتصبب منه غزيرا بلا حساب.

ويتأكد أنه لم يموت.. وما هو إلا يهذى من هول ما تصور.. وما هو واقع بالفعل فى حياتهم التى يحيونها.. يتأكد أنه لم يموت.. والفارس الذى واجههم بالأمس يحدثه، ويتأمله جيدا.. إنه لايعرفه.. قد يكون هو فارس الأمس، وقد يكون غيره!!

يقول له الفارس فى سكونية، وطمأنينة نفس لم يعهدها فى إنسان قط:

— لا عليك ياسيد همدان.. إن هو إلا كابوس من أثر القيد.. ومعطن الإبل والبغال!!

ثم يتقدم منه، ويقتاده بعيدا إلى مكان أرقى.. وهو يتأرجح فى مشيته، ولا تستطيع قدماه أن تحمله كأنه ينوء بأحمال ثقال!!

ويفك الفارس قيده، ويقدم له الطعام والشراب.. ثم يقول له بعد أن ينتهى من طعامه وشرابه:

— يا سيد همدان.. لا شك أن حملك ثقیل..

فنجيب قيس بن مالك، وقد اطمأن بعض الشئ بعد أن فُكَّت قيوده، وقُدِّم له الطعام

والشراب.. يجيب وصوته يحمل من ملامح الإجهاد، وما لا يقوى على حمله الرجال
الأشداء:

- نعم.. أنت محق وحق الآلهة.. إن ثقل حملي يجعلني أناشدك أن تزهب روحى ...
أن تقضى على.. أن تضربنى ضربة واحدة لا أسغب بعدها، ولا أظمأ!!
فيجيب الفارس:

- هذا لن يكون .. «ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما
اكسبت» ﴿ البقرة: ٢٨٦ ﴾ ، لكن ورب محمد لو عدت لمثلها، ولو كانت من ورائك همدان
كلها فلن يعود من همدان إلا أنت.. حتى تحس بفداحة ما فعلت ، وتقتلك الحسرة أشد
وأفتك من قتلك بسيفي. وترن الكلمة فى أذنه: «رب محمد».. إذن هؤلاء قادمون من
مكة.. وهؤلاء لا شك مسلمون!!

لقد سمع الناس وبخاصة من يفدون بالتجارة من مكة يتحدثون عن محمد.. محمد
النبي القرشى.. لكن بعد المسافة عن مكة، وقلة وصول الأنباء عن الأحداث فيها.. وربما
قريش، وما تفرضه من تعقيم حتى لا يصل الخبر الصحيح عنه.. كل هذا وغيره من
ملايسات جعل المعلومة عن محمد ذاته تبدو ضئيلة.. إنما خبره كنبى وصله.. وهو يعرف
هذا الخبر.. لكنه لا يعرف شيئا عن نبوته، ولا عن دعوته.. ولا عن شخصيته.

وتدبر قليلا: أيمكن أن تكون هناك علاقة بين الفارس وما فعل وبين ما يعتقد؟
وهز رأسه: قد تكون هذه الأسئلة سابقة لأوانها.. لكنه رغم فداحة ما به انغرس فى
وجدانه شئ اسمه محمد.. وانطبع فى ذهنه حاجة اسمها دعوة.. ومحمد ودعوته باتا
يطغيان فى وجدانه وذهنه على كل ماعداهم!!

أكل ، وشرب.. وقد فك قيده.. وأيقن من النجاة.. والعودة سالما للديار..
وسأل:

- وهل تعلمنى من أنتم؟ وإلى أين تسير بكم الطريق؟

- إذا كنا سنلتقى .. ستعرفنا.. وإن كنا لن نلتقى فليس بك حاجة إلى أن تعرف عنا
شيئا.. نحن عابرو سبيل وكفى!!!

اذهب يا سيد همدان.. ولكنى والله أرى لك شائنا غير الشأن .. وموقعا غير الموقع!!
ولقد كان أسهل على من قيدك ضرب عنقك.. وإن القضاء عليك خير من أن أفك قيدك ،
فإنك إن لم تستقد من هذه اللحظة ستمضى وفى قلبك ثار على!!

ولكنى أقول: اذهب يا سيد همدان ، ولسوف يعينك الله على مصابك، وعلى أن
تواجه قومك!!

وقدم له الفارس جواده.. وأعطاه سيفه.. ورآه متعثرا ضالا، فأرشده إلى الطريق
الصحيح..

وانطلق.. وانصرفوا..

★ ★ ★

عاد قيس بن مالك مذهولا حتى عن نفسه.. فلم يتبين حجم الكارثة إلا عندما اقترب
من الديار.. وعندما سألته الأمهات عن الأبناء... والزوجات عن الأزواج.. وكان فى كل
سؤال .. وفى كل عين.. وفى كل نظرة يتجرع المرارة!! كان يحس الاتهام لأول مرة فى
عمره المديد..

وعندما قال واحد من القوم:

— أهى مراد، وقد خرجت من حجرها تلدغ كالأنعى؟!

أجاب على الفور:

— لا وحق الآلهة.. فما حدث لا يقدر عليه إلا أربابه.. وإنهم لمسلمون!

ولم يثقلت القوم كثيرا إلى تعليقه.. بل لم يكادوا يسمعون كلمة: «مسلمون» هذه
الكلمة لا تعنى لهم شيئا .. ولا تثير عندهم حسا.. أو فكرا.

وبقى قيس بن مالك فى داره أياما.. وكلما بعد الزمن بينه، وبين هذا الحادث كلما
استرجع قواه النفسية والفكرية.. ووجد نفسه يعيش مع محمد.. ورب محمد!!

«محمد» نبى كما يقولون.. وله رب آخر غير أربابنا.. كان الفارس، ومن معه
يناجونه فى حركاتهم وسكناتهم.. فى صلاتهم التى لا يعرفها.. لم يكونوا يرونه.. إنما
كانوا يتجهون إليه كأنه يراهم.. لاشك أن هذا الإله يختلف عن آلهتنا، ولا شك أنه هو

الذى ساعد الفارس وحده حتى تغلب علينا .. لقد أمدته بطاقة خلته بها يستطيع أن يواجه الدنيا كلها .. وإلينا لم يمدنا بشيء!!

ذهب إلى المعبود «الصنم» يستجلى الأمر فيما بينه وبين نفسه .. وبدأ بتجربة بسيطة دفعه إليها فكر بسيط لكنه عميق الدلالة..

قال فى نفسه: فلأخذن الحلى من خلف الإله... فلعلة أن يحس بى.. فإن أحس أعتذر له بتقديم كل ما أملك.

وأخذ الحلى من خلفه، فلم يمنعه مانع.. وذهب بها إلى بيته.. وأخفاها أياما.. وواراها ليالى.. وكان من أن لآخر عندما تظلم الدنيا يخرجها، وينظر إليها فقد يكون أخذها الإله خلصة كما اختلسها هو.. أو ربما يكون غير معالها.. فيجدها كما هى.. ويجد نفسه، وقد تشجعت أكثر من ذى قبل تدفعه التجربة إلى أن يذهب بها أبعد من ذلك.. فليأخذ الحلى مرة أخرى ويعيدها من خلفه.. ثم يقربها له من أمامه، ويأخذها وهو ينظر إليه.. وهاله أن شيئا مما كان يتصوره لم يحدث.. لم يعترض الإله .. ولم يبد ما يدل على سخط.. أو إحساس بما يحدث قريباً منه.. من وجهه .. من فمه.. من عينيه.. وضعها في فمه.. فى عينيه.. لطمه بها.. فلم يبد على ملامحه أى تغيير، لطمه على وجهه بيده.. فاهتز من شدة اللطمة.. لكنه لم يفعل شيئا!!

كاد قيس بن مالك يصرخ:

«ألا تحس .. ألا تدافع عن نفسك.. وممتلكاتك؟!»

وذهب بدون حلى وهو تساوره الشكوك فيما ورث عن الآلهة.. وهل إذا لم تستطع الدفاع عن نفسك، ولو حتى بإظهار عدم الرضا هل يمكن أن تصيب بالجنون.. أو بالبرص.. أو بالمرض.. أو بأية إصابة؟!

★ ★ ★

ومرت أيام .. ولم يحدث شيء!!

أوشكت صلاته بقومه أن تنقطع.. فقد غدا منذ آخر تجربة يخلى بنفسه كثيرا، وقد استولى عليه هم كبير..

«كنا نذهب قبل المعركة نتبرك بالآلهة.. فما كنا إلا نتخرج فى دمائنا .. وبالأمر القريب نذرتنا ربع ما نغنم لإلهنا .. فرحنا غنيمة لمن عبدا إله محمد.. إلهنا خذلنا .. وإله محمد نصر عابديه.. لا ... بل إلهنا لم يحس بنا.. إنه لا شىء.. فليس إلا حجارة صماء، لا ترى ولا تسمع، ولا تتكلم.. حجارة خلقت من كل مقومات الحياة.. وحتى لو كانت عبادتنا لها زلفى لتقربنا إلى الله ، سواء كان رب محمد أو أى رب آخر أعظم، وأقوى.. فكيف يتأتى لها القيام بأعباء الوساطة وهى فاقدة كل حس وكل حركة.. كل نشاط فكري أو معنوى أو وجدانى.. أى نشاط.. أى نشاط!!

وكاد يصاب بالجنون وهو يواجه نفسه:

أيمكن أن نكون قد خدعنا هذه القرون؟! أيمكن أن نكون قد ورثنا هذه الخديعة اللاحقون عن السابقين.. والسابقون عن سابقهم؟
لكن من خدعنا؟!

نحن الذين خدعنا أنفسنا.. نحن بعقولنا نفكر.. ونحن بفكرنا نختلف عن المخلوقات الأخرى ... فإذا لم نفكر، فلا فرق بيننا، وبينها!!».

وأخذ يستبين بعض حقائق الأشياء.. وتتضح له بعض المعالم الصحيحة:

«لأننا لم نفكر.. عبدنا آلهة صنعناها بأنفسنا لأنفسنا.. ولأننا لم نفكر أخذت تسير حياتنا هذا السير الذى أراه الآن، والآن فقط ... سيرا معوجا إلى أبعد مدى.
هتكنا الأعراض ، ونتشدد بالحفاظ عليها.. وذبحنا الحرمات، ونحن نقول إننا نصونها... وقفزنا بعضنا على بعض فى حيوانية بلا ضابط.. وبلا نظام.. بل إن حياتنا كلها بلا ضابط وبلا نظام!!

واعترته نوبة.. كان يصرخ.. ويهيج.. ولا يسكن إلا عندما يتغلبون عليه، ويضعونه فى فراشه.. ويهيلون عليه الأغطية ، وهم يحاولون أن يهدأ، وأن يستعيد رباطة جأشه، وثبات وجدانه.

وعندما يفيق من نوبته يخرج إلى الخلاء بعيدا عن الناس.. والدور، يقلب بصره فى السماء.. ويتابع الشمس من مشرقها إلى مغربها.. ويتأمل القمر والنجوم.. والأرض

والخضرة.. والمياه.. وحركات الناس.. والجماد والحيوان حتى صارت له ملاحظة بل وبدأت هذه الملاحظة شديدة..

لا يمكن أن تكون هذه الأمور اعتباطية.. الناس.. والسماء.. والشمس والقمر، والنجوم.. والجماد والحيوان.. لا يمكن أن يكون العقل في الإنسان اعتباطيا.. لا يمكن أن تكون هذه الحياة التي نحيها اعتباطية.. ولا يمكن أن يكون الخالق مثل مخلوقاته!! ويكاد يصيح: «أين أنت أيها الفارس لتدلى.. أقسم إنى ما عدت أحمل لك ضغنا.. أريد أن أسترشد بك.. ليتركك دلتنى عليك فأمرع إلى حيث أنت أنى تكون.. أريدك أن تعرفنى به.. أريد محمدا يدلى على ربه.. أريد أن أصل إلى رب محمد.. فهو ربي، ورب كل شئ».

وأخذ قيس بن مالك يتسمع الأخبار.. أية أخبار يمكن أن تصله بمحمد.. أية أخبار يمكن أن تصله عن محمد.. من خلال التجار الذين يقدون على مكة ويعودون منها. وعرف أن قريشا تطبق على محمد في مكة بكل إمكانياتها المادية.. والمعنوية.. وعرف أيضا أنها تتكاثر عليه بحلفائها المنتشرين في الجزيرة من أقصى جنوبها في اليمن إلى أقصى شمالها في الشام.. ومن أقصى شرقها في البحرين إلى أقصى غربها على ساحل البحر.. وعرف أيضا أنها تضع العراقيل في طريق الدعوة بانصياح معظم القبائل لتوجيهاتها بحكم ارتباطاتها المالية، والتجارية التي كانت تحتكر إدارتها في هذه الفترة من الزمن

وكما حاول أن يعرف عن محمد شيئا.. تدفقت إليه المعلومات.. وضوت إليه الفطر السليمة والقلوب النقية.. والعقول المفتحة.

وتوصل إلى أن قريشا تحاول أن تضع نوعا من التعقيم على أخبار محمد.. وتسعى مستميتة ألا تخرج أخبار محمد إلا من خلالها.. فأذاعت عنه أنه مجنون.. لكن الحقيقة كانت تصل الناس في كل مكان.. وهى أن عقله لو وضع في كفة، وعقول من في السماوات السبع والأرضين في كفة لرجح عقل محمد.. وطاش سهمها فقالت إنه ساحر يفرق بين الأخ وأخيه.. وبين الابن وأبيه.. والحقيقة تقول عكس ذلك، وهى أن قريشا هى التي فقدت رشدها.. تؤكد هذه الحقيقة الأصول التي قامت عليها دعوة محمد.. والغاية

منها.. وهى لا تكون وبالقطع إلا فى صالح الإنسان على هذه الأرض..

وقالت قريش عنه إنه شاعر.. والحقيقة تقول عكس ذلك تماما، فقريش فى حقدما على محمد نسيت أنه لايهيم فى الخيال، ولا يقول إلا ما يفعل.. وما يدعو إلى سبيل ربه إلا بالحكمة، والموعظة الحسنة.

كلما حاول قيس أن يعرف تدفقت إليه المعلومات.. ووصلت إليه المعرفة اليقينية.

واكتملت فى النهاية صورة عن محمد... على البعد عنه.. وصورة عن دعوته من خلال بعض المسلمين الذين هربوا من مكة ليعيشوا فى أماكن نائية آمنة.. وكانوا بمثابة مبشرين فى أرجاء اليمن.

واهتدى قيس بن مالك إلى أن يذهب إلى مكة، وأن يلقى محمدا!!

★ ★ ★

لا شك أن ما اهتدى إليه قيس بن مالك كان عن اقتناع..

وقيس فيما اهتدى إليه وصل به إلى مرتبة الزعامة عن جدارة..

فالزعيم الحق هو الذى يرود لقومه الطريق.. وهو الذى يهديهم لأقوم السبيل.. وهو الذى يكون فى صدارة المسعى إذا كان فى ذلك ما يعود عليهم بالخير.

وليس الزعيم من يتربع على عرش الزعامة، ويقول لمن حوله دلونى على الطريق وقولوا لى: أين أقوم السبيل؟!

مثل ذلك الزعيم يصل متأخرا عن قومه كثيرا.. وإن يكون إلا سببا فى تخلفهم وعقبة فى سبيل تقدمهم.

اهتدى قيس بن مالك إلى محمد يصل أسبابه بأسبابه.. وينهل منه ، لا من سواه ، ما يصلحه، ويصلح قومه.. ويأخذ عنه، لا عن غيره، أصول العقيدة الصحيحة.. فإن أحدا مهما بلغ فهو غير مستطيع أن يعود به إلى ما كان عليه..

قرر قيس بن مالك الهمدانى، ولا سبيل إلى إثثائه غما قرر.. وعزم عليه..

وكان زعيما حقا كره أخرى عندما دعا رؤساء القبائل فى همدان ممن له عليهم

ولاية.. وحق السمع والطاعة..

دعا رؤساء «أحمورها» ويعنى بها قبائل «قدم آل ذى مران» ، وآل لعوة، وأنواء،
وهمدان.

كما دعا «عريها» ويعنى بها قبائل «أرحب، ونهم، وشاكر، ووداعة، ويام، ومرحبة،
ودالان، وخارف، وعذر، وحجور».

وعندما التأم الشمل، ووسعت الجميع جلسة واحدة،

وقف زعيم آل ذى مران وقال:

– يا أخى العظيم وزعيم قبائل وعشائر ويطون همدان أحمورها ^(١) وعريها ^(٢).. لقد
كنا فى بأس شديد، وأنت تتقلب بك عوامل الصحة، والمرض.. وكم دعونا أن يؤخذ من
أعمارنا ليضاف إلى عمرك! فأتت نعم الزعيم يحب قومه.. ويعمل على إسعادهم، وأن
تبقى رؤسهم عالية تحاكي السماء!

وعقب زعيم أنواء:

– حسن ما قال أخى رئيس آل ذى مران.. وأضيف..

لقد خبرناك فى القيادة فقدتتا إلى النصر.. وإنا وحق الآلهة لنفديك بأرواحنا.

وعقب زعيم مرحبة:

– لقد جئنا على عجل.. وقلنا: ما الذى حزبك.. ولم تدعنا من قبل على هذا المستوى..
لا شك يا أخى فى أن الموضوع خطير، أهى مراد؟ أيمكن أن تكون خرجت من
جحرها؟ وحق الآلهة لنثبن عليها وثبة تفتت منها الضلوع، وتذيب داخلها القلوب !

وانبركنُ عليها برك البعير على الحصى، يسحقه سحقاً، ولا يسلم منه شئ!!

فقال قيس بن مالك:

– يا إخوتى.. وإنى لسعيد بكم.. وبهذه الروح القوية.. روح الإخلاص، والإخاء

(١) أحمورها: قبائل المدن والقرى.

(٢) عريها: قبائل البادية.

والمودة.. وروح الغيرة على همدان.. وحمدان ما صارت إلى ما صارت إليه من عز، ومن سيادة وشرف إلا بكم.. فأنتم رجالها.. وأنتم فرسانها المغاوير.

وماد عوتكم إليه ليس بشأن مراد، ولا بائى مما يمكن أن يجول بخاطركم من هذا القبيل.

دعوتكم لموضوع أخطر.. وعمل أجل.. ولأكن صريحا كعادتى يحدثنى فى ذلك أنى رائدكم، ولقومى.. وأهلى فى همدان.. والرائد لا يكذب أهله..

فحدثت مهمة:

– نعم.. نعم.. ولنعم الرائد أنت.

فأردف:

– كثر الكلام.. وتواردت الأخبار عنى نبى فى مكة اسمه محمد بن عبد الله ، من قريش، جاء بدعوة تقوم على عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد.. الذى لا شريك له، ولا زوجة، ولا ولد..

فحدثت ضجة.. وساد هرج، ومرج بعض الوقت.. فصمت قيس بن مالك حتى تهدأ الضجة .. فقام زعيم آل ذى لعدة وقال:

– يا إخوتى زعماء ورؤساء همدان.. لقد تعودنا فى اجتماعات سابقة أن نستمع بعقل.. وأن نتكلم بمنطق.. فلا تدعوا العواطف والمشاعر تفسد علينا هذا الاجتماع، وما أظنه إلا خطير.. وخطورته تكمن فى موضوعه الذى يحدثنا عنه زعيمنا قيس بن مالك!!

فعقب زعيم قدم:

– لا أحد الخير إلا فيما قال أخى زعيم آل ذى لعدة..

يا إخوتى يجب ألا يكون الخلاف فى «الرأى» سببا للشقاق، والتفرق فيما بيننا.. فلنستمع إلى زعيمنا.. ونع جيدا ما يقول.. وليدل كل منا بدلوه ولا حرج.. نتفق أو نختلف.. لا يهم.. المهم هو ألا نفترق إلا ونحن وحدة كما كنا دائما!

وعقب زعيم شاكر:

- لا بأس .. لا بأس .. الرأى للجميع .. والحكم للجميع .. والقرار للجميع، ولزعيما فى
النهاية التصرف .. ولا داعى للعججة دون طائل!!

فلنسمع أولا .. ولنعرف قضيتنا .. ولنستوعب أبعادها، ونحكم العقل والمنطق وانتهد
بالحكمة .. فهذا ما تمليه علينا مسئوليتنا جميعا .

وقال زعيم «يام» وقد هدأت الضجة موجهها كلامه إلى قيس بن مالك:

- لا عليك يا زعيمنا .. وهذا الذى حدث من ضجيج شئ تعودناه من زمن بعيد...
فلست المقصود، ولا ما تتحدث عنه.. وما أرانا ننفر إلا من الجديد لا لشيئ قط إلا لأنه
جديد..

ونظر الجميع فوجد معظمهم يومئ برأسه موافقا على قوله.. ثم نظر إلى قيس بن
مالك قائلا:

- أبسط القول وحق الإلهة.. فما أرانا إلا على أبواب فتح جديد.. وعالم جديد!!
فقال قيس بن مالك:

- والله لا أقول إلا ما قاله محمد لقريش: « والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم». -
فأنتم أهلى .. وأنتم لى الأحمة والسداه.. وما أردت إلا الخير.. وما قصدت إلا أن تبقى
لكم السيطرة فى المنطقة، وألا تنتزع منكم السيادة على أرضكم.

لقد بت لياالى مسهدا.. مؤرقا.. أفكر.. وأضرب الأخماس فى الأسداس.. وأقبس
الأشياء بنظائرها، وأوازن بين الأمور.. فما وجدت فى دعوة محمد ما يُرفض.. ولو قلت
لكم عما فعلت بما تعتقدون أنه إله.. وحكمتم المنطق والعقل.. فلن أحتاج معكم لحديث
آخر، وإن تحتاجوا إلى دليل بطلان لحياتنا الروحية أكثر من هذا الدليل..

فحدثت همهمة:

- ماذا فعلت؟! -

- لقد سرقت حلى هذا الإله فلم يدر بما فعلت.. ثم أعدت ما سرقت وأخذتها أمامه
فلم يفعل شيئا.. ثم لطمته على وجهه فى تحد أن يصيبنى بالبرص أو المرض أو
الجنون.. فلم يصب.

يا إخوتى ما أَرَانَا إِلَّا خُدَعْنَا زَمْنَا طَوِيلَا فِي هَذِهِ الْآلِهَةِ الْمَزْعُومَةِ.. فَنَحْنُ الَّذِينَ صَنَعْنَاهَا.. صَنَعْنَاهَا وَاحِدَ وَاخْتَفَى.. لَمْ يَقُلْ لِأَحَدٍ لِمَاذَا صَنَعَ هَذِهِ النَّمَاذِجَ.. وَلَا مَاذَا تَحَاكَى هَذِهِ الْأَصْنَامَ الْمَسْخُوحَةَ.. وَأَنَا أَمَامَكُمْ جَمِيعًا أَعْلَنُ أَنَّهَا قَطَعَ مِنْ حَجَارَةٍ لَا تَضُرُّ، وَلَا تَنْفَعُ.. إِنْ هِيَ إِلَّا أَشْيَاءُ جَامِدَةٌ مَيِّتَةٌ لَا حَيَاةَ فِيهَا، وَلَا مَا يَشْبَهُ الْحَيَاةَ.. لَا تَفْتَرِقُ فِي شَيْءٍ عَنِ النِّعَالِ الَّتِي تَضَعُونَ فِيهَا أَقْدَامَكُمْ.. بَلْ إِنْ النِّعَالُ أَكْثَرُ فَاثِدَةً. فَحَدَّثْتُ ضُجَّةً فِي جَانِبِ مِنَ الْمُجْتَمَعِينَ.

فَقَالَ فِي حَزْمٍ، وَكَانَ قَدْ اسْتَحْضَرَ نَمُوذَجًا لِإِلَهُمُ الَّذِي يَعْبُدُونَ ثُمَّ صَاحَ:

– فَلَنَكُنْ وَأَقْعِيصِينَ، وَمَنْطَقِيصِينَ.. وَلَعَمْرِي مَا قُلْتُ هَذَا مِنْ فَرَاغٍ.. وَمَا قَصِدْتُ تَرْجِيَةَ الْوَقْتُ وَمِثْلِي لَا يَضِيغُ وَقْتُهُ، وَأَنْتُمْ تَدْرِكُونَ هَذَا.. وَلَعَمْرِي لَقَدْ كَانَتْ التَّجْرِبَةُ هِيَ دَلِيلِي.. وَالْمَنْطِقُ هُوَ بَرَهَانِي.

ثُمَّ نَادَى خَادِمَهُ، وَأَخْلَصَ خُلُصَاتِهِ «صَفْوَانُ»:

– هَاتِي إِذْنِي يَا صَفْوَانُ.

فَدَخَلَ شَابٌ أَسْمَرٌ وَاضِحُ الْمَلَامِحِ رَخِي الصَّدْرِ، نَشِيطُ الْقَلْبِ.. يَحْمِلُ حِمْلًا مَلْفُوفًا فِي عِبَاءَةٍ.

وَعِنْدَمَا صَارَ وَسْطَ الْمُجْتَمَعِينَ، وَالْكَلَّ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَضَعَ مَا مَعَهُ عَلَى الْأَرْضِ.. وَنَزَعَ الْعِبَاءَةَ عَنْهُ، فَإِذَا هُوَ لِإِلَهُمُ الَّذِي يَعْبُدُونَ.. صَنْمُهُمُ الْكَبِيرُ.. ثُمَّ أَنْصَرَفَ وَقَامَ قَيْسُ بْنُ مَالِكٍ، وَتَقَدَّمَ نَحْوَ هَذَا الصَنْمِ فِي ثَبَاتٍ، وَيَقِينُ، وَهُوَ يَقُولُ:

– مِنْ مَنكُمُ لَا يَزَالُ يَعْيشُ فِي وَهْمِ هَذَا الْأَفَاقِ.. وَيَخْشَى عَلَى نَفْسِهِ الْبَرَصَ، وَالْجُنُونَ، فَلْيَنْصَرَفْ عَنْ هَذَا الْمَجْلِسِ:

﴿ فَمَنْ يَرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ يَرِدُ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ ﴿الْأَنْعَامُ: ١٢٥﴾

ثُمَّ وَقَفَ أَمَامَ الصَنْمِ وَفِي يَدِهِ رِمَحٌ.. هُوَ قَضِيبٌ مِنْ حَدِيدٍ صَدِئٌ، وَهُوَ بِهِ عَلَيْهِ فِي قُوَّةٍ، وَمَا زَالَ يَهْوِي.. وَيَهْوِي.. حَتَّى حَوْلَهُ قِطْعًا مِتْنَاثِرَةً.. وَحَدَّثَتْ أَثَرَ ذَلِكَ ضُجَّةً..

هلع فريق مما يرى.. فترك المجلس، وانصرف لا يلوى على شئ..
 وشك فريق.. واستولى عليه الشك، فانصرف دون أن يقرر شيئاً..
 وثبت فريق وجعل يكبر، وما زال يكبر حتى انتهى قيس من تحطيم الصنم.. وعاد
 إلى مجلسه، ولم ينضح ماء وجهه قطرة عرق واحدة.

★ ★ ★

لم يبق أمام من بقى شك فى زيف عقيدة الجاهلين فى همدان..
 سألوا قيسا عن محمد.. هل هو ملك؟! وسألوه عن دعوته.. ماذا تُحلُّ وماذا تُحرِّم؟!
 واتفق معهم على أن ينتهزوا أول فرصة يذهب فيها إلى مكة، ويلقى محمداً..
 واسوف يعرف منه المزيد!!

وانتهى الاجتماع بتأييد من بقى من المجتمعين لقيس فيما عزم.. وفيما قرر!!

★ ★ ★

للإيمان مذاق خاص لا يجد حلاوته إلا المؤمنون.. وحلاوة الإيمان تفرض نفسها...
 فلا يكون معها شئ آخر.. تأخذ الإنسان سكرتها فلا يحس بشئ سواها.. لا خوف من
 إنس أو جن.. الخوف كل الخوف من خالق الإنس، وخالق الجن، ومدبر كونه الذى
 أوجد فيه مخلوقاته..

وقيس فى الطريق إلى مكة فى موسم من مواسم الحج، فرصته التى يلقي فيها
 محمداً صاحب فريق من المسلمين ممن يعرفون بعض قصص الجيل الأول من
 المسلمين.. جيل أبى بكر وعمر.. وعلى بن أبى طالب.. وبلال الحبشى.. وياسر وسمية،
 وابنهما عمار..

وقيس فى الطريق لا يحس إلا بحلاوة الإيمان لا يستمتع للحادى يحلو الإبل بالكلام
 المعهود.. وإنما يصرفه عنه ما يسمع من قصص بلال.. والقرشيون يعذبونه، بأقسى
 ألوات التعذيب حتى الكى بالنار.. وإلقائه فى الرمضاء، ووضع الحجارة الغليظة
 المحماة على صدره.. والقرشيون ينكرون به أشد التنكيل.. وهو كائن لا يتعذب، ولا يعيش
 لحظة واحدة من هذا الذى يلاقيه على أيديهم.. ويتحداهم أن يكون هذا التعذيب قادراً

على صرفه عن إيمانه.. أو مذيقه غير حلوة الإيمان.. يتحداهم أن يستجيب لهم فى كلمة واحدة يتمنون لو قالها ليكفوا عما يفعلونه به.. ويصر على كلمته التى تعلمها من محمد.. والتى نقلته هذه النقلة الفاتكة من الكفر إلى الإيمان.. إلى الإحساس بحلوة الإيمان.. نقلته من العبودية للبشر إلى العبودية للخالق الواحد الأحد.. ومن ثم إلى الإحساس فى ظل هذه العبودية الجديدة.. العبودية الحق بمنتهى التحرر، وغاية ما يطمح إليه إنسان فى الوجود وقيس فى الطريق لا يحس إلا بحلوة الإيمان يستمتع إلى قصة سمية، والقرشيون يطعنونها فى عفافها.. فلا تهتم.. وتسلم الروح.. وكان ما تلاقى لا شئ بجانب لذة الإيمان وحلوته!!

وتطوى الطريق لقيس بن مالك ورفاقه..

ويصل إلى مكة سالماً.. ويوهم الدنيا بأنه جاء من أقصى الأرض ليؤدى فريضة الحج.. وكان الحج مقروضا مما بقى من دين إبراهيم عليه السلام.

ويلقى الرسول .. فلا يجد ملكا متوجا كما تخيله بعضهم فى الاجتماع وكما طلبوا من معرفة حقيقته.. يجد إنسانا تجمعت فيه كل فضائل الإنسانية.. يجد بشرا سويا تجمعت فيه كل خلال البشرية الكريمة.. يجد نبيا ورسولا من عند الله ... تجمعت فى رسالته... حلم البشرية كلها، وأملها فى أن تخرجها من الظلام إلى النور.. ومن الضلال إلى الهدى.. وأن تستعيد به طبيعتها البشرية الصرفة.. وحقيقتها الإنسانية السليمة، وما جُبلت عليه من حب الخير والحق والعدل، وما فطرت عليه من إحساس بالكرامة الإنسانية المتمثلة فى منع العدوان على الأمنين، وعدم سيطرة القوى على الضعيف أو استرقاقه، وامتصاص الغنى لدم الفقير واستيلائه على مخصصاته، وعرقه، وجهده!!

وجد نبيا ورسولا بعثه الله برسالة تضع نظاما عالميا جديدا لمجتمع جديد وحياة جديدة تقوم على المحبة، والتراحم، والتعاون بين البشر جميعاً بلا تمايز بسبب اللون أو الجنس أو الدم.. التمايز كل التمايز بالتقوى والعمل الصالح..

ويعيش قيس مع الرسول ﷺ أروع لحظات عمره.. ويعلن إسلامه بين يديه.. ويعلم من الرسول متطلبات الإسلام.. فيعرف أركانه، ويباع على الالتزام به.. والوفاء

بمطالباته، والدعوة إليه، والجهاد في سبيله.. ثم يعرض على الرسول الكريم أن يترك مكة، ويذهب معه إلى اليمن!!

ويدرك الرسول ﷺ بفضل ربه صدق هذا القادم من الديار البعيدة، ويدرك ما حدث، وما دار في الاجتماع الموسع.. وما انتهى إليه.. ويدرك أن لله في تركه مكة شأنًا هو مبدئيه.. فيقول له صلوات الله وسلامه عليه، قولا يثلج صدره ويطلب منه أن يرجع إلى قومه ويرى رد الفعل لدعوته في نفوسهم.

كان لقيس مع النبي ﷺ شأن.. وكان لله شأن آخر.. فلقد دخل الأنصار في الإسلام^(١) وتولوا أمر الدفاع عن محمد.. وكان دخولهم في الإسلام توطئة لهجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، وقيام الدولة الإسلامية، وتحديد معالمها السياسية، والاقتصادية، والعسكرية والاجتماعية، والثقافية، وقيامها يكتمل النظام العالمى الجديد.

★ ★ ★

ويعود قيس إلى الديار.. يعود مسلما حقا.. ويسلم معه من قومه فريق كبير.. لكن همدان تفترق بين مصدق، ومكذب... وبين مؤيد ومعارض... وبين مسلم بتداعيات الأحداث مذعن بحتمية انتصار الدعوة وقيام النظام الجديد في ظل الإسلام بديلا عن التيه القديم في ظل الشرك والجاهلية.. وبين معاند يحاول في ظلام الشرك أن يشق له طريقا بعيدا عن نور اليقين.. ولكن هيهات!!

ويدور الصراع بين المؤمنين والكافرين، فيشتد أحيانا بتعدى الكافرين على المؤمنين تقليدا لما يفعله أهل مكة بمحمد وأصحابه، ويخف أحيانا عندما يتذكر الجميع ما يربط بينهم من أواصر الدم والنسب، والقراية، والمصالح المشتركة.. لكن أذى المشركين للمسلمين بينهم لا ينقطع على المستوى الفردي أو الجماعي.. ويوما بعد يوم يزداد تفتتح العقول المغلقة لنور اليقين.. وتزداد استجابة القلوب الظامئة لحلاوة الإيمان وسعادة الدارين..

وترى الدنيا في هذه المنطقة من الأرض العربية بوادر التغير الجارف نحو الحق.. وتقوم بعثة أخرى من همدان على غرار بعثة قيس بن مالك.. ويتراأس هذه البعثة رجل

(١) نشأة الدولة الإسلامية.

مؤمن هو عبد الله بن أم غزال لكن قوى الشر تترصد له، وابعثته فتقضى عليها قبل أن تصل إلى غايتها.

فبعد إعلانه لإسلامه بين يدي الرسول ﷺ وبيعته عن قومه، وهو في الطريق من مكة إلى همدان.. في طريق عودته ليقوم بدوره المطلوب منه كما قام سلفه قيس بن مالك يكمن له في الطريق واحد من بنى زبيد أعماء الحقد، وأضلّه الشرك.. وسلب الكفر منه نور البصيرة.. ويقتاله قبل أن يصل إلى قومه!!

★ ★ ★

ويستمر الصراع في همدان بين الكافرين والمسلمين.. ويهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة.. وتشتد المطاردة بينه وبين الكفار.. ويأذن الله له في رد عدوان المشركين ووقف أذاهم:

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير﴾ (الحج: ٣٩)

ويدخل الرسول ﷺ معارك معهم.. وتنتهى المعارك بفتح مكة.. وانتصار الرسول على هوازن.. وحصار الطائف.. ثم تضع الحرب أوزارها في قلب الجزيرة حيث لا مبرر لها فقد أخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجا.. لكن الصراع في همدان وغيرها من قبائل اليمن ما يزال بين المسلمين، والمعادنين.. ويوجه الرسول الكريم جيوشه لتجوب هذه المنطقة في إنذار صريح ليكف الضالون أذاهم عن المهتدين..

وتحدث القوة صدمة لدى المعاندين.. فيفيقون على إثرها ليروا أنفسهم وقد تخلفوا عن ركب التقدم والنهضة.. تخلفوا عن ركب الإنسانية.. ركب النور والهداية زمنا ليس باليسير.. ويتدارك القوم المتخلفون من همدان الموقف.. ويطلبون من إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان المساعدة.

ويؤدعى إلى اجتماع عام ينتظم الجميع مرة أخرى بعد طول تشتت، وفرقة ما كان أغناهم عنها لو أنهم حكموا المنطق والعقل يوم دعاهم قيس بن مالك، وأعلن على ملئهم الإسلام!!

﴿... هذا الله مما سلف﴾ (المائدة: ٩٥)

وتصفو الضمائر.. وتطمئن النفوس.. وتجيش العواطف بحب الله.. وحب رسول الله..

وتذعن الإرادة الهمدانية. وتستسلم القدرة لديها أمام إرادة وقدره الخالق ويقر الجميع بالإسلام..

ويكونون وقدأ يذهب إلى المدينة هذه المرة لا إلى مكة.. ويلقى نبي الرحمة، ويبايع بالإسلام.

ويكون على رأس هذا الوفد قائدا له مالك بن نمط، ويضم الوفد فى عضويته، مالك ابن أيفع، وضمام بن مالك السلماني، وعميرة بن مالك الخارفي.

ويلقون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ملابس يمنية.. وعلى رؤوسهم عمام عدنية على رحال مصنوعة من الخشب تكون على ظهور الإبل المهرية النجيبة، والتي تشتهر قبيلة «مهرة» بإيوائها والاحتفاظ بها، وكذلك الإبل الأرحبية النحيبة، والتي تشتهر بإيوائها والاحتفاظ بها قبيلة أرحب الهمدانية.

ومالك بن نمط ، ورجل آخر يرتجزان بالقوم.. يقول أحدهما (١)

همدان خير سوقة . . . ليس لها في العالمين أمثال (٢)

محلها الهضب ومنها الأبطال . . . لها إطابات وأكال (٣)

ويقول الآخر

إليك جاوزن سواد الريف . . . فى هبوات الصيف والخريف (٤)

مخطمات بحبال الليف (٥)

ويشرق النور من نبي النور على القوم.. يتجلى عليهم نبي الرحمة رسول رب العالمين المبعوث رحمة مهداة.. ويستقبلهم بما يليق بهم مؤمنين موحدين.. ويرحب بهم فى ضيافة الرحمن.

(١) ابن هشام جـ ٢

(٢) السوقة: من دون الملوك من الناس. الأقيال : الملوك دون الملك الأكبر

(٣) الهضب: ما ارتفع من الأرض، الواحدة هضبة.. يصف علو منزلتها. الإطابات : الأموال الطيبة.

الأكال : ما يأخذه الملك من رعيته وظليفة له عليهم

(٤) السواد: القرى الكثيرة والشجر والنخل ، الريف: الأرض التي تقترب من الأنهار والمياه الغزيرة، الهبوات: جمع هبوة وهى القبرة.

(٥) مخطمات: جعل لها خطام وهى الحبال التي تشد فى رؤس الإبل على أناقها، الإلهات: جمع آلهة.

وتسرى في عروقهم سكينه لم يعهدوها من قبل.. ويستولى عليهم هدوء غريب..
وتتجلى منهم العقول.. وتستثير القلوب.. ويحتويهم نور.

وقبل أن يحدثهم الرسول الكريم عن الإسلام الذي عانوا في سبيله. وقطعوا الفياض
والقفار من أجله.. ينبهر مالك بن نمط كما انبهر رفاقه بالرسول.. ويجد نفسه، يسبح
في جلاله الحضرة المهيبة التي تجل عن الوصف لأنها فوق الوصف.. ثم يلهج لسانه:

— يا رسول الله.. هاهم أولاً.. خيار القوم، وكبارهم من همدان يمثلون كل
حواضرها.. ويواديها.. أتوك يا حبيب الله على إبل نجبية قوية سريعة.. يتصلون بحبال
الإسلام لا تأخذهم في الله لومة لائم.. جأوك يا رسول الله من كل مدينة، وكل قرية،
وقد أجابوا دعوة الرسول، وفارقوا الإلهيات والأنصاب^(١) وقد عاهدوا الله، وعاهدوا
رسوله عهداً لا ينتقص أبداً ما أقامت لعل^(٢) وما جرى اليعفور بصلع^(٣).

وأعلن القوم إسلامهم.. وبايعوا به عن أنفسهم.. وعن قومهم.

وعلمهم الرسول ﷺ من فضل ربه علمه عن الإسلام: أركانه.. واجباته.. نواهيه..
ما يحل وما يحرم.. ثم كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً حدد فيه أرضهم
، وديارهم ومياهم، ومراعيهم.. وجاء في الكتاب :

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من رسول الله ﷺ لمخلاف خارف^(٤) وأهل
جناب الهضب، وحقاف^(٥) الرمل مع وأهدا ذى المعشار مالك بن نمط ، ومن أسلم من
قومه، على أن لهم فراعها^(٦) ووهاطها^(٧) ما أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، يأكلون
علافها^(٨)، ويرعون عافيتها^(٩) لهم بذلك عهد الله، وذمام، رسوله.. وشاهداهم

^(١) الأنصاب: حجارة كانوا يعبدونها.

^(٢) لعل: جبل

^(٣) اليعفور: ولد الظبية. صلع : اسم موضع.

^(٤) خارق

^(٥) حقاق: جمع حقق وهو الرمل المستدير

^(٦) الفراع: أعالي الأرض

^(٧) الوهاط: المنخفض من الأرض

^(٨) العلاف: ثمر الطلح.

^(٩) عافيتها: نباتها الكثير.

لمهاجرون والأنصار.

ويفرح القوم.. ويبتهج المؤمنون بنصر الله.. ويتفجر القول على لسان مالك ابن نمط
تعبيرا عن السعادة المغدقة، والفرحة الطاغية.. والقوة توازن العدل، وتساند الحق..
تعبيرا عن فرحة عودة الإنسان للإنسان.. ورجوع الأدمى للأدمى.. تعبيرا عن صحة
الضمير في صيحة نداء الحق.. «الله أكبر» عند الأذان ومع الركوع والسجود.. عند كل
كلام يسمع أو يقال.. الله أكبر المعبود الواحد والذي تتجلى في العبودية له أسمى
معاني الحرية للإنسان بين نبي الإنسان.

يتفجر القول على لسان مالك بن نمر:

نكرت رسول الله في فحمة الدجى * ونحن بأعلى رحرحات وصلدد (١)
وهن بنا خوض طلائع تفتلى * بركبانها في لاحسب متمدد
على كل قتلاء الذراعين جسرة * تمر بنا مسر الهجف الحفدد
حلفت برب الراقصات إلى منى * صوادر بالركبان من مضب قردد
بأن رسول الله فينا مصددق * رسول أتى من عند ذى العرش مهتدى
فما حملت من ناقة فوق رحلها * أشد على أعدائهم من محمد
وأعطى إذا ما طالب العرف جاءه * وأمضى بحد المشرقى المهند
ويعودتهم لم بيت في همدان واحد إلا مسلما ، وصدق الذى يقول في حقهم من شعراء
الإسلام:

فلو كنت بوابا على باب جنّة * لقلت لهمددان ادخلوا بسلام

(١) الفحمة: السواد.

الدجى : جمعه دجية وهي الظلمة.

ورحرحات وصلدد: موضعان

الشاطئ .. والرمال الناعمة!! وفد عبد القيس

عبد الله بن عوف بين الأشج .. من رجالات .. «عبد القيس» المشهورين بالرزانة
والحنكة والأناة..

صوته مسموع .. وكلمته مطاعة .. ورأيه سراج وهاج في ظلمة الحيرة .. والشك!!
موقفه أمان الخائف، وفزع المغير إن سولت له نفسه مهاجمة «عبد القيس» أو من
في جوارها .. خرج من بيته ميمما وجهه شطر لا شيء..

خرج كمن يهيم على وجهه في بيداء مقفرة.. فقد السائر فيها دليل اتجاهه.. ورغم
الجو الربيعي الممتاز.. والنسمات الرقيقة المنعشة.. وهي تعبر الخليج عند «البحرين»،
تصافح الوجوه فتكسوها بشرا، وتمنح النفوس الحيوية والنشاط.. فإن عبد الله لم يكن
ليعيرها انتباها، ولا التفاتا.. وما كان يحس بها.

كان مهموم القلب.. منقبض النفس. تضغط على صدره أثقال وأحمال كقطع الجبال
يوشك من هولها أن يختنق، ويكاد تحت وطأتها يسحق!!
خرج من بيته، ولا وجهة له.. أو مكانا معينا يقصده.

سار بإزاء الخليج، وأفكار، وخواطر تهجم عليه كأنها وحوش كاسرة.. كشرت عن
أنيابها وأخذت تزمجر مخيفة.. صاعقة!!

ابتعد عن «عبد القيس»: دورها.. وناسها.. وجوها كله.. يريد أن يختلي بنفسه بعض
الوقت لعله أن يصفو؟ ويجد في صفائه مخرجا مما يعانيه.

لقد هربت «عبد القيس» وشاخت.. وحالت قوتها.. وغدا أو بعد غد ينكشف أمرها،
وتتكاثر عليها الذئاب تنهشها من كل جانب، وتتواثب عليها الأسود من كل صوب،
وحذب، تذيبها من الكأس التي طالما جرعتها الآخرين على امتداد عمرها الطويل على
هذه الرقعة في «البحرين» من الأرض العربية.

إن الصورة أمامه قاتمة.. فـ «عبد القيس» مشغولة الآن بقطاف ثمار مجدها الذي

بنته فى عمرها الطويل بسواعد رجال كانوا يفنون من أجلها... وهلكوا ولما يجنوا شيئا من ثمار غرسهم، وجاءت أجيال لا يهمها إلا الحصاد.. فباتت مشغولة به عن كل ما عداه، ولقد أبطروهم الترف حد التخلّى عن.. عن ماذا؟

ويكاد عبد الله يصيبه الرعب، وهو يتمثل هذه الصورة.. صورة الشباب الذى ما عاد يهتم إلا بالملذات.. والتنعيم.. فصاروا فى رقتهم، ووداعتهم.. وملابسهم الزاهية وسهراتهم.. وعشقهم الخمر.. والنساء.. وتكاسلهم عن متطلبات القروسية، وخشونتها أقرب إلى الغلمان منهم إلى الرجال!!

خرج عبد الله من بيته مجردا من كل شئ.. ما عدا سهما مكسورة فى يده.. وخنجرا صغيرا يندس بين حزامه وجسده.

وفى سيره بإزاء الخليج أخذ يتطلع إلى مياهه.. وكأنه يراها لأول مرة.. كانت زرقاء هادئة.. صافية.. شدة جمالها، وأخذ صفاقها ينعكس على فكره.. ووجدانه، ومن ثم تهدأ نفسه بعض الشئ.

وعلى مسافة غير بعيدة.. والشمس تميل للمغرب.. ويسيل على صفحة الماء ذهبها الخالص ساعة الأصيل.. وتنتشر لمعته على كل المرائى.. ومن دونها «عبد القيس». على مسافة غير بعيدة يقف هنيهة شاخصا إليها.. مستغرقا معها.. وقد ملكت عليه كل كيانه، وباتت شغله الشاغل..

وزفر زفرة خرج ريحها ملتها كائنه الجحيم:

– يالك «عبد القيس»!! يالك من كلمة كان لها مذاقها الخاص، ورنينها المؤثر ووقعها الرائع على العقل والقلب معا!!

ما أروعك من قبيلة كانت ذات أبعاد، وأمجاد سياسية واجتماعية، وسط هذا الزخم الهائل من القبائل على الساحة العربية فى شبه الجزيرة والخليج، والعراق... بل والشام أيضا..

كنت فى موقعك من البحرين قوة لا تضاهيها قوة، ومكانة لا تضارعها مكانة.. وأبهة تحلم بها أشد القبائل.. وأبهاها!!

عدد فرسانك وفير.. وجمعك غفير.. وفروسيك مضرب الأمثال!!

ثم يتنهد:

- كان المفروض أن تكونى سند الضعيف.. وغنى الفقير.. وعون المحتاج وملأه المطارد.. وأمن الخائف.. وغياث الملهوف..

لكنك جريت ... بل لهثت وراء سراب خادع من تحقيق مجد لا وجود له.. وبطولة غابرة.. وعزة وكبرياء زائفين..

حياتك يا «عبد القيس» ميسر.. وخمر.. وريا.. وبطش بالضعيف.

وعبادتك مشبوهة لأكله حمقاء لا عقل فيها.. ولا حس لها.. هى قطع من حجارة وطن.. لا تسمع.. ولا تبصر.. ولا تغنى شيئا..

وقوتك الهادرة القادرة كانت تكتسح كل ما يعترض طريقها دون تمييز بين حلال وحرام.. أو تفريق بين خير، وشر.. أو مراعاة لواجب.. أو انحياز إلا للعصبية القبلية.. والكبرياء الممقوت.

ويهن رأسه فى أسى:

- كم تمنيت فى هذا الزمن أن تكون لك رسالة تخرجين بها على ما ألف العرب، وما استقروا عليه، حتى صار رغم ضلله واقعا له قوانينه التى يحرص الجميع.. لا، بل يحرص السادة فقط.. والأغنياء فقط.. والأقوياء فقط على تثبيتها.. والحفاظ عليها، لأن هذا الواقع يحقق لهم.. ولهم فقط مصالح خاصة.. ويهدد فيهم أنانية بغیضة.. وأنت «عبد القيس» فى ظل هذا النظام كم امتلأ جوفك من دماء البشر.. وقوت الفقراء والمستضعفين.. والمجهدين؟!

وكم اتخمت خزائنك بالمال الحرام من الإغارة.. والسطو.. والسلب.. والنهب.. والريا

أية أمجاد لك.. تلك التى حققته سوى قطع الرحم، ونشر الرعب.. والفرع فى قلوب الأمنين، وبذر الشقاق، والخلاف.. وغرس الأحقاد والأصغان.. والموجدة بين أبناء الدم الواحد، والجنس الواحد حتى تنوم لك السيادة على الأرض، ويبقى لك شرف الهيمنة والغلب؟!

وأية بطولة تلك التى سجلتها، وأنت تغيرين على من لا يملكون مثل عدّك أو عدّك..
ومن لا يفاخرون بكثرة فرسانك.. أو زيادة مالك.. فتستولين على ممتلكاتهم.. وتقتلين
وتأسرين.. ثم تبيعين من ولدتهم أمهاتهم أحرارا فى سوق الرقيق من أبناء الدم
الواحد، والجنس الواحد، وكأنهم فرس أو روم أو ترك.. أو حبش، ثم يأتى شاعرك
ويفتخر بما حزننا من رقاب.. وما جزنا من نواص من أبناء الجلدة الواحدة؟!

وأية عزة يمكن أن تكون لك.. وأنت رغم هذه القوة لا تقدرين على السير خارج
حدودك؟!

وأنت تفتقدين الأمان.. كل الأمان خارج حدودك.. بل وأنت حتى داخل حدودك كنت
تفتقدين هذا الأمان.. ولا تشعرين براحة البال.. أو هدوء الأعصاب؟!

أمالك «عبد القيس»؟!

أعرف أنك تتظاهرين بالأمان.. وتحاولين أن تقنعى نفسك بذلك، أنت تستندين فى
أمانك إلى جدار قوتك.. ويطشك.. وأثق تماما أن هذا الجدار.. جدار القوة لن يبقى
طويلا على حاله الذى كان عليها منذ زمن.. لأن القوة تهزم.. وتشيع.. ومن ثم تضعف..
أنا أرى بؤادر هرمك.. وشيخوختك التى تجعل قوتك لا تثبت عند أول احتكاكة..
لقد شاخ جدارك وهرم.. ومن.. ولا مصير له إلا الزوال.. وزواله أت لا محالة!!

وإذا أردت البقاء قوية كما كنت.. عزيزة كما أردت.. فيجب أن تستبدلى هذا الجدار
بجدار أكثر قوة.. وأكثر منعة.. وأشد صلابة.. يمنحك أمان وأعظم استقرارا!!

واقترب من تل رملى على الشاطئ.. فاعتلاه.. وأراح جسده عليه، وأخذ ينكت الرمل
بسهمه المكسورة برهة.. ثم ينظر إلى الأفق البعيد، وقد لمعت عيناه ببريق غريب مثير:

- ليتك «عبد القيس» تستجيبين؟ فمئذ زمن بعيد وأنا أتوق إليه ولا يغفل عنه قلبى..
أو ينشغل بسواه فكرى.

إنه جدارك المتين.. وفوق منعته هو خالد خلود الزمن.. تخلدين معه.. وهو يجدد
شبابك.. ويصحح مسارك.. ويأخذ بيدك.. وينتشلك مما أنت منجرفة إليه أنجراف السيل
فى الأودية!!

فى «عبد القيس» انقلبت الدنيا رأسا على عقب.. لقد وفد على هذه القبيلة، وفد كبير من موفد عظيم..

انقلبت الدنيا رأسا على عقب بحثا عن عبد الله بن عوف بن الأشج.. الذى ترك الديار، ولا يعرف أحد إلى أين ذهب!!

سألوا عنه فى بيته فلم يعثروا عليه.. استعلموا عنه فى مكان يتوقع وجوده فيه فلم يجده.. استدلوا عن مكان يمكن أن يصل إليه.. ويكون فيه فلم يدلهم أحد..

لكن الأمر خطير، ولا بد من العثور عليه، فهو عقل من عقول القبيلة.. ومفكر من مفكرها، ولا تفوت القبيلة كبيرة أو صغيرة إلا وتعرض عليه.

وعلى خبرته .. وحنكته.. وتجاريه.. تعتمد القبيلة اعتمادا يكاد يكون تاما.

★ ★ ★

قلق ناس.. واضطرب آخرون..

ومما زاد من اضطرابهم أنهم بحثوا عن الجارود بن عمرو بن حنش «أخو عبد القيس» صنوه.. ورفيق كفاحه.. فلم يجده أيضا..

والجارود كبير من كبراء «عبد القيس» وزعيم من زعمائها البارزين.. لا تخطئ مشورته فى شئ.. ولا يختل رأيه.

وكثيرا ما قاد هو وعبد الله القبيلة فى أدق مراحل حياتها، وأخرج أوقاتها.. وعبرا بها إلى بر الأمان.. وخرجها بها من أزماتها سالمة.. جعل القوم يقدرونها تقديرا يليق بهما كزعميين عظيمين..

وخطر اليوم ليس فى أن قوما يغيرون.. أو ينوون الإغارة على القبيلة.. فالهجوم عليها وإن كان واردا فى الأذهان لكثرة ما أغارت على غيرها من قبل.. وهزمت.. وخلفت لديه ثارا.. إلا أنه يستحيل الحوث..

ولذا كانت الإغارة على «عبد القيس» تراود الكثيرين، ويجمع بهم الخيال فى يوم يتحقق لهم عليها فيه غلب.. غير أن الواقع من خلال الظاهر يرفض هذا رفضا قاطعا..

فهى «عبد القيس» وكفى!!

أما خطر اليوم.. فهو شئ آخر.. كانت منذ زمن طويل تفكر فيه.. وتحسب له ألف حساب.. وإن كان لم يطفُ على سطح حياتها كثيرا!!

خطر اليوم يكمن في أن محمد بن عبد الله النبی العربي في المدينة أرسل إلى «عبد القيس» رسلا.. وصلوا الآن.. حاملين منه كتابا.. لم يفضوه، ولم يعرف أحد محتواه ولا ماذا يريد فيه!!

ومحمد جال يمينا، وشمالا، شرقتُ رسله.. وغرقتُ.. وتحركت كتائبه في كل اتجاه واقتربت من «عبد القيس».. ومرت بجوارها مرات.. وفي كل مرة كانت تتوقع مع محمد اشتباكا.. لكن ذلك لم يحدث.. وكأن محمدا كان يتوقع منها شيئا لم تتوقعه هي.. فقد كانت تخط لنفسها خطأ أقل ما يقال عنه إنه كان يحق محمدا.. أو يثير حفيظته... مما مكنتها من البقاء هذه الفترة بقوتها، وهيبتها بين القبائل الأخرى.

وهو الشئ نفسه الذي حسب له عبد الله بن عوف حسابه.. وغدا يلقي بأثقاله عليه.. في غير هواة.. ولا روية!!

واليوم.. ماذا يريد محمد من «عبد القيس»؟!

وما الذي يجول بفكره تجاهها؟!

ماذا دعاه ليرسل لها هؤلاء الرسل؟! ويحملهم هذا الكتاب الغامض؟! وماذا فيه؟!

أين أنت يا عبد الله.. وأين أنت يا جارود؟!

كأنكما على وفاق مع الأحداث.. فتتركان القبيلة على غير العادة.. ينهشها القلق وتكاد تعصف بها الشكوك والوساوس؟!

★ ★ ★

على الطريقة العربية الخالصة رحب الحاضرون بالرسول..

فهم ضيوف عرب مسالمون.. لا يبيغون غدرا.. ولا يقصدون شرا.. وفضلا عن ذلك هم رسل محمد الذي شغل الدنيا كلها بدعوته.. فباتت له مصغية.. تضع السيف جانبا بعد طول صراع.. وتعمل الفكر فيما يصدر عنه وما يدعو له.

ومحمد لم يشغل العرب فحسب.. وإنما شغل الفرس.. والروم أيضا.

بيد أن ما يشغل الفرس والروم من أمر محمد غير ما يشغل العرب..
فأقل ما يترتب على هذه الدعوة الحمديدية - وهو ما يقلق الفرس والروم، ويحسبون
له ألف حساب - هو توحيد العرب في الجزيرة لأول مرة منذ مئات السنين.
والعرب قبل توحيدهم كانوا شرانم.. ووحدات متفرقة.. لكنها وحدات ذات عزم
شديد.. فكيف وقد توحدت هذه الشرانم، وانصهرت في بوتقة واحدة.. ثم أحالتها
الدعوة الحمديدية إلى قوة لم يبلغ أحد مداها.. فحسب الفرس حسابها وتحاشوها..
وانكمش الروم إزاعها.. فلم يخرجوا لمحمد عندما ذهب إلى تبوك..
على الطريقة العربية الخاصة رحب الحاضرون بالرسول..
إنهم ضيوف «عبد القيس» وهي لا يفوتها الواجب.. وليس بينها وبين محمد ما
يحملها على إهمال رسله!!
وبينما تتحرر الإبل.. وتجهز الموائد للضيوف.. امتطى فارس صهوة جواده وانطلق
محاذيا ساحل الخليج يبحث عن عقل القبيلة.. ومفكرها.. عبد الله بن عرف بن الأشج.

★ ★ ★

كادت الشمس تميل ناحية الأفق تأهباً للرحيل..
وعبد الله فوق تله الرملية على ساحل الخليج ينظر إليها.. وإلى السماء.. وإلى
السحب المتراكمة هناك خلف الأفق تنتظر الشمس لتحجبها بأرديتها متعددة الأشكال
والألوان.. وخال الجارود معه:
- انظر يا جارود.. كائى أرى غروباً لم يسبق أن رأيته، ولا رأيت مثيله من قبل.
ومن خلفه أسفل التل كان الجارود في رحلة مع نفسه مشابهة تماماً لرحلة عبد
الله.

يولى الغروب ظهره، وينظر تجاه الشرق.. إلى الصحراء المتسعة الفسيحة.. والممتدة
إلى ما لا نهاية.. دون أن يراه عبد الله أو يدرى الجارود بوجوده
وخال عبد الله معه يستمع إليه فقال وهو يراوده هذا خاطر:
- إى ودى.. إنه غروب بلا مثيل.. وبلا نظير.

فقال عبد الله وما يزال يتخيل الجارود يستمع إليه ويتابع ما يتابع:

- وكأني أحس أن ليله لن يعود.

فاسند الجارود ظهره إلى حجر خلفه، وما يزال يرى عبد الله كأنه يتابع ما يتابع..

- وكأني أنتظر من هذا المكان شروقا غير ما تعارفنا عليه..

فابتسم عبد الله:

- سنرى فيه الجدار الذي تستند إليه «عبد القيس» .. جدار قوتها، واستمرار

حياتها.. جدار بقاءها.. وخلودها!!

فتعلم الجارود في جلسته.. وكأنه يتهيأ لاستقبال وافد جديد:

- إنه شروق ستصطبغ «عبد القيس» به صبغة جديدة لم تحدث لها من قبل.. صبغة

لن تتغير بها ملامحها فحسب.. بل ستتغير بها أفكارها وعواطفها.. واتجاهاتها..

ومواقفها.. صبغة في لون ثوب العروس.. وتاجها، ودرتها.. وعقدها.. تكون فيها

«عبد القيس» عروسا ينبض قلبها بفرح كبير.. وسعادة دائمة.. لا نهاية لها.. واستقرار لا

يجوس من خلاله أي خوف.. أو فزع.. أو قلق!!

وتحركات يد عبد الله في الهواء.. تشير إشارات فيها حيوية.. وكبرياء.. وقال:

- وستصير لعبد القيس رسالة.. كم كنت أحلم بها.. رسالة خالدة، تخلد بخلودها..

وتبقى ببقائها.

فابتسم الجارود في حلمه ببقائها:

- وتخطر العروس في ثوبها الذي ما عرفت الدنيا له مثيلا.. وكما ستكون جميلة في

هذا الثوب النقي الأبيض.. الناصع البياض.

فزفر عبد الله زفرة خالها تريح صدره المكبوت:

- ونسلم الراية لمن بعدنا.. ونرحل ونحن مطمئنون إلى أننا أدينا الأمانة، ولم نفرط

فيها!

فصفق الجارود بيده تصفيقة واحدة.. وهو ما يزال يخاطب عبد الله:

- وتزف العروس فى ليلة تتحدث عنها الليالى .. وزمن يسجل فى التاريخ.. هو
زمنها المنتج المنجب..

أفاق الحالمان معا على وقع حوافر لجواد كأنه جامع.. يجول بفارسه شمالا ويمينا
كان الجواد فى جموحه كأنه يوقع توقعات لعبد القيس..
أحس به عبد الله من فوق ثله. كما شعر به الجارود فى ممكنه..
فقاما يستلهمان الطبيعة شيئا.. ويستقرئانها خبرا..
.. والتقيا..

وعندما أخذت الشمس تغرب.. كانا يوليانها ظهريهما.. وقد عرج عليهما الفارس
وأخبرهما خبر رسل محمد!!
فنظر عبد الله إلى الجارود:

- ألم أقل لك: إن «عبد القيس» اقتربت من جدارها؟! وألم أقل لك: إنها سيكون لها
شأن.. وأى شأن؟!
فأجاب الجارود:

- وأنا... ألم أقل لك: ها هو ذا الشروق بصيفته.. واسوف تبدو فيه «عبد القيس»
عروسا لم تعرف الدنيا لها مثيلا؟!

★ ★ ★

ما أروع ماقابل به عبد الله الرسل.. أو الضيوف كما يقولون؟!

وما أعظم ما عامل به الجارود هؤلاء القادمين بالشمس الجديدة.. والشروق
السعيد؟! وما أبهى رسل محمد، وهم يتحولون من مجرد حملة كتاب إلى رسل هداية
ونور كما علمهم الرسول الكريم محمد، ﷺ !

تحول مجلسهم منذ اللحظة الأولى إلى منتدى كبير.. كانوا هم نجومه المتلألئة..
اللامعة تنير ثنایاهم بآيات يتلونها على القوم.. وتتعطر أفواههم بأحاديث الرسول
المصطفى.. تبرق عيونهم ببريق الإيمان الخالص، والصفاء الذى لا نهاية له ولا حدود.

وكأن الخليج كله.. وقد كان بالفعل يصغى.. و«عبد القيس» مصغية!

قال الرسل عن الإيمان قولاً لا عهد للقوم به..

وتحدثوا عن الإسلام حديثاً حلوا.. قطريا.. كانت شهوته قريش إبان عداوتها
لمحمد.. لا لشيء إلا لأنها تحقد على محمد.. وظلت تحاربه سنين طويلة لا لشيء إلا لأنها
تنقم عليه أن يكون نبياً ورسولاً.

من قبل «عبد القيس» اعترف سيد من سادات قريش أول أمرها مع محمد، وكانت
أرسلته ليكون واسطة بينها، وبينه.. اعترف قائلاً لهم عندما استمع من محمد إلى
القرآن: «إن له لحلاوة.. وإن عليه لطلاوة.. وإن أعلاه لمثمر.. وإن أسفله لمغدق.. وإنه يعلو،
ولا يعلو عليه».

ولم يغير موقفه إلا عندما اتهموه بالضعف أمام محمد.. وأن محمداً استطاع أن
يسيطر عليه.. وأن يؤثر فيه.. فأحيوا فيه أنفه جاهلية ممقوتة.. وكبرياء أحمق:

تحدث الرسل عن الإسلام حديثاً شفى كل نفس.. وأراح كل قلب..

تحدثوا عن المعبود الواحد.. الله جل جلاله.. لا شريك له.. أساس العقيدة
الإسلامية..

كما تحدثوا عن الربا.. والخمر.. وأكل مال اليتيم.. والميسر.. والمرأة وكيف يراها
الإسلام.. وماذا أحل لها.. وماذا حرم عليها؟

وتحدثوا عن المحصنات.. وحفظ الحرمات.. وتحدثوا عن العبيد.. كل هذا في ظل
المعبود الواحد الذي لا شريك له، ولا زوجة.. ولا ولد..

﴿ قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد ﴾^(١) «سورة
الإخلاص»

وأبانوا في جلاء وضوح زيف عقيدة الجاهلين.. وسوء معاملاتهم.. وفساد حياتهم
مقارنة بالحياة التي جاء بها الإسلام تحقق السعادة، والأمن، والاستقرار والسلام في
الدنيا.. والجنة والخلود في الآخرة.. مدللين على بطلان من يقولون بعدم البعث والدار
الآخرة كما ورد بشأنهم في القرآن الكريم:

﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما نحن بمبعوثين ﴾^(٢) «المؤمنون: ٣٧»

★ ★ ★

تغرب الشمس .. فيستأذن الرسل.. ويطلبون ماء.. ثم يتوضؤون.. ويتجهون إلى
الكعبة .. إلى البيت الحرام.. يؤمهم واحد منهم ويصلون..

ويأتى موعد العشاء.. فيستأذن الرسل.. وييممون وجههم شطر المسجد الحرام،
ويصلون.. يصلون صلاة في شكلها لم يعرفها العرب من قبل، وهى فى جوهرها بنت
الفطرة النقية الخالصة.. هى ركوع وسجود.. هى مناجاة العبد لخالقه الواحد.. هى
ابتهاال إلى الله القادر الرازق.. الحى.. المميت.. المبدئ المعيد.. الحى القيوم.

لم تقدم خمر فى مجلس الرسل.. ولم يحاول أحد تقديمها.. ولم يعترض أحد على
ذلك! لم يحدث فى حضرة الرسل لفظ بلفظ خارج عن حدود اللياقة أو الأدب.. ولم
يحاول أحد غير ذلك!

سكينة حلقت فوق الجميع على غير انتظار.. وروح نفثت فى الجميع الوقار والجلال..
فأنصتوا.. وتفتحت عقولهم على ما إلتقطته أذانهم.. ثم استنارت قلوبهم.. ولما يزل
الرسل بينهم!!

ما هذا البهاء.. وما هذا الجلال؟

وبعد الانتهاء من صلاة الفجر استأذن الرسل فى الرحيل..

غادروا «عبد القيس» وتركوا الجو فيها معبأ بشذا عطر جديد.. نفذت رائحته الذكية
إلى القلوب، والنفوس، فأحست لأول مرة بالسكينة والراحة.. والثقة الحقيقية تبرز جلية
للعيون!!

★ ★ ★

لم يعرف أحد محتوى الكتاب مع أن الجميع أحسوا به!!

وماذا يمكن أن يكون محتوى كتاب من محمد إلا الدعوة إلى الله، والدخول فى
الإسلام؟ وإذا كان الجميع فى شغف لمعرفة محتواه.. فلقد صارت الرغبة ملحّة فى أن
يسمعوا أن محمدا عرض عليهم مرة أخرى الدخول فى الإسلام.. وأنهم وقد تهيأوا
تماما لعلى استعداد لقبوله الآن أكثر من أى وقت مضى!!

★ ★ ★

عند انتصاف النهار نوت فى القبيلة دعوة.. بل صيحة إلى اجتماع عام.. زمانه
أصيل ذلك اليوم.. ومكانه الساحة الكبرى للقبيلة أمام بيت عبد الله بن عوف..
وموضوعه ما جاء بكتاب محمد.. ثم أخذ القرار بشأته.

وبعد أن طير عبد الله الدعوة للاجتماع.. اختلى بنفسه، وجعل يناجى محمدا.. وهو
إن لم يكن رآه بعينه.. فإنه يراه بقلبه الآن.

— ما أبهاك.. وما أروعك يا محمد!! والله لكأنتك.. بل إنك لطبيب القلوب.. وكتابك
البلسم الشافى جاء فى حينه تماما!!

لبيك والله وإن انفض عنى القوم.. لبيك والله وإن جئتك وحدى.. لبيك والله، وإن
قاتلتنى الدنيا كلها لإبعادى عنك..

لن أبعد يا محمد بعد اليوم أو تزهر روحى!!

★ ★ ★

يعلن عبد الله بن عوف على الملأ ما جاء بكتاب محمد.. وما جاء فيه يحدده فى
الآتى:

أولاً: الدعوة إلى الدخول فى الإسلام، وقبوله، والإذعان له، والتصديق به..

ثانياً: أن يتألف وفد من «عبد العبس» قوامه عشرون رجلاً.. ويذهب هذا الوفد إلى
المدينة ليحظى بقاء النبى.. ويبايعه عن القبيلة بالإسلام!!

★ ★ ★

وكان الاجتماع متفرداً فى شكله.. وفى نظامه.. وفى روحه.. وفى قراراته.

فما من اجتماع أقيم هنا.. أو هناك إلا وكان فيه شد وجذب، وصراخ وعويل ..
وربما انقسام وفرقة، وخصام.. ما عدا هذا الاجتماع..

خيط رفيع ربط القوم.. ورغم رفته فلقد كان قويا.. متينا.. لم يخرج عليه أحد..
وتمثل هذا الخيط فى القرارات التى اتخذها المجتمعون بقبول الدعوة إلى الإسلام
والدخول فيه.. والإذعان له، والتصديق به شكلاً وموضوعاً.. ثم العمل بأقصى سرعة
على تكوين الوفد.. والذهاب إلى المدينة، وإعلان البيعة بالإسلام أمام محمدا!!

ويكاد عبد الله يجأر بالدعاء معلنا عن غامر فرحته:

«يا رحمة الله تغمدي القوم المهتدين.. وتجاوزي عن طول غيابهم عن النهج الصحيح».

ويردها عبد الله وهو يرى القوم يتدافعون إليه ليحظى كل منهم بشرف عضوية الوفد وهم كان صعبا عليه كزعيم يحب قومه.. ويرجو لهم الخير المفاضلة بين واحد وآخر.. الكل عنده سواء.. وكان روح محمد الإيمانية نفثت فيه نسمات الحب الصادق، والعدل المطلق.. والتسوية الإنسانية، واقتلعت ما كان شائعا من ميل إلى الطبقية، والاستعلاء.

الكل يريد أن يكون في الوفد، وعبد الله يُرضى هذا ويطيب خاطر ذاك.

... اكتمل الوفد.. وعاد الناس إلى بيوتهم استعدادا للسفر.

الكل راض وسعيد.. من وقع عليه الاختيار، ومن لم يقع.. تفرحهم فرحة جعلتهم يذفون إلى بيوتهم من سيكونون في شرف استقبال محمد والالتقاء به، وكأنهم فرسان في ثياب جديدة.

★ ★ ★

يتحرك الوفد في مظاهرة حب.. وصفاء.. نسي فيه كل فرد ذاته، ولم يعد يرى إلا مجموعا متكافئا.. متكافئا.. سدا المودة، وإحاءة الرحمة!!

عشرون رجلا أخذوا يضربون في الصحراء غير مباليين بمشقاتها، ولا متاعبها ترقص بهم الخيول.. وتتمايل الإبل طربا.. على حذاء الحادي الذي لم يخرج حذاءه عن تلبية الداعي إلى الله.. رجاء عفو الكريم.. والحظوة بالقبول!!

حتى الكلام على بساطته فيه جدة.. وتتبعث منه روح هادية.. لم يذهب حالوته توقد الشمس.. فحلاوة الإيمان في القلوب ترطب الحلق.. وتمحو من فوق الجباه هزال السفر.. وتزيل الشعور بوطأة ألم الطريق.. وتساعد على بلوغ الهدف المرجى

★ ★ ★

يصل الوفد إلى المدينة.. يصل الوفد بسلام إلى مدينة السلام..

ويعجلهم حب لقاء الرسول ﷺ إلى الذهاب لمسجد الرسول..

وتلج على الجميع أسئلة.. تنور كلها حول محمد..

ما شكله ؟ وما أبرز ملامحه ؟ ماذا يلبس ؟ وماذا يأكل ؟ ماذا يقول ؟ وكيف يقول ؟
وما أهم ما يتصف به ؟.

تخيله بعضهم كسرى.. وتخيله آخرون قيصر.. وشطح الخيال بالبعض فرأى على رأسه تاجا.. وتتدلى من رقبته وفوق صدره سلاسل ذهبية.. وفى يده أساور أو طيلسان وعن شماله أو يمينه حراس أشداء بملابس خاصة.. شاكّي السلاح يثيرون الفزع والرعب، والخوف من الاقتراب.

وانعكس هذا التخيل على المدينة.. بعضهم لم يرها من قبل.. وبعضهم رآها مرة أو اثنتين لكنها تبدو اليوم فى ظل الأوضاع الجديدة شيئا مثيرا..

وكانت المفاجأة فى المدينة شديدة.. وكانت فى الرسول الكريم ﷺ أشد.

ليس فى المدينة قصور بيضاء أو حمراء.. لكنها كسيت بجلال ما له حد ولانهاية..
ومحمد.. ما كان فى هالة مادية.. فلا تاج.. ولا سلاسل.. ولا أساور أو طيلسان..
ولا حراس عن اليمين أو الشمال على الإطلاق..

ما كان محمد عندما رآوه فى أبهة الملك الذى تخيلوا!!

رأوا رجلا لكنه يختلف عن الرجال.. رجلا متواضعا على علو رتبته..

تكسوه فى بساطته غلالة من جلال..

وتحيط به هالة من نور.. ووقار أروع فى العين والقلب ملايين المرات من تاج الملك وسلاسله وأساوره.

رأوا رجلا عرفوا بعد «أنه خَيْرٌ بين أن يكون نبيا ملكا.. أو نبيا عبدا.. فاختار أن يكون نبيا عبدا»^(١)

رأوا رجلا هو أشد الناس حياء.. وأكثرهم عن العوارث إغضاء... لطيف المعشر رقيق الظاهر لا يشافه أحد بما يكرهه حياء منه وكرم نفس^(٢)

١- سيرة سيد المرسلين- أبو الفيض المنوفى

٢- المصدر السابق

رأوا رجلا هو أشجع الناس، وأحسن الناس.. وأجود الناس.
 رأوا رجلا دائم البشر.. لين الجانب.. ليس بفظ، ولا غليظ.. هو أصدق الناس لهجة
 وما سئل عن شيء فقال لا.
 وهم ما يزالون يذكرون رده لسبايا هوازن، وقد بلغوا ستة آلاف.
 رأوا رجلا إذا تكلم يتكلم بملء فيه.. بلا همهمة.. ولا غمغمة.
 يرى كالنور يخرج من بين ثناياه.. فصيحاً.. سديداً.. شديد التأثير.. لا يخرج إذا
 فوجئ ولا يزعج إذا قوطع.. ولا يضيق صدره لأى أمر كان،^(١)
 لم يترك الواقع لخيالهم ما يقارن به.. فقد كان أروع.. وأروع.. وكفى!!
 لم يقل أحد عن محمد شيئاً.. كل ما أرادوا معرفته عنه رأوه بأنفسهم.. ولسوه
 بأحاسيسهم وقطنوا إليه بعقولهم.. وأدركوه بقلوبهم.. وخرجوا بعده ييقين أن من يروونه
 إنما هو المثل الكامل للإنسانية كلها.

★ ★ ★

صدق الوعد وأذعن.. وبائع بالإسلام.
 وكانت سعادة عبد الله بن عوف بن الأشج غامرة والرسول الكريم يخصه بحديثه:
 - فيك خصلتان يحبهما الله تعالى.
 ويستفسر عبد الله من رسول الله ﷺ قائلاً:
 - وما هما يا رسول الله؟
 ويقول الرسول الكريم:
 - الحلم.. والأناة!!
 ثم يلاطف الرسول الكريم عبد الله:
 - أشياء حدث.. أم جبلت عليه؟

١- سيرة سيد المرسلين

ويجيب عبد الله وهو يحس كائنه بحديث رسول الله ﷺ يرتفع إلى عنان السماء:

- بل جُبلت عليه(١)

وعلى قدر ما كان عبد الله هادئاً.. فرحاً مستبشراً.. كان الجارود قلقاً... وعندما

عرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ورغبه فيه قال الجارود، وكان نصرانياً:

- يا محمد.. إني كنت على دين.. وإني تارك ديني لدينك.. أفتضمن لي ديني؟!

فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم بما هدأ روعه.. وطمأن باله.. وأراح قلبه وعقله:

- نعم أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه(٢)

فأسلم الجارود.. كما أسلم أصحابه.. وعاد الوفاء...

وبعودته اكتمل لعبد قيس ما تمناه لها عبد الله بن عوف الأشج والجارود.. ودخل

الناس في دين الله أفواجا.

★ ★ ★

١- محمد رسول الله جودة السحار

٢- سيرة ابن هشام

الرثاء.. والرثيخ

وفد مراد

كادت تند عنه أمة!!

حبسها.. وأرعى العنان لزفرة حارة.. خالها نارا حامية، لو تمكنت شرارتها من
الكون كله لأحرقته!

كادت تند عنه صرخة.. هي زئير حبيس في صدر أسد جريح.. تقلبت به الأيام في
حلوها.. وأرته عزها.. وأذاقته مجدها.. ثم.. ثم انقلبت له.. فانتشحت بالسواد ووارت
عنه بياضها.. وحجبت حلوها، وأذاقته بأسها ومرارها.. وسلبت عزها وباعدت بينه وبين
أمجادها وذلك عندما داهمت همدان قبيلته..

عندما داهمت همدان قبيلة مراد.. وأعملت فيها السيف ضربا.. والرمح طعنا،
وألحقت بها هزيمة منكرة، وأوشكت أن تقضى عليها قضاء مبرما.. في مذبحه رهيبة..
وفى يوم عصيب.. يوم نحس.. يوم أسود مشئوم أطلق عليه.. «يوم الردم».

★ ★ ★

تلقت فروة بن مسيك المرادى حوله، فلم يجد سوى بقية باقية من مراد، نجت
بأعجوبة من سيوف همدان، ورماحها، وسهامها.. من جبروتها وطغيانها بعد معركة
شرسة أخذت فيها مراد على غرة.. ضاع فيها شبابها.. زهرة الدنيا، وبهجة الحياة،
وأمل المستقبل.. وسبيت نساؤها.. عطر بيوتها وفرح لياليها.. وأنس أيامها في قفر
الصحراء وجفافها. ونهب مالها واستبيحت حرمانها.. وهانت وقد كانت عزيزة مرهوبة
الجانب.. ومات الشيوخ على أثرها فرقا.. وحزنا على ما أصاب القبيلة!!

تلقت فروة بن مسيك المرادى والحسرة تحيط به من كل جانب، وتذيب ما بقى من
تماسك ألما على ما فقد من أهل وولد.. وعشيرة ومال.. ثم طاف والألم يعتصره
اعتصارا يتتبع مصارع قومه على يد الهمدانيين، ويندب حظهم العاثر.. ويعزى نفسه
المكلومة وينفس عن قلبه الموجع:

- مررت على لفات وهن خوض * ينازمن الأعة ينتحيننا (١)
- فإن نغلب فغلابون قدما * وإن نغلب فغير مغلييننا (٢)
- وما إن طبنا جبن ولكن * مناينا وطعمة آخرينا (٣)
- كذاك الدهر دولته سجال * تكرر صروفه حيننا فحيننا (٤)
- فبيننا ما نسر به ونرضى * ولو لبست عضارته سنيينا (٥)
- إذا انقلبت به كرات دهر * فالفيت الأولى غبطوا طحيننا (٦)
- فمن يغبط بريب الدهر منهم * يجد ريب الزمان له خئوننا
- فلو خلد الملوك إذن خلدنا * ولو بقى الكرام إذن بقيينا
- فأقنى ذلكم سدرات قومي * كما أفنى القرون الأولينا (٧)
- جعل فروة يتلفت حوله أنه يجد شيئا ولو بارقة أمل.. فلم يجد غير الخراب
والدمار والبؤس.. واليوم تنعق على كل جانب..
- واحسرتاه عليك يا مراد!! أين أنت وقد كنت ملء السمع والبصر!! يا لغدر الأيام!!
- أجال الفكر فيما جرى.. وما يجرى،
فيما كان فيه .. وفيما صار إليه
فيما كان فيه قومه.. وفيما صاروا إليه..

(١) لفات: من ديار مراد.

خوض: غائرات العينين.

ينتحين: تعترض وتتعمدن

(٢) المقلب: الذي يغلب مرارا ويريد أننا لم نغلب إلا مرة واحدة.

(٣) طبنا: دهرنا وشأتنا

(٤) سجال: مرة للمرء ومرة عليه

(٥) عضارة الشيء: طراوته ونعومته

(٦) غبطوا: استحسنوا حالهم

(٧) سدرات القوم: أشرافهم

فاستعبر، وهو الكمي الشجاع..

إن جروحه غائرة عميقة.. وألامه فوق الطاقة.. وفوق الاحتمال.. وإن تخففها العبرات
وإن ذرفت مدرارا كالطرر.. أو تنقل منها الآهات ولو وصلت إلى عنان السماء!!

★ ★ ★

التف حوله ما بقي من قومه:

- لم يبق لنا سواك يا فروة.. أنت كبيرنا.. وزعيمنا.. فانظر ما أنت صانع بنا؟!

- بل قولوا ما أنا صانع لكم؟!

كاد يستبد به اليأس.. ويستولى عليه القنوط والإحباط!!

فالكارثة مروعة.. والرسل والعيون تنقل أخبار تجمع الهمدانين.. ولعلهم ينوون
الإغارة كرة أخرى.. وماذا يمنعهم والواقع يمنحهم مجدا لم يحلموا به.. ويسجل لهم
انتصارا ساحقا على مراد؟!

ولا غرو.. فهذه حياة العرب على أرضهم بواقعها المر، وطبيعتها النافرة.. وقوانينها
التي لا يصدقها عقل، ولا تتمشى مع أي ناموس من نواميس المنطق!!

قال له من بقي من قومه:

- اصنع بنا.. أو اصنع لنا ما بدا لك.. فلن تجد أحدا يخالف عن رأي.. أو يشذ
عن مشورة،

أجاب وثقل المسؤولية يضغط عليه:

- سألق الجراح وما يهمني الآن سوى الإبقاء عليكم، ونجاتكم.. وسلامة أبدانكم
والمحافظة على أرواحكم.

وقالت زوجته.. وكانت أثيرة لديه لرجاحة عقلها:

- أترغب في المشورة والرأي؟!

- بلى.. وهاتي ما عندك!

- ولا تحنق على؟!

- ولا أحنق عليك.

- ألا ترغب في جوار يمنعنا حتى نقوى؟!

- فطأطأ رأسه قليلا ثم رفعها:

- وإن كان الجوار أشد مرارة.. وأوجع للكبد، والفؤاد من تجرع السم.. لكن ليس منه بد:

ولحق فرقة جراحه بالفعل.. وترك الديار.. وانحاز بمن معه ممن بقى من أهله وقومه إلى «كندة» يعيش فيها، وفي كنف ملوكها عله أن يجد يوما من أهله قوة. وفيهم منعة.. فيعود إلى الديار.. أرض الذكريات.. ومرتع الصبا.. وملعب الأتراب.. والأمل المنشود!!

★ ★ ★

وأخذت الأيام تبتسم لفرقة.. وترد له الدنيا على أرض الكنديين وفي كنفها كانت سلبته منه من أمن، وأمان، ومن سلام غذا وجوده بعيد المنال بصفة خاصة على الأرض العربية.

لقد وجد في معاملة ملوك كندة عوضا عما فقد.. ورأيا لما انصدع عامله هؤلاء الملوك معاملة تنبئ عن كرم فريد..

عامله هؤلاء الملوك معاملة الأخ للأخ.. والصديق للصديق.. لم يقصروا في حقه أو قومه أيما تقصير.. ولم ييخلوا عليه بشيء.. وأباحوا له ولأهله، ولقومه من ديارهم، ما أباحوا لأنفسهم.. وأرخوا له ولقومه العنان في كل كبيرة، وكل صغيرة، فانطلقوا في يسر وسهولة على أرض كندة، وكأنهم ما تركوا أرضا.. ولا فارقوا وطنًا!!

ولقد أشعرت هذه المعاملة الكريمة فرقة بقيمته.. وردت له اعتباره.. وأعادت إليه كبريائه.. فشرع يحس بذاته.. ومن ثم يستعيد ثبات وجدانه.. واتزان عقله.. ويقف شامخا في عزة، وكبرياء.

وظهر ذلك جليا، وهو يدخل على هؤلاء الملوك بلا استئذان.. وهو يجالسهم كأنه واحد منهم.. وهو يحاورهم محاوره الند للند، وهو يتفق معهم أحيانا في قضايا،

ويختلف معهم أحياناً أخرى في قضايا أخرى.. نون هيبة... أو خوف، أو وجل، كأنه واحد منهم في ديارهم.. وليس واحداً في جوارهم!!

.. تصفو الحياة، وتمر الأيام.. ولا شيء يعكر هذا الصفو لدى فروة سوى تذكر الأيام الماضية.. وسوى ترك الديار.. وفقد الصحب والأحباب.. لا شيء يعكر الصفو سوى شبح «يوم الردم» الذي كان لهمدان على مراد.

وهو إذ يحاول جاهداً نسيان الماضي.. وتقبل الواقع الجديد يعطل للنفس بطبيعة العرب في هذه الحقبة من الزمن، والتي تفرضها عليهم حياة الكر والفر، في هذه المساحة من الأرض التي لم تعرف تغييراً، ولا تطوراً منذ قرون عديدة خلت.. ولم يرث فيها اللاحقون عن السابقين غير هذا النمط الشاذ من أنماط الحياة غير المستقرة.. يغير فيها بعضهم على بعض، فيتصادم الأخ مع أخيه، والولد مع عمه أو خاله، فيقتتلان.. وقد يقتتلان.. أو ينجوان... أو يقتل أحدهما الآخر، وفي كل الأحوال.. المصيب مصاب.. والغالب مغلوب، وإن تصوروا غير هذا.

وقديماً قال شاعر في هذا المعنى:

قومي هموا قتلوا أميم أخى ★ فإذا رميت يصيني سهمي

★ ★ ★

ويسترجع فروة الماضي العربي على الأرض العربية، وقد أخذت نفسه تطمئن.. وتخف حدة أحزانها، وتهدأ أثرة ثورتها.. وتركن إلى الهدوء.. والسلام والدعة..

يسترجع الماضي العربي على الأرض العربية:

«ألم يقتل جساس كلييا زوج أخته؟ فيقضى عليه، ويرمل أخته.. ويبتم ولدها، الذي غادرت ديار زوجها بعد مقتله وهي حامل به؟»

ولماذا قتل جساس كلييا؟

الآن كلييا أمر رعاته بمطاردة ناقة البسوس .. تلك المرأة العجوز المشنومة، والتي كانت في جوار جساس.. فطاردهم الناقة لإبعادها عن مراعى كليب.. وأصابوها..

فيتسبب ذلك في قتل كليب نون رعاية لمصاهرة.. أو حتى جوار؟

لقد كان البكريون وهم قوم حساس فى جوار كليب.. وعلى أرضه.. ألا يشفع هذا فى نسيان فعل ولو طائش فيعدو عليه حساس.. أخو زوجته، وخال ولده، ويقتله فى إصابة ناقة البسوس؟!

...وتذهب جليلة زوجة كليب مع أهلها الذين غادروا الديار إلى ديار بعيدة وقد اندلعت الحرب بين الفريقين..

تلك الحرب الشهيرة بحرب البسوس.

وتلد هناك ولدا.. «الهجرس».. ويحتضنه حساس.. ويربيه، ويرعاه.. ويتعلق به وهو يراه ينمو ويكبر.. ويحبه كما لم يحب أحدا سواه.. ويلزمه ملازمة الظل.. فى غنوته أو روحته.. ثم يعلمه الفروسية.

ويبادل الهجرس خاله حبا بحب، وتعلقا بتعلق.. فمئذ تفتحت عيناه على الدنيا، وهو لا يرى سواه أبا ملء السمع والبصر.. فارسا لا يشق له غبار، ومثلا يحتذى.. مثالا أعلى له فى حياته كلها.. طولها وعرضها.

ويهمس قالة السوء فى أذن «الهجرس» ولا تزال الحرب دائرة..

يهمس قالة السوء فى أذن الهجرس، ويطلعونه على التاريخ..

ويعرف أن الذى رباه خاله.. وهو قاتل أبيه.. ومشعل نار العداوة والبغضاء بين القبيلتين المتحاربتين.. فيعدو عليه.. ويقتله.

وكما لم يشفع شىء لكليب عند حساس.. لم يشفع شىء لجساس عند الهجرس.

ثم ينحاز إلى أعمامه.. ويتسلم الراية بانحياز الهجرس إلى أعمامه جيل جديد فى حرب ضروس لا تبقى ولا تذر!!

ويهمس قالة لنفسه، وهو يستعرض حياة العرب على الأرض العربية.. وهو يفكر فى طبيعة عقليتهم.. وأخلاقيتهم.. وعاداتهم.. وتقاليدهم.. يهمس لنفسه بأنه لن يكون بدعا فى ذلك.. فى يوم تواتيه القدرة.. ويصل وقومه إلى مستوى يمكنهم من الإغارة.. والأخذ بالثأر.. فلن يتركوا الفرصة تفلت من أيديهم.. بل إنهم سيقوموا بها.. وسيثأرون لأنفسهم.. وقتلهم من الهمدانيين.. وسيلحقونهم فى كل مكان أو موقع يتواجدون فيه..

وسوف يشخونهم.. وينبهنهم.. ويأسرون منهم ويأخون نساءهم سبائا.. وسوف يبيعون من يتبقى منهم فى سوق الرقيق!!

هكذا حياتهم التى جبلوا عليها والتى ورثوها عن الآباء والأجداد.

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ ^(١) ﴿الزخرف: ٢٢﴾

★ ★ ★

وتتبدل الأيام..

ويفاجأ فروة بأن العرى بينه وبين ملوك كندة تنقطع!!

ماذا حدث؟

يقلب صفحاته.. يبحث فى دفاتره.. يستوحى الواقع.. وذكرياته عنهم.. ومعهم عله يجد مبررا لهبوب رياح التغيير، وتقطع عُرا المودة، والصداقة، والإخوة.. فلا يجد!!

هكذا وبلا مقدمات يصير المحبوب مكروها.. والمرغوب فيه مرغويا عنه؟!

هكذا وبلامقدمات يصير الأخ جارا.. والجار مغادرا بلا رجعة؟!

هكذا، وبلا مقدمات تهب الرياح منذرة بإعطاء ملوك كندة ظهورهم له.. وإن استداروا واتجهوا له فلكى يلتهموه.. ويقبضوا عليه؟!

إنه على أرضهم.. وهو وقومه ضيوف عليهم.. وقد كان عزيزا بهم.. قويا بقريهم منيعا بجوارهم.. فكيف تتبدل هذه الحال.. وبهذه السرعة، ويصير ضعيفا بينهم.. بلا حول.. وبلا قوة.. تفزعه النبأة.. وتقص مضجعه اللفتة المفاجئة؟!

حاول أن يعلل المواقف، أو يبررها.. ومهما حاول فرياح التغيير قادمة لا محالة!!

ولو تغافى عن الواقع.. ولو تجاهل الحقيقة، ولم يفكر فى مخرج من هذا الهم الجديد، فسوف يكون هو، ومن بقى من قومه طعمة سائغة للملوك كندة عندما يكشرون عن أنيابهم.. ويجهرون بعداوتهم!!

وساعتها لن يلوم إلا نفسه.. لأن الجناية ستكون جنايته.. والخديعة خديعته.. وقبل

أن تهب العاصفة.. فليس أمامه إلا العودة إلى الديار!!

★ ★ ★

إن جراحه وقومه لم تندمل بعد.. وما زالوا فى موقف ضعف .. وهمدان فى موقع قوة.. ولا شك ستكون فرصتها أعظم فى القضاء على مراد نهائيا .. وإلى الأبد!!

ماذا يفعل!! وكيف يتصرف!!

لقد أوقع نفسه بين فكي كماشة.. أو بين حجرى رحا!!

ملوك كندة أمامه.. صديق غادرتنكر لكل العهود والمواثيق، وغدا لا يؤتمن جانبه!!
وهمدان بكل حقدها.. وجحيم عداوتها.. وجبروتها.. وغطرستها.. ولذة انتصارها،
وما يكسب معنوياتها من علو وثقة.. وما يمنحها ذلك من ميزات تجعلها تسحقه وقومه
لو دخلت حرب أخرى معهم.. وتبيدهم إبادة شاملة!!

ماذا يفعل!!

يهادن ملوك كندة!!

كيف وقد علم غدرهم.. ونكثهم العهد.. وخلفهم الوعد!!

والبقاء .. وهو يعلم حقيقة نواياهم تسليم بما يريدون.. والتسليم أسر.. ذل..
عبودية.. أيسلم نفسه وقومه لدى ملوك كندة يستعبدونهم.. ويستذلونهم ما بقيت
الحياة!!

أية حياة تلك!! وأى منطق هذا!! وأى مصير أسود متريص بمراد!!

لقد بكى فروة بن مسيك المرادى فى حياته كثيرا .. كما ضحك كثيرا أيضا!!
لم ينقطع بكائه.. فهو متجدد بتجدد الأحداث.. والمصائب.

والأحداث، والمصائب ليست لها حدود تقف عندها.. ولا نهايات تنتهى إليها.

وما يزال يضحك.. إذ مرت.. وما تزال تمر به أيام ذاق فيها طعم السعادة
والسرور.. فرغم المتاعب، والمصائب.. التى تمر به وما تزال إلا أنه يجد من وقت لآخر
فى حياته بعض أحداث تكسر قاعدة الحزن العريضة بشئ من السعادة، والسرور،

فيسعد ويسر ، ويضحك..

صارا الضحك والبكاء..

أو الحزن والفرح..

أو السعادة والشقاء..

كلاهما يسيران فى خطين متوازيين.. لا يسبق أحدهما الآخر، ولا يتخلف أحدهما عن الآخر..

لكن المحير فى الأمر.. والمثير للدهشة، والاستغراب أنه عندما كان يحاول أن يبحث عن معنى لمسيبات البكاء فلا يجد.. وكذلك عندما يبحث عن معنى لمسيبات الضحك فلا يجد.

إذا أغار عليه قوم، ونالوا منه.. ومن قبيلته .. يحزن.. ويبكى..

وإذا أغار هو على قوم.. ونال منهم، يفرح.. ويضحك..

والإغارة منه على الآخرين.. والإغارة عليه من الآخرين لا تنتهى!!

لكن.. لماذا الإغارة؟!

كان هذا هو أول سؤال.. سألته فروة لنفسه محاولا الإجابة عليه بصورة صحيحة فى غمرة الأحداث الجديدة التى يمر بها!

والسؤال، وإن كان تأخر زمنا طويلا إلا أنه بداية تحول جديد فى فكر فروة ومن ثم حياته.. وحياة قومه؟!

أخذ فروة يستفيد من تجاربه الماضية.. وكان أهمها.. ولم يلتفت إليها

واليوم هو يحتاجها.. يحتاجها أكثر من أى وقت مضى ليفسر بها ماغضى من موقف ملوك كندة منه.. ومن قومه، وهو بين أظهرهم .. بل ما يغمض من هذه الحياة بأسرها.. على هذه الأرض!!

لم يعد يفرح لشيء.. أو يحزن من شيء..

فلا ضحك.. ولا بكاء..

لا مجال للعاطفة.. المجال كل المجال للفكر.. ولا بد من أن يجد فكره سبيلا للخروج
من هذه الورطة.. وحتى يصل إلى هذه النتيجة الحتمية.. فليجب أن يكون فكره جديداً!!

فكر كثيراً.. حتى لقد تحول إلى فكر محض..

استعرض الحياة العربية كلها محاولاً أن يجد لها معنى..

أن يجد لهذه الحياة ضوابط.. تحكم تداعياتها..

أن يجد فيها قانوناً يحمي الضعيف من القوى..

والفقير من الغنى..

والصغير من الكبير..

.. وقد تبدت له الحقيقة.. وناصبه ملوك كندة العداء..

والآن.. ماذا يفعل..؟

هذه الدنيا على اتساعها رأها سجنًا ضيقًا.. تكاد حواشيه تضغط عليه.. على
أضلاعه فتفتتها.. على روحه فتزهدتها..

لقد واجه من قبل محناً.. وإحناً.. ومصاعب..

وماجمته متاعب..

ولاحقته كوارث خالها في حينها بلا نظير أو مثيل..

لكنها الآن.. وأمام هذه التحديات الخطيرة.. لا شيء على الإطلاق أو قيمة!!

همدان من جانب.. وملوك كندة من جانب آخر..

وهو غريب.. بعيد عن الديار.. ضعيف.. لا حول له ولا قوة..

ضاققت عليه الأرض بما رحبت.. تلك الأرض الجائرة الفاسدة..

ليته يملك عصا موسى..

إنذن لتغير ما يجرى في الكون كله.. ولتغير ما يجرى على الأرض العربية..

إنذن لفجر الأرض ينابيع للخير في كل مكان تفرق الشر.. وتقضى عليه..

وعند ذكر عصا موسى توقف.. وتأمل.. وأمعن في التأمل.. ومن فرط تأمله..
استغرق .. وأعظمه استغراقه أوشك أن يحبس أنفاسه حتى لا تتسبب في تشتيت ذهنه،
وتبعد عنه خاطرة خطرت.. هي طاقة نور.. فيض رحمة.. طريق واسع فسيح للخلاص
والنجاة!!

واستعاد خاطره: «عصا موسى»

.. موسى نبي.. سمع بهذا.. لكنه في الزمن القديم..

وفي زماننا نبي... وجاشت نفسه..

وكاد يصرخ.. كاد يصيح:

في زماننا نبي.. في المدينة.. إنه محمد بن عبد الله القرشي..

لقد علم بهذا.. كما علم برحمته في قومه.. وعدله بين أصحابه.. بل بين الناس
جميعا.. وإحقاقه الحق.. وحرية الباطل في مختلف الأرجاء.. والأنحاء.. وفي أي صورة
كان!!

واستعاد ثباته.. والأفق المظلم يستنير..

وهمس لنفسه:

في المدينة نبي.. يقيم السلام في الأرض..

ويمنع الهوان بين البشر..

ويوقف العدوان.. ويقضى على الشر..

وينتصف للضعيف من القوى..

ومن الظالم للمظلوم..

في المدينة نبي..

يحل الحلال.. ويحرم الحرام..

ويحفظ الحرمات.. ويصون الأعراض..

في المدينة نبي..

يقضى على الفوضى الخلقية.. والعقلية التى سادت الجزيرة العربية.. ويقضى على
الخوف.. والرعب ويحل محلها الأمن، والطمأنينة والسلام..

فى المدينة نبى..

يقيم نظاما اجتماعيا جديدا.. لا عدوان فيه.. ولا إغارة ولا بغضاء.. ولا شحنا!

فى المدينة نبى: هو الوحيد القادر على طرح الأسئلة.. ووضع الإجابة عليها!!

وتحطمت من حول فروة جدران السجن الكبير..

وتكسرت كل القيود من حول رقبتة..

ومعصميه..

ورجليه..

وانهار جلاده.. وتلاشى.. واختفى!!

وتبدلت الأرض غير الأرض..

والسماوات غير السماوات..

وأخذ نفسا عميقا.. وهو يخرج من بئر عميقة الغور.. ثم صعد فى هدوء.. وهو
يحس كأن قامته ترتفع.. وترتفع.. حتى تصل رأسه السماء..

وهو يحس كأن أقدامه تقترب من أعماق الأرض قوية ثابتة..

ورأى من عليائه ملوك كندة.. أقزاما..

بل أقل من الأقزام..

وفتش فى الكون عن همدان.. فرأها فى ركن حقير من الأرض..

جماعات كجماعات النمل.. تهرع إلى الشقوق والجحور فارة مذعورة.. عند صوت

الريح!!

وكاد يهتف.. ويأعلى صوته:

.. أية عظمة تلك التى منحتها إياى على البعد يا محمد.. وأنا أفكر فيك.. مجرد
تفكير!؟

يا نبي الرحمة..

والقوة..

والعظمة..

والحق.. والخير..

أصدقك..

وأهتف بك نبيا ورسولا لرب العالمين.. إله الواحد..

فأقبلنى.. وأقبل قومى فى رحابك..

ودار حول نفسه.. وهو ينظر يمنة ويسرة..

ثم ثبت..

ونظر إلى أعلى ..

واتجه إلى السماء..

وصاح..

«يا رب الأرياب.. ورب محمد.. امنحنى القدرة.. وأمهلىنى حتى ألقاه.. ويأمن فى
جواره قومى»

★ ★ ★

واندفع فروة بن مسبك إلى بيته مهرولا... إلى زوجته مكن سره.. وموضع ثقته..

صار متهللا.. وقد زالت تقاطيب وجهه، وانفجرت أساريره..

– أتدريين؟!

– هات ما عندك ترعاك الآلهة..

فى ثقة:

– لم يعد يهمنى ملوك كندة .. وإن أعود أهتم بهمدان..

فى لهفة:

– يارعاك.. زبنى..

– لقد وجدته..

– من هو؟ وما أهميته؟!

– ملاذ المحتاج.. وسند الضعيف.. وأمن الخائف فى غير من!!

– أفصح يا رجل.. أجبت شوقى..

فهمس:

– محمد.. محمد يا زوجتى الصابرة..

فى دهشة:

– نبى قريش؟!

– بل نبى الدنيا كلها.. رسول رب العالمين..

فاستعادت الزوجة ثباتها.. وأدركت أن زوجها قد وقع على شيء .. فسوف يكون هذا
الشيء عظيما .. ولا سبيل إلى رده عنه..

ثم قالت:

– إن كان ما تقول حقا.. وما عزمتم عليه صدقا.. فاجعل هذا فيما بينى وبينك.. ولا
تعلم به أحدا.. فقد يزيد هذا من حنق ملوك كندة.. ولا نعرف بعد العاقبة..

فتنبه:

- والله لنعم ما ترين.. وإنى ذاهب من فورى أبلغ القوم عزمنا على الرحيل إلى
الديار.. وأشكر ملوك كندة كرم الضيافة.. وأستسمحهم الإذن لنا بالرحيل..

وهى تشيعه:

- لن أوصيك بالحرر.. فهذا التغير المفاجئ سيكون عليهم صاعقة حيرة.. وشكا.

وهو يودعها:

- أدرى.. أدرى.. فاطمئنى.

★ ★ ★

... ما أن فصل عن الديار.. ديار الكنديين حتى تنفس فروة الصعداء.. وانزاح عن
صدره هم ثقيل.. وعن كاهله عبء لا يعلم إلا الله كيف تحمله.. وكيف صبر له.. وقدر
عليه؟!

ما أن فصل عن كندة مفارقا.. مطمئنا أن قد نجاه الله من مكربهم وكيدهم حتى
نطق لسانه:

لما رأيت ملوك كندة أعرضت ★ كالرجل خان الرجل عرق نساها^(١)

قريت راحلتي أؤم محمدا ★ أرجو فواضلها وحسن ثرائها^(٢)

★ ★ ★

السفر الطويل.. والطريق وعرة.. والسير شاق.. وعسير تحت وقدة الشمس الحارقة
فى متاهات الصحراء.. ودروبها الواسعة.. الفسيحة!

لكن الغاية حلوة..

ومحمد هو الغاية..

(١) النساء: عرق مستبطن فى الفخذ وأصله مقصور فعمده للشعر

(٢) أؤم: أقصد

ثرائها: يعنى الجود والعطية

ويروى : ثنائها، وهو الذى يتحدث به عن الرجل من خير

وهو المقصد..

محمد هو الرجاء.. وهو الأمل.. ومن أجله يهون كل شيء.. يسهل السفر، ويحلو الطريق.. ويهون السير.. وتحتل المشقات.

يصل فروة سالما إلى المدينة.. ولا ينتظر حتى يجف عرقه..

ويذهب إلى رسول الله ﷺ على هيئته.. أشعث.. أغبر.

ويلقاه الرسول مواسيا.. ويتقبله مرحبا.

ويهش الرسول الكريم لفروة.. ويبش له.. ويخصه بحديث عذب.. حديث حلو.. لا يوزن بأى حديث، ولا يقدر بأى ثمن.. حديث فيه عزاء من لم يجد عزاء.. وسلوى من شردت عنه السلوى.. حديث فيه راحة للنفس.. وطمأنينة للقلب..

قال له الرسول الكريم ﷺ :

- يا فروة..

ويجيب فروة ، والرضا يقطر من صوته.. والحب يتفجر فى لجهته:

- فداك أبى وأمى يا رسول الله..

ويقول الرسول الكريم ﷺ :

- هل ساء لك ما أصاب قومك «يوم الردم»؟

ويقول فروة:

- يا رسول الله.. من ذا يصيب قومه ما أصاب قومى يوم الردم لا يسوؤه ذلك؟

فيقول الرسول الكريم ﷺ :

- أما إن ذلك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيرا.

وتغمر فروة الفرحة.. فرحة حقيقية يحس لها أوصاله من شدتها ترتجف.. فرحة من نوع جديد لم يألفه من قبل.. فرحة كحياته الجديدة تماما.

ثم..

يكرمه الرسول الكريم.. رسول الإنسانية والرحمة.. يكرمه لحسن إسلامه.. ولما
احتمل وقومه في سبيل الوصول إلى ما وصلوا إليه.. ويُعَيِّنُه عاملاً من قِبَلِهِ..
يستعمله النبي ﷺ ، على مراد.. وزييد.. ومذمج كلها..
ثم.. يبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة.

ملوك الزمان .. والكنز!!

وفد ملوك حضر موت

اقترب الموسم..

وأخذت «كندة» تتأهب له.. وتشمر عن السواعد، وتقف على سوقها استعدادا وإعدادا.. ففي هذا الوقت من كل عام يقام سباق الخيل.. سباق الفروسية الشهير في «كندة» أحلى وأمتع السباقات في هذه البقعة من الأرض اليمنية.. وهو أغلاها، وأقواها على الإطلاق وذلك لندرته، وطرافة ما فيه!

ونذرة هذا الموسم أنه الوحيد في نمطه ... الذي تمثل فيه معظم القبائل في «حضر موت» بأجود ما عندها من خيول عربية أصيلة.. يمتلئ صهواتها أبرع من فيها من فرسان، السبق، والضرب، والطنن!!

ونذرة هذا الموسم أيضا أنه الوحيد الذي تحتفل به «حضر موت» كلها.. ويحضره معظم ملوكها.. إن لم يكونوا كلهم!

وعندما يحضر ملوك «حضر موت» يحضر معهم حراسهم.. وأتباعهم.. وأنصارهم.. وتتمايز منهم الشيات.. والأشكال.. والألوان.. والأعلام.. فيضفون على الموسم ما يجعله مهرجانا للفروسية بكل المقاييس، ومهما حاول إنسان أن يصفه، وأن يخصى مظاهر جماله.. وانعكاس أثره على القادمين، والمقيمين.. فإنه يعجز، لأن المهرجان بطابعه، وكل ما فيه يجلب عن الوصف!!

أعد الميدان الكبير خارج الدور.. والبيوت!!

وجعلت فرق الاستعداد، وفي الإعداد تمارس كل واحدة دورها المنوط بها:

فريق يجهز مضمار السباق.. فيحدد خط البداية.. وخط النهاية.. وخطوط السير طولاً، وعرضاً.. وكيف يكون الانطلاق، وعدد المتسابقين في الشوط الواحد.. مثني مثني.. أم ثلاث ثلاث.. أم رباع رباع.. وأنسب جهات البدء من اليمين إلى اليسار.. أم من اليسار إلى اليمين؟! من اليسار إلى اليمين!!

واليمين واليسار يحددتهما اتجاه الريح من ناحية، ووضع منصة الملوك من ناحية

أخرى!!

ووضع المنصة ذاته.. تلك التى يتوسطها ملك «كندة» العظيم.. الأشعث بن قيس،
ومن حوله ملوك «حضر موت» فى هذا الاحتفال المهيّب..

ووضع المنصة يتحكم فيه كذلك اتجاه الريح!

وهذا الفريق له خبراؤه.. والمتخصصون فى مجالاته.. وقد برعوا فى مرات كثيرة
سابقة وأداروا السباق فى اقتدار نادر!!

وفريق ثان مهمته بناء المنصة، وإعداد قبابها العاليات، تلك التى سيجلس عليها،
الملوك، وإعداد ملحقاتها التى سيجلس فيها الأتباع والفرسان المرافقين.

وفريق ثالث يقوم بدوره على إعداد دور الضيافة: دور إقامة الملوك، ودور تناول
الطعام.. وأماكن جلسات المنادمة، والسمر.. وأماكن الاجتماعات المحتمل قيامها بين
ملوك «حضر موت»!!

وفريق رابع يعد أماكن الإنقاذ السريع.. والإسعاف.. والعلاج الفوري من جراء
الإصابات التى تحدث فى هذا السباق.. وهو شئ متوقع.. وشائع الحوث..

وهذه الأماكن أشبه بمستشفيات ميدانية فى ساحات النضال.. والنزال!

وفريق خامس يعد أماكن الحراسة.. والمتابعة.. والرقابة.. وهى أشياء ضرورية
ولازمة لمثل هذا المهرجان الكبير، الذى أشبه بعيد سنوى من أعياد «كندة» العظيمة فى...
كل عام!!

وفريق سادس يعد أماكن تجمع الشعراء المرافقين للملوك من كل صوب وحذب..

وهم بلا شك مستوفزون.. وسوف تجيش عواطفهم.. وتهفوا أفئدتهم.. وتبعد
أفكارهم وتقرب، بعد الخيل فى مضاميرها أو قريبا.. وقد تنشط شياطين الشعر لديهم
فيتجادلون.. ويتحاورون.. وربما يتصاولون كما يتصاول الفرسان على صهوات الخيل
فى ساحة السباق!!

وفى كل هذا وذاك لم تنس الفرق أماكن المتفرجين من أبناء «كندة» وغيرها ممن
يحضرون هذا المهرجان العظيم.. سواء من جاء منهم ليرى الملوك فى لقاءهم الذى
لا يحدث إلا مرة كل عام.. أو من جاء ليرى الفرسان، والخيول.. والسباق.. ممن
تستهويهم الفروسية وإشاراتها.. والخيول وملامحها العربية الأصيلة.. وهى تغدو وتروح

فى خفة، ويسر، ورشاقة.. مما يكسبها ظرفا، وجمالا يستهوى عشاق الفروسية.. وكل العرب عشاق للفروسية!!

.. أو من جاء ليرى على هامش هذا المهرجان.. المهرجان الشعري، والذي لا يقل أهمية عن مهرجان الفروسية..

أو من جاء لا لهذا، ولا لذلك، وإنما ليزجى فراغا.. ويذهب ساما، ومللا من العام.. فينتهز الفرصة ليكسر حدة الملل، ويزيل سامة رتابة الحياة، ويودها!!

وهناك فريق آخر يعد الحظائر قريبا من أماكن الضيافة.. تلك الحظائر التي، ستجمع فيها النياق السمان، والأغنام الصحيحة الجيدة، والتي ستحضر الضيفان ..

★ ★ ★

«كندة» تشمر عن ساعد الجد ، وتقف على سوقها.. استعدادا وإعدادا لهذا المهرجان .. بل العيد السنوى الرائع، والذي إن دل على شيء فإن أقل ما يدل عليه هو رغد العيش .. ورفاهية الحياة فى هذه المنطقة من الأرض العربية.. ومدى ما تتميز به من قوة، ووفرة فى عَدَدِ الرجال، وعُدَدِهِم.. وكثرة الأموال.. مما يجعلها فى متعة، وكأنها بهذه القوى كلها فى حصن مكين!!

★ ★ ★

فى مثل هذا الوقت.. كان الأشعث بن قيس ملك «كندة» يجلس فى قبته ليتلقى التقارير عن مدى الإعداد، والتجهيز لهذا الاجتماع السنوى.. وتبدو عليه مخايل الأبهة.. وعلامات السعادة والسرور..

يجلس فى قبته كالطاس تيهها.. وخيلاء.. والدنيا من حوله تقف على قدميها لاستقبال ضيوفه من ملوك «حضر موت» والذين لا يتكرر التقاؤهم فى مكان واحد بهذه الكثافة إلا فى «كندة» وفى هذا الموسم من كل عام.. حتى غدا وكأنه عيد لا لكندة وحدها، ولكن لكل القبائل اليمنية فى «حضر موت» وغيرها..

★ ★ ★

وضربت قبة رائعة للأشعث بن قيس.. هى فى حقيقة أمرها مجموعة قباب عاليات زينت بالبليارق لكندة، ولغيرها من القبائل الأخرى المشاركة.

وجلس الأشعث فى قبته يتلقى التقارير من الفرق المنظمة.. والمشرقة على
المهرجان..

إلا أنه فى هذه المرة، وفى هذا العام بدا وكأن السباق ليس سباق «كندة» وكأن
العيد ليس عيدها.. ولا المهرجان مهرجانها.. بل وكأنه هو ليس ملك «كندة» على
الإطلاق!! كان جهما فى كثير من الأوقات.. كما كان سارحا بذهنه فى أوقات أخرى..
وفى كل الأوقات كان منصرفا عما جرى وعما يجرى، وكأن الأمر لا يعنيه فى قليل ولا
فى كثير حتى غدا هو نفسه تشغل خالصته.. وجلساته.. وأصدقائه من كبار
الشخصيات فى «كندة»!!

لا يعرف أحد بالضبط ماذا حدث له.. وماذا غيره هذا التغيير الكبير..

لقد بدا المقربون منه يشكون: هل يقيم الملك المهرجان، وهو على هذا الحال أم
يلغيه؟!

ولم يعد يهتم أحد من هؤلاء المقربين إلا بما كان يعتريه، وما يظهر واضحا عليه من
جهامة تزداد، وتبدو مظاهرها واضحة على قسماات وجهه.. ومن شروء تتضح سماته
فى عدم تركيزه فى وقت يحتاجون فيه إلى تركيز شديد..

اقترب منه كبير حراسه، وهمس فى أذنه.. ثم انصرف..

ومع انصرافه ظهرت على ملامح الأشعث مسحة من حزن، وألم شديدين..

لقد كان من عادته بعد أن تأصلت قواعد السباق.. واستقرت كسباق سنوى أن
يرسل إلى ملوك «حضر موت» رسلا، ويوجه إليهم دعوات لحضور هذا المهرجان، ومن
ثم يتوافد الملوك على «كندة» ومعهم أتباعهم، وأنصارهم يخطرون وسط الحراس
بملايسهم المميزة فى موكب عظيم!!

والقد تذكر الأشعث هذا العام زعيما لقومه.. ورائدا لهم.. وكبيرا فيهم.. عاش فى
«كندة» زمنا.. أكرمهم ملوكها فى جانب منه.. وأهانوه وقومه فى جانب آخر.. ثم رفضوا
جواره.. واضطروه وقومه للرحيل عنهم، فغادر «كندة» حزينا.. كاسفا باله.. قليل
الرجاء!!

لقد لجأ إليهم هذا الزعيم مع من بقى من قومه.. وعاش في جوارهم يتقوى بهم.. وهو يحفظ لهم الجميل: جميل صنعهم.. ووفاء عهدهم، ثم تنكروا له.. وغدروا به، واستردوا منه جواره، وأخرجوه وقومه لم تتدخل جراحهم بعد إثر معركة مع أعدائهم أخرجوهم بعدها مقهورين مغلوبين من ديارهم إلى «كندة» يعيشون في جوار ملوكها ولما لم يجد هذا الزعيم ملجأ له ولا لقومه.. ذهب إلى محمد في المدينة.. فأعزهم محمد بعد ذلك وأكرمهم بعد ضيق وقحط.. ويسر عليهم بعد عسر.. وأمنهم بعد خوف.. وأوفى لهم العهد والوعد.. وأعادهم إلى ديارهم.. ومكن لهم في الأرض.. وجعل محمد هذا الزعيم زعيما لا على دياره فحسب.. ولكن ضم إليه ديارا أخرى!!

لم يدرك الأشعث بن قيس شناعة ما ارتكبه، وأتباعه.. وملوك «كندة» كلهم مع هذا الزعيم إلا بعد قوات الأوان!!

الزعيم هو.. فروة بن مسيك المرادى.. لجأ إليهم طامعا في النخوة العربية عندما فرضت عليه هزيمة مؤلمة على يد الهمدانيين أن يتركوا الديار إلى «كندة» يعيشون في جوار ملوكها.. وما يكاد فروة وقومه يستقر بهم قرار حتى يتنكر له ولهم هؤلاء الملوك.. ويخلفون لهم الوعد.. ويفغرون في العهد لا لشيء ارتكبه هذا الزعيم وقومه في حق «كندة» أو ملك من ملوكها..

فقط هي النزوة القبلية من تقربها للأناس.. وإقصائها للأناس آخرين في بعض جوانبها الجاهلية!!

تذكر الملك هذا الزعيم، وهو يسمع أخباره بعد أن أعزه الله بالإسلام، وأكرمه وقومه.. ورد لهم اعتبارهم.. وأعاد عليهم كبرياءهم.. ومكن لهم في الأرض فصاروا قوة.. وأى قوة!!

تذكر الملك هذا الزعيم وهو يوجه إليه دعوة لحضور المهرجان معتقدا أنه بذلك يرأب الصدع.. ويزيل الجفاء.. ويلم الشمل العربي من جديد في هذه المنطقة.. واثقا أن دعوته ستلقى القبول إن لم يكن الإذعان بالطاعة.. والتسليم بالولاء!!

إلا أن المفاجأة.. مفاجأة رفض الدعوة.. وعدم قبولها من جانب فروة بين مسيك نزلت على الملك كالصاعقة.. وكادت تطير صوابه، وتفقده اتزانه.

وأكثر من هذا.. فإن فروة لم يعلن رفض الدعوة وعدم قبوله للحضور فحسب.. وإنما طالب الملك الأشعث بقبول.. والإذعان له كشرط لقبول هذه الدعوة.. وإلا فإنه لا يقبل أن يتعامل مع مشرك.. وربما هدده فروة بالقمع هو ومن معه وتسيير كتائب الإيمان إلى «كندة» تدمرها على رؤس أهلها.. ومنهم الملك إذا ظل يدنس هذه القبعة من الأرض بشركه!!

.. هذه المفاجأة أيقظت الملك على حقيقة لا تقبل الجدل.. ولا شك أيضا، وهي أن من تصويره معزولا لم يعد كذلك.. بل إن الأشعث هو الذى بدا معزولا!!

لقد أيقظ هذا الرد الأشعث بن قيس.. ولفت نظره.. وجعله يدور ببصره يمينا وشمالا ليرى موقعه.. فإذا هو يكتشف حقيقة تغافل عنها فترة طويلة من الزمن.. يكتشف أن الزمن يجرى من حوله كثيرا.. وأن الأرض من أمامه، ومن خلفه.. وعن يمينه، وعن شماله قد استدارت أكثر من دورة.. وأن معالمها تتغير فى كل دورة..

لم يعد الواقف واقفا.. ولا الجالس جالسا.. ولم يعد السائر سائرا.. ولا المقيم مقوما.. تغير كل شيء..

قبائل كانت ضعيفة.. صارت قوية.. وأخرى كانت قوية هزمت قوتها وشاخت.. قبائل كانت قد وصلت فى حياتها إلى طريق مسدود.. كافحت هذه القبائل حتى وجدت مخرجا.. فانطلقت فى طريق الحياة.. تبنى الحياة.. وتعيد صوغها من جديد!! وقبائل أخرى استغلق عليها الأمر وجمدت فلم تبرح موطن أقدامها، ووصلت بحياتها إلى طريق مسدود.. طريق الفناء والنهاية المحتومة!!

«أية منعة تلك أحاطت بك يا فروة حتى تقف هذا الموقف؟»

تلقت الملك الأشعث أكثر.. وأكثر.. ووجد أن اندهاشه واستغرابه لا محل لهما بالنسبة للأحداث التى تدور من حوله..

وعاوده تفكير الملك المجرد.. فوصل إلى اقتناع.. إن كان ثمة دهشة.. أو كان ثمة استغراب فيجب أن يكونا منه.. ومن قومه!!

إن الزمن يتحرك باستمرار.. ولا يتوقف لحظة من لحظاته.. فإن كان يتوقف فإنما

يتوقف عنده، وقومه فقط.. وهنا الغرابة الأساسية.. الدهشة الحقيقية.. ومن يوجه إليه
الاشعث بن قيس اللوم؟!

إنه يكون مغالطا كبيرا.. ومخادعا أكبر لنفسه لو وجه اللوم لغيره.
فلا دخل لغيره في هذا.. اللوم كل اللوم يقع عليه.. وعليه بالدرجة الأولى!!
لقد نبهه فروة.. وجعله يكتشف حركة الحياة.. ووقع الزمن.. وموقعه وقومه من هذه
الحركة!!

لكن.. يا ترى.. هل اكتشف أحد من قومه ما اكتشف؟ وما مدى ما وصل إليه في
هذا الكشف؟ وما الموقع الذي يضع ملكه الأشعث بن قيس فيه بعد ذلك؟
إن هذا ليس عدلا.. ليس على القوم أن يطيعوا ملوكهم فحسب.. لأنه إذا كان عليهم
حق الطاعة.. فإن على ملوكهم الريادة.. واكتشاف أسلم الطرق، والوصول بهؤلاء القوم
إلى سبل السلام!!

★ ★ ★

وقبل أن يسترسل الأشعث بن قيس مع أفكاره.. وهو يتمتم:
«إيه يا فروة!! إيه يا فروة!!»
اقترب منه حارسه الخاص، وأخلص خلصائه، وهمس في أذنه:
- على مشارف «كندة» بدأت طلائع الملوك تقترب منا يا سيدي،
فلعلم الأشعث عبا.. وهم واقفا في أبهة مصطنعة يغلّفها على غير عاداتها طابع
حزين:

- أهلا.. وسهلا.. ومرحبا بملوك «حضر موت» العظام.. وضيوف «كندة» الكرام..

ثم نادى:

- شمر..

فحضر على الفور رجل لم تستطع هيبة طلّعته، ولا رباطة جأشه أن يخفيا حيويته
الدافقة في لباس الفروسية الكامل.. إنه فارس فرسانه.. كبير قواده..

واقترِب من مليكه ..

– يم يأمر سيدي..

– أنت موكل مع فريقك باستقبال الملوك، واصطحبهم من مشارف «كندة» إلى هنا..

هيا يا بطل .. خذ فريقك.. واذهب خارج الديار، وعلى مشارف «كندة» فقد بدأت طلائع الملوك من ضيوف «كندة» يصلون..

كن أنت وفريقك في شرف استقبالهم.. وكن في صحبتهم حتى يصل ركبهم في سلام وأمان، مع ترحيب يليق «بكندة» وبهم.. يرافقك رجالك الأشاوس المغاوير!!

في أدب جم لم تستطع الصرامة أن تخفيه:

– أمر سيدي..

وانصرف «شمر» من فورهِ على رأس فرقته لتنفيذ الأمر.. فهذا يوم «كندة» العظيم، وهو يوم لا ينساه الزمن وإن طال!!

★ ★ ★

كان أول من وصل من ملوك «حضر موت» وائل بن حجر أروع ملوك «بنى وائلة».. ثم من بعده توالى وصول الملوك!!

وكانت الطبول تدق، وتصعد أصوات النفير بمعزوفات جميلة.. متميزة.. ذات أشكال.. وألوان.. وأنغام.. مع قدوم كل ملك!

وبعد أن يستقبل الأشعث ضيفه بما يليق به.. ويصحبهِ حتى ينزل في قبته المخصصة لإقامته.. وبعد أن يطمئن على سلامة الوصول، وأن المكان قد هُيئَ تماماً لراحة الضيف الكبير يستأذن في الانصراف حتى يكون في استقبال ملك آخر.

★ ★ ★

ثلة من ملوك «حضر موت».. حضر معهم جمع غفير مصاحب لكل ملك.. واكتمل مظهر المهرجان بحضور هؤلاء، وهؤلاء ..

بعض الملوك أوى إلى مخدعه فور الوصول.. والانتهاء من مراسم استقباله..
يستروح من وعناء السفر.. ويستريح من عنائه.

والبعض الآخر راق له أن يعقد مع الأشعث بن قيس اجتماعا عاجلا ليتدارس معه
بعض الأمور.. يجدها بالغة الأهمية، وتبدو أهميتها ملايين المرات من أهمية المهرجان..
لأنه لا ينعكس أثرها على «كندة» وحدها.. بل ممالك «حضر موت» كلها.. وعليها يتوقف
مستقبل هذه المنطقة.. بل على هذه الأمور تتوقف حياة الممالك أو يكون موتها!!

وكان أول من فعل ذلك هو أول ملك وصل إلى «كندة» يمثل بنى وائلة فى هذا
الاحتفال بالفروسية.. أو مهرجان الفروسية الكبير.. إنه وائل بن حجر.

ورغم أن هناك خلافا قديما بين وائل بن حجر وبعض ملوك «حضر موت» على ملكية
بعض الأراضي.. يدعيها كل منهم لقومه من أرض بنى وائلة..

ورغم حساسية هذا الموضوع حيث كان الأشعث بن قيس من المطالبين بهذه الأرض
لكندة إلا أن هذا لم يمنع وائلا من حضور المهرجان حيث كان يعتبره من جهة مهرجان
«حضر موت» كلها.. ولا يجب أن يثنيه أى خلاف، كبيرا كان أو صغيرا، بينه وبين أى
ملك حتى ولو كان الأشعث ذاته.. لا يجب أن يثنيه ذلك عن حضور هذا المهرجان!!

ومن جهة أخرى لقد اتخذ من هذا المهرجان ستارة يستر بها غرضه الحقيقى من
الحضور هذا العام.. لعله وملوك «حضر موت» أن يوفقوا فى اتخاذ القرار الصعب
والذى لا بد منه إن أرادوا البقاء ملوكا.. ولبلادهم وديارهم الحياة على هذه الأرض
بعد اطراد الأحداث الجسام فى المنطقة من حولهم فى كل مكان!!

ما كاد وائل بن حجر يصل إلى قبته، وقبل أن ينصرف الأشعث بن قيس حتى أبدى
رغبته فى عقد اجتماع عاجل معه.

وعلى الفور أجاب الأشعث:

- إننى ما أردت إلا التخفيف عنك يا أخى العظيم.. وأن تستريح يا ملك وائلة من
عناء سفر طويل تكلفته لتضفى علينا، وعلى «كندة» كلها شرفا كبيرا ما بعده شرف..
لكننا وهذه رغبتك، وهى فى الوقت ذاته رغبتنا الأكيدة سيشرفنا زيارتك فور الانتهاء من
مراسم استقبال إخوتنا الملوك القادمين اليوم دون أن نكلفك أكثر مما تكلفت، وأنت

تصل إلينا .. وإلى «كندة» مكرما لها!!

ونزل هذا القول بردا وسلاما على فؤاد وائل بن حجر.. وعزم على أن يفتح للأشعث قلبه.. ليفصح له عن دخليته وأبعاد ما يجده، ويحس به من أخطار تتهدد المنطقة كلها!!

★ ★ ★

وعندما اطمأن الأشعث بن قيس إلى أن ضيوف «كندة» من الملوك وأتباعهم أوا إلى مخادعهم في راحة، ودعة.. وأن الجميع لقوا حظهم من الرعاية.. وكرم الوفادة، وينعمون براحتهم في ظل الأمن والسلام، وأن العيون من «كندة» ساهرة في يقظة تحرس الجميع.. وتُهيئ لهم إقامة سعيدة..

عندما اطمأن إلى أنه أدنى واجبه.. انصرف إلى قبة وائل بن حجر الذي كان يبدو عليه القلق.. وعدم الاطمئنان.

وذهب الأشعث بفكره بعيدا. وكان على وفاق مع وائل تماما..

فلم يكن الخلاف على الأرض هو ما رغب وائلا في الاجتماع به..

ولم يكن هو الموضوع ذاته الذي جعل الأشعث بن قيس يلبي الدعوة سريعا..

إن كان وائل قلقا، ويبدو عليه الاضطراب.. فإن الأشعث بن قيس لم يكن قلقا فحسب ولا مضطربا فقط بل كان مفزعا، ولا يكاد يتماسك من هول ما تراوده نفسه من أفكار.. بل من هول ما يحيط به، وما يراه رأى العين في كل مكان.

قال الأشعث وهو في طريقه إلى قبة وائلة:

«بالقطع.. إن ما يشغل وائلة هو ما يشغلني.. وأعتقد أن ما يفكر فيه هو ما أفكر فيه أيضا..»

ويهبز رأسه متعجبا لا من توافق الخواطر، لو صح أن ما يفكر فيه وائلة هو ما يفكر فيه نفسه.. بل من توافق الحذب على المصلحة العليا لا لوائلة وحدها، ولا لكندة وحدها، ولكن لحضرموت ومن دونها.. أرض اليمن أجمعين.

★ ★ ★

ويبدأ وائل حديثه الصريح بون كلفة.. أو تكلف:

– يا أخى ملك كندة العظيم..

لعلنا قضينا زمنا على هذه الأرض لم يكن ما بيننا إلا نعم الإخوة.. وإلا نعم الجوار.. وإن اختلفنا فلقد كانت خلافاتنا تحل بطريقة أو بأخرى.. بلا فحش وبلا فجور فى القول أو الفعل، ومن ثم دام ما بيننا من إخاء، ومن صفاء غير مشوب بشائبة..

فهز الأشعث رأسه معجبا وموافقا:

– إنه لكذلك، وحق الإله.. ولسوف يكون على الدوام طالما بقيت «كندة» وبقيت «وائل».. وطالما بقى الأشعث، وبقي وائل!!

لكن يا أخى.. أليكون ما يحزبك هو هو ما يحزبنى؟!

فقال وائل بن حجر:

– أظنه كذلك.. ولسوف أفصح وأبين.. ولا أعتقد أنك ستخالفنى.. حيث الطبيعة عندنا واحدة.. وخطرات الفكر، وجيشان الشعور والعاطفة هما هما فى «كندة» أو «وائل» أو «حضر موت» كلها!!

ثم صمت لحظة متأملا.. وأردف:

– يا أشعث.. بحق الإله اصدقنى إن كان حديثى لغوا.. أو كان يستند إلى حقيقة.. ولى فيك ناصح شفيق!!

يا أشعث .. أرى الناس تتلملح هنا، وهناك.. والقبائل العربية الكبرى أخذت تتدفق على المدينة.. وتتدافع قاصدة محمدا لتبايع بالإسلام.. وأراها تذهب فقيرة فترجع غنية.. وضعيفة فتعود قوية.. ويأثس مهمل فتتوب، وقد كادت هاماتها تحاكى السماء!!

فقال الأشعث:

– ونحن واقفون كأننا تسمرنا فى أماكننا.. كأننا أوتاد دقت إلى أرض لا تنتزع من مكانها ولا تتزحزح!!

يدور الزمن.. وتتحرك الأرض من حولنا.. ونحن جنوع كجنوع النخيل... أو كأننا

شم الجبال.

تقول يا أخی: إن الناس تتملل.. وحق الإله لكأنی أرى فی عیون الناس فی كل لحظة.. وفي الصباح وفي المساء.. فی كل وقت وحين سؤالا واحدا لا یحیلون عنه: «وماذا بعد؟» حتی مللت النظر إلیهم.. إلی وجوههم.. کیلا أرى ملامحهم تنطق بهذا السؤال المتكرر.. والذي لیست له إلا إجابة واحدة، إذا أردنا الاحتفاظ بمواقفنا.. وشكلنا.. وهیئتنا ملوكا سلاسل ملوك!!

فقال وائل:

– لقد بدونا كجزيرة منعزلة..

هذه الأزد ذهبت وبایعت.. واكتمل لیدیها السؤدد، وهذه همدان.. ومن قبل مراد.. ومذحج.. وغيرها.. بایعت بالإسلام فحمت نفسها ومصالحتها وحافظت على موقعها وأمان طرقها.. فأراحت.. واستراحت!!

أحس بهم جميعا كأنهم خلقوا خلقا جديدا.. وقد خلفونا وراءهم حتی بدونا وكأننا أبناء قرون سحيقة.. لا أبناء عصرنا، وزماننا!!

فقال الأشعث:

– وهذا العرب الذي تخلفه لنا دائما خیل محمد عندما تظهر فی منطقة هنا أو منطقة هناك..

هذه خیل محمد تغزو، وتروح، وقد تخلت لها الساحة تماما، ولم تجد لها عدلا أو نظیرا!! تغزو وتروح من أمامنا.. ومن خلفنا.. وعن یمیننا.. وعن شمالنا.. منذ أيام كان جيش محمد یجوب المنطقة بقیادة رجل اسمه على بن أبی طالب.. قالوا عنه: إنه زاهد فی الدنيا.. لا یهتم بكثیرها، ولا حتی بقليلها.. وأجمعوا على أنه بطل حرب، وفارس كر.. وصنید من صناید العرب الذين لا یشق لهم غبار..

ومن قبله كان لمحمد جيش آخر یصول فی المنطقة ویجول بقیادة رجل قالوا عنه: إنه عبقرى من عباقرة الحرب لم یُهزم فی معركة قط.. قبل إسلامه، ولا بعد إسلامه.. تعرف الجزيرة والروم بأسه.. هو فی فم الدنيا.. وعلى جبینها ملء السمع.. وملء البصر..

إنه خالد بن الوليد!!

فتفكر قليلا وائل ثم قال:

- وغير هذا وذاك.. فجيوش محمد لا تعد، ولا تحصي.. وهي تخطر في كل اتجاه.. وتتواجد في كل مكان.

وإن خطر هذه الجيوش لا يكمن في مواجهتها.. إذ أن أخصر طريق للتخلص من الرعب.. رعب الخطر.. والخوف منه هو مواجهته..

ولكن خطر هذه الجيوش زيادة على ما نعرف يكمن في:

أولا: إعزاز القبائل التي بايعت بالإسلام.. وإغرائها بنا، وتحويلها إلى جيوش لمحمد تتناول علينا، ومن ثم يضيع كبريائنا، وتسقط هيبتنا!!

ثانيا: تشجيع الناس الذين يمثلون لحكنا، ويذعنون لإرادتنا، ويدينون لنا بالولاء، وبالطاعة.. تشجيع هؤلاء الناس من قومنا على التمرد علينا.. وشق عصا الطاعة.. ونبذ حكمنا.. والخروج من عهودنا ومواثيقنا.. إلى عهود ومواثيق محمد.. وساعتها لا يقلح شيء.. أي شيء!!

وما كنا نملكه كله يضيع منا أيضا كله..

ولعلك قلت الآن: إنك ترى في عيونهم سؤالا واحدا هو: « وماذا بعد » ثم تحس فيهم التملل.. وعدم الاستقرار.. وأقول لك: كلنا يعرف أن فيهم مسلمين.. ولو فتشنا عنهم.. ووجدناهم.. وأبدناهم فلن نستطيع استئصالهم أو القضاء عليهم.

ولو كنا نقدر على ذلك لكانت قريش قدرت من قبل عندما كان محمد بينهم وحده بلا سند أو نصير.. ولو حاولنا سنكون كمن يسبح ضد تيار جارف.. وتجربة المجرب ندامة!!

فقال الأشعث في حزن عميق:

- يا أخي الملك العظيم.. إن النذر من حولنا كثيرة..

واسوف أطلعك على سر هو ما جعلني متكدرا منذ مدة، ولا أستطيع تجاهله أو الإغضاء عنه.

إن إغراء القبائل بنا قد وقع بالفعل، وإذا كان حدث ذلك معي اليوم.. فلسوف يحدث في أماكن أخرى غدا.. وهذا واقع لا محالة..

ونكس رأسه برهة.. ثم رفعها وقال في تأثر بالغ:

- لعلك تذكر فروة بن مسيك المرادى.. زعيم مراد.. وكبيرها..

فقال وائل:

- ذلك الذي كان في جواركم.. وحفظتموه من أن تتخطفه صقور همدان.

- نعم.. نعم هو ذاك.

- وماذا عنه؟!

- لقد تركنا منذ تركنا.. وذهب إلى محمد.. وباع بالإسلام.. فأقامه من قبله على مراد، والأزد، ومنحج.

فقال وائل:

- وماذا يعد أيها الملك العظيم؟!

قال الأشعث في مرارة:

- أرسلت أدعوه كما دعوت الملوك مجاملا له لحضور المهرجان محاولا بهذه الدعوة نبذ الماضي، وفتح صفحة جديدة تتوحد فيها اتجاهاتنا ومواقفنا وتلتئم فيها إرادتنا في مواجهة الأخطار..

وكنت أعتقد أنه سيمتثل.. إلا أنه زاد على رفض الدعوة شرطا لقبولها وحضوره: أن أترك الشرك الذي هو على حد قوله دنس هذه الأرض. وإلا وجه إلى كتائب الإيمان.. كتيبة تلو كتيبة.. تقضى على الشرك في «كندة» وعلى المشركين..

ثم هز رأسه مردفا:

- «وماذا يعد»؟

فقال وائل:

- أيها الملك العظيم.. إن لك لرأيا هو مصباح هدايتنا، فهاته يوجهنا في ليل الشك،

والآلم والمرارة.. وينير طريقنا إذا استغلق علينا الطريق!!

فقال الأشعث بن قيس:

- لعلى وأنا منفعل على غير عادتي لا أحس بتصويب الرأي.. أو إجالته.. وطالما كنت أقول عنك.. إن لك أفقا متسعا.. هو أوسع من أفاقنا جميعا ملوك «حضر موت» فابسط رأيك لى يا ملك «وائل» العظيم.. ولسوف تجدنى معوانا.. وإننى لعلى يقين من أن ملوك «حضر موت» كلها سوف لا تتخلف عنه.

فقال وائل بن حجر فى صلابة.

- لا أكتمك يا أخى ملك «كندة» العظيم أنى قلبت الأمر على مختلف وجوهه.. وبت ليالى مسهدا أبحت عن حل.. فلم أجد سوى حل واحد تترتب عليه المحافظة على كبريائنا، ورعاية كرامتنا، والإبقاء على قبائلنا متماسكة قوية كما كانت دائما..

فقال الأشعث بن قيس فى حزم:

- هاته.. هاته إذن ولا عليك!!

فقال وائل بن حجر:

- نذهب إلى محمد ونبايع بالإسلام.. ونأخذ منه عهدنا.. ومواثيقنا.. وكتبنا.. نحفظ بها أرضنا، وديارنا وحرمتها.. ونصون بها دماءنا وأعراضنا.. ونمنع بها عدوان أحد أى علينا..

فتردد الأشعث بن قيس قليلا ثم قال:

- أوليس من حل آخر؟

- ولم لا لهذا الحل؟

- الناس؟

- عندى أم عندك.. أم فى «حضر موت» كلها؟

- عندى.. وعندك.. وفى «حضر موت» كلها!!

- يا أخى العظيم.. لن نحاول خذاع أنفسنا بعد الآن..

الناس حددت مصيرها منذ زمن طويل.. وعرفوا طريقهم منذ مدة.. وهم يمالئوننا ويداروننا.. بل ويسخرون منا.

يا أخى.. نحن الملوك.. ويعتقد الناس أن الملوك لا يخافون.. وإذا خفنا نحن فمن الشجاع الذى لا يخاف غيرنا؟!

ثم.. لِمَ لَمْ نخف من الناس من قبل ونحن نقسو عليهم.. ونحن فى تيهنا نجرجرهم، وراءنا كأنهم سوائم لا حول لهم ولا قوة؟!

نحن فقط ملوك «حضر موت» الذين لم نعرف لنا مصيرا.. ولم نفكر فيه من قبل ونحدده!!

نتلقى رضا الناس الظاهر فنقتنع له، ونخدع أنفسنا بسمعهم وطاعتهم!! ولقد قلت لتوك: إنك ملكت النظر فى وجوههم حتى لا ترى سؤالهم الثابت والملح.. بل والساحر أيضا: «وماذا بعد»؟

وأنا من قبل كرهت أن ألقى الناس.. وأنا أعرف حقيقتهم.. وحقيقة نظرتهم حتى لا أعطيهم الفرصة فى السخرية منى من خلال سمعهم الكاذب وطاعتهم المزيفة!!
وسرح ببصره بعض الوقت ثم قال:

- يا أخى ملك «كثدة» العظيم:

أود أن يتسع صدرك وأنا ألقى إليك حقيقة توصيفى لموقفنا وموقف الناس منا أمام هذا الزلزال الذى هز الجزيرة.. بل والدنيا كلها..

نحن فى الناس الآن أذئاب.. والناس هى القيادة.. كل شىء يوحى بذلك.. وإن بدت لنا القيادة فى الظاهر!! فلماذا لا تأخذ القرار الصعب.. ونحترم أنفسنا.. وعقولنا ونحترم مصيرنا ومصير الناس معنا.. ونبقى بذلك على دفة القيادة.. قيادة، الظاهر، والباطن معا؟

فقال الأشعث:

- ومن يدري.. ربما الناس.. بل قد يكون الناس على حق!

فقال وائل بن حجر:

- بل قل.. قد يكون محمد على حق.. وأعتقد أنه كذلك.. ولعل هذا الإجماع على اتباع طريق محمد يؤيدنى فى هذا.

فنظرا الأشعث إلى وائل بن حجر متسائلا:

- وهل تظل على رأيك لو عرض على ملوك «حضر موت» الموجودين عندنا الآن؟

فتبسم وائل.. وكانت ابتسامته دليل انفراج الموقف:

- بل إننى متمسك به.. وأرجو أن تتيج لى الفرصة فى اجتماع تُهيئُ سبيله للملوك لأعلنه عليهم.. بل وأحضهم عليه، وإن كنت أثق تمام الثقة أن أحداً لن يعارض، وقد وصلنا جميعا.. كلٌ فى دياره إلى هذا الاقتناع

يا أختى.. هذه قضية مصير.. وهى قضية حياة أو موت.. ومن نخشاه ونحن ملوك؟! فلمعت عينا الأشعث ببريق مريح.. مطمئن وهو يمد يده يشد بها على يد وائل بن حجر:

- وإن أخذك أبدا.. لا فيما ارتأيت من رأى أو فيما طلبته من تهينة الجو لاجتماع موسع يحضره ملوك «حضر موت»!

فشد وائل بن حجر على يد الأشعث بن قيس، وهو يتنفس الصعداء:

وكان الليل تأخر.. فاستأذن الأشعث بن قيس.. متمنيا للملك الضيف نوما هادئا.. وعينا وائل تتابع الأشعث وهو ينصرف تشع فيهما الراحة.. والاطمئنان.. وكأنهما تقولان: «بالفعل.. سيكون ولأول مرة منذ زمن.. نوما هادئا».

★ ★ ★

تسرب خبر اجتماع وائل بن حجر بالأشعث بن قيس فور وصول الأول إلى قصر إقامته..

وتسرب أيضا أهم الأفكار التى كانت موضع البحث فى هذا الاجتماع..

وانتشر هذا الخبر فى كل أحياء كندة انتشار النار فى الهشيم..

وسرى فى كل الأنحاء سريان البرق فى الليلة الظلماء..

وكان صداه سرورا طاغيا.. أشبه بالخرافة.. اجتاح كل شيء.. وسيطر على
النفوس.. والعقول.. والقلوب.. والطبيعة التي بدت صبيحة هذا اليوم في أجمل أثوابها..
وأبهى زينتها..

وعبر الكنديون عن سرورهم أول الأمر بالصمت.. ثم بالنشاط والحركة الزائدين.

★ ★ ★

وعلم الملك الأشعث بن قيس فعجب وسر.

وكان عجبه من كيفية معرفة الناس الأفكار التي دارت في الاجتماع.. وكيفية تسرب
هذا الخبر وسرعة انتشاره!!

أما لماذا سر؟ فللصدى الذي لقيه الخبر عند الناس.. ولقد كان يتمنى هذا
ويرجوه.. إذ فتح له مغاليق الأمور.. وقرب له أفاقا كانت تبدو بعيدة..

★ ★ ★

في يوم بداية السباق ذاع الخبر.. وشاع.. وصار على كل لسان.. في الحواضر
والبادى وتحول تعبير الناس الصامت عن السرور للنبا العظيم إلى صراخ.. وهتاف..
وغناء.. وتفجر من قلوبهم حب كبير.. احتضن كل شيء.. وأحاطت سماعتهم المرائى
من إنسان.. وحيوان.. وجماد.. واستخفتهم نشوة غريبة.. فبدوا في حركاتهم..
وتنقلاتهم كأنهم يطيرون في الهواء.. لا يسرون على الأرض..

وراع الملوك ما يرون.. وأتباعهم!!

إنهم يرون ألوانا جديدة من البشر في «كندة».

ماذا حدث؟

في المنظور المادى.. تبدو الغرابة فيما يعترى الناس.. وفيما ينعكس على حركاتهم..
وتصرفاتهم المادية..

أما في المنظور الفكرى.. والعقلى فإن ما يحدث من الناس لا غرابة فيه..

الناس على أبواب حياة مختلفة عن حياتهم الأولى.. يخلعون فيها عقيدة.. ليلبسوا

عقيدة جديدة.. وهم يدركون فى أعماقهم أن من يغير عقيدته «إنما يغير كونه كله.. ويستبدله بكون آخر.. وهو يغير ماضيه، وماضى أهله.. وحاضره، وحاضر أهله.. ويغير مصيره فى الدنيا.. مصيره بعد الموت.. كما يغير آراءه.. ومقاييسه فيما يأخذ، وفيما يدع من أمور الحياة وعلاقات الناس»^(١).

قلق الملوك وأتباعهم للظواهر الجديدة التى يلمسونها فى «كندة».

وزاد من قلق الملوك بشاشة الأشعث بن قيس المفرطة.. وملامح السرور البادية على وجهه.. والتى لم يختلف فيها عن ناسه.. وأهله فى «كندة»، تلك الابتسامة العريضة المشرقة التى كانت تملأ وجهه.. وكانت ملامحه من قبل جادة.. جامدة.. صارمة.. يبدو وجهه فيها وكأنه نحت من صخر.. أو كأنما قُد من حديد!!

★ ★ ★

وعلى غير العادة.. لم يعد السباق يحرك النشاط الجسدى.. والوجدانى فى الإنسان فحسب.. بل النشاط الفكرى.. والعقلى كذلك!!

كان الملوك يتابعون إجادة الفرسان فى جريهم.. وسباقاتهم الرائعة فى مختلف الأنشطة المحددة منها والحره..

كانوا يتابعون السباق بأعينهم.. أما عقولهم فكانت منصرفة إلى ما انصرف إليه فكر وعقل الأشعث بن قيس ووائل بن حجر.

وسيطر عليهم هذا الخاطر للمدى الذى جعلهم يتأخرون عن المتفرجين فى الإعجاب بالحركة الرائعة.. أو اللعبة الجيدة..

كان الناس يسيقونهم فى الإعجاب.. والتعبير عنه.. ويأتون بعد الناس تبعا!!

★ ★ ★

ويستغل المغرورون فى الكفر من حزب الشيطان الحدث.. ويحاولون الوقعة.. وإشغال نار الفتنة.. ويصورون لبكية الملوك اجتماع الأشعث بن قيس، ووائل بن حجر من وراء

(١) عبقرية عمر: عباس محمود العقاد.

ظهورهم على أنه لون من ألوان التآمر..

وأن السياق هذا العام ما قصد به إلا التغطية حتى يكسبها هذه المؤامرة صفة،
الشرعية، فيوهما الدنيا بأن هذا الخط الجديد إنما هو بمباركة من الملوك، وموافقتهم..

وبينما هما يكسبان.. يورطان في الوقت ذاته الملوك أمام شعوبهم!!

★ ★ ★

ويدافع الواقعيون من المعتدلين بأن مزاج شعب «كندة» يكاد يكون هو هو مزاج بقية
شعوب ممالك وقبائل «حضر موت».. فكلهم يمنيون.. بيئة، ومناخا.. وعرقا.. ونسبا..
وعادات.. وتقاليد.. وثقافة أيضا!!

وما يبديه شعب «كندة» لمجرد شائعة قد لا يكون لها أساس من الصحة.. هو هو
ما يستكن في ضمير وقلب بقية الشعوب.. والتي لو أعطيت فرصتها للتعبير.. بل..
وربما يكون عندهم أكثر في هذا المجال مما لدى شعب «كندة».. فقد لاقى بعضهم
أهوالا في هذا السبيل دون مبرر معقول، ولا مقبول.. ومع ذلك صمدوا حتى كتب لهم
النصر!!

★ ★ ★

وفريق ثالث يأخذ خط الوسط فيقترح عقد اجتماع موسع بين كل الملوك.. ليكون
محور النقاش فيه هو هذا الحدث، وما طرحت فيه من أفكار.. ولا يهم أن يكون هناك
اتفاق تام.. أو اختلاف تام.. فالاتفاق التام الكامل ليس إلا في مجتمع الملائكة..

ونحن بشر.. المهم أن يخرج الملوك موحدين.. محافظين على وحدة شعوب
«حضر موت».. وجلال وهيبة الملوك، وألا يتركوا اللدس أو الوقعية فرصة للتفرق..
والتمزق.. سواء كانت مواقفهم تجاه الحدث بالسلب.. أم بالإيجاب!!

فاليمن عندما كان موحدا بنى حضارة رائدة للحضارات في القديم.. وعندما يتفرق
تتألب عليه قوى الشر من كل صوب.. وحذب.. وتمزقه تمزيقا..

وكم عانى اليمن من هذا التمزق الذي ما أكسبه إلا ضعفا.. وما أفاد خصومه
وغزاته إلا قوة فسيطروا عليه.. وسحقوه!!

★ ★ ★

وتنتصر الحكمة اليمانية.. تلك الحكمة التى صقلتها التجارب.. وتوالى السنين والأجيال ومر الدهور والعصور الطوال..

وتنتهى أيام السباق.. أو المهرجان العظيم.. وتظهر نتائجها..

فتخبوا أسماء كان لها فى فترات طويلة الفوز والسبق والغلب، وتلمع أسماء كانت مجهولة.. مهملة.. لا يدري أحد عنها شيئاً.. فتتفوق.. وتبرز.. وتنتصر وتسجل روعة فروسية.. وفنون مهارة.. وابتكار أنماط من اللعب والنشاط!!

ينتهى السباق..

ويدخل الملوك سباقا كانوا يعونه جيدا.. وكانوا يعرفون قبل غيرهم خطورة ما يترتب عليه.

يدخل الملوك سباقا.. يدركون أنه قد فرض عليهم فرضا.. فرضته طبيعة الحياة الجديدة.. والتى هى فى أوضح أشكالها كالسباق الذى شاهدوه لتوهم.

وقد بدت ملامح هذه الحياة الجديدة فى خطوطها الواضحة.. والتى أخذت معالمها تتضح، وتأخذ أشكالاً، وأنماطاً، وأبعاداً لا عهد لهم بها.. ولا قبل لهم بمثلها.. هم فى سباق هذا العام رأوا أنجما تأفل.. وكواكب تبرز..

والحياة الجديدة.. كالسباق تماما.. يبرز فيها أمم لتبقى.. وتعيش..

وتخبو فيها أمم.. ثم ينتهى أمرها وكأنها لم تكن فى يوم من الأيام!!

وعليهم.. وشعوبهم.. إما أن يكونوا فى هذا المعترك كواكب تلمع.. وأقمارا تبرز وتعيش فى سماء الكون الجديد.. أو أن يكونوا نجوما تأفل.. وتلاشى.. وتنتهى غير مأسوف عليها!!

عليهم أن يعوا هذه الحقيقة.. وأن يفهموا كذلك أن الدنيا باقية.. وإن تنتهى بانتهاه أحد.. ولو كان هذا الأحد ملوك «حضر موت» وشعوبها..

بل إن نهايتهم ستكون فتحا جديدا لمن يستحقون العيش.. ويستحقون الحياة!!



فى الاجتماع المهيّب طرحت فكرة واحدة.. صريحة.. وجريئة:
نتحرك.. ونتوج حياتنا فى قومنا بالذهاب إلى محمد فى المدينة، ونبايع بالإسلام
فنريح.. ونستريح!؟

أم نجعد حيث نحن مهدين فى كل لحظة.. ونخسر كل يوم دون أن نكسب شيئاً فى
أى يوم!؟

لم يكن ما طرح على الملوك فى اجتماعهم المهيّب فكرة.. بل كان خياراً!!
ولقد كانوا فعلاً ملوكاً.. إذ كانوا على مستوى المسئولية.. كانوا على مستوى الحدث
رزانة.. ونضجا.. وفتحا.. وإدراكا لكل الأبعاد.. وبُعد نظر لكل الاحتمالات والحياة
الجديدة فى المجتمع الجديد.. سواء من عارض.. أو من أيد.. أو من وقف بين بين!!
ثم كانت الكلمة الأخيرة لوائل بن حجر.. ملك «وائل» الذى فضل الجميع الاستماع
إليه.. وإلى رأيه الأخير..

فقال وائل بن حجر: بعد أن حيا الملوك بما يليق بهم، وحيا ملك «كندة» العظيم..
الأشعث بن قيس:

– يا ملوك «حضر موت».. ويا عقولها المبدعة.. وأفئدتها النابضة بالحس والحياة..
إن قلتم جميعاً نعم.. وذهبتُم إلى محمد.. فلن يقدر أحد على أن يتهمكم بالعجز.. أو
الجبين أو الخوف.. فأنتم ملوك الزمن.. بأساً.. وعزماً.. ومضاء وقوة!!

وهذه السنة العاشرة بعد الهجرة.. هجرة محمد إلى المدينة.. ولم يظلمكم محمد.. أو
تظلموه مع أن جيوشه تنطلق من حولكم شرقاً، وغرباً.. وتقطع الأرض طولاً من الشمال
إلى الجنوب.. تحرشت هذه الجيوش بغيركم.. من الذين أدوا محمداً وأصحابه
والمسلمين.. ولم تتحرش بكم لأنكم لم تؤنوه، ولم تؤنوا أصحابه.. ولم تؤنوا المسلمين..
ولم تدخلوا فى حرب مع محمد أو يكون بينه وبينكم قتال!!

أكرر القول بناء على هذا بأن أحد لن يستطيع أن يتهمكم بالخوف من محمد أو

العجز دونه أو الجبن أمامه..

فإن ذهبتم إليه فلن يكون ذلك من موقف ضعيف.. أو هوان.. بل سيكون من منطق العقل.. والوعى.. والفهم.. والإدراك.. والنظر البعيد.. وهو ما أريده أن يكون.

وما.. أريده أيضا هو أن نجيل الفكر.. ونقيس الأشياء ببعضها.. ثم نرتبها على بعضها.. وإذا لم يكن أماننا إلا أن نرى المسألة من منظور الكسب والخسارة فلنفعل.. ولا أشك في أن أحدا منا يريد الخسارة لنفسه أو لقومه.. كلنا يريد الكسب.. والعيش في رخاء وسلام..

ولسوف أذكركم بحادثة مضى عليها سنتان بالتقريب.. وقفنا كلنا عاجزين وتركنا لأصحابها تقدير الموقف بما يبعد الخسارة.. ويحقق الكسب.. ولم يعترض أحد منا على ذلك.

منذ عامين جاءت خيل محمد بقيادة رجل يدعى قيس بن سعد بن عباد.. جاء يقود أربعمائة رجل من الرجال الأشداء الذين باعوا أنفسهم من أجل عقيدتهم.. وحياتهم.. ومجتمعهم الجديد وقصدوا «صداء» في الجوار.. وكلنا كان يعرف سلوك صداء مع من أسلموا.. وكلنا كان يعرف أيضا أن صداء لا تستطيع مواجهة هذا الجيش شهرا.. أو أسبوعا.. أو يوما واحدا..

وكلنا وضعنا أيدينا على قلوبنا، وحبسنا الأنفاس.. لم نقدم «لصداء» شيئا.. إلا أننا تركنا لمن يُقدَّر من أهلها الموقف أن يحسن الخروج منه بما يحقق «لصداء» كسبا.. ويبعد عنها خسارة!!

كلنا رغم أبهتنا وقفنا عاجزين.. لأننا لم نستطع تقدير الموقف.. وتركنا تقدير الموقف للزعيم من زعماء «صداء».

وعندما قام أحد زعمائها بمبادرة كريمة وفر فيها الدماء.. والأموال.. وحمى بها الأعراض.. عندما ذهب هذا الزعيم إلى المدينة، واتصل بمحمد.. وأعتق نفسه.. وأعتق قومه بدخول الإسلام.. وبإيعاع عن نفسه وعن قومه.. حمدنا له جميعا ما فعل.. وقلنا: كسب والله.. وأثرنا جميعا الحكمة اليمنية.

وها هي ذى سلامان.. وغامد.. والأزد.. وزبيد.. وخولان.. وخشم.. وخثعم..

ومراد.. ومذبح.. كلها قد بايعت بالإسلام.. وقد حمدنا لهم جميعا ذلك!!
أفنحمده لغيرنا من أهلنا، وأبناء عمومتنا.. ثم نجده لنا؟
ولو قسنا الأمور بمقياس الكسب والخسارة فسنجد أن هذه القبائل كلها لم تخسر
شيئا بل كسبت كل شيء!!
ونحن .. ماذا لو طبقنا هذا المقياس في تعاملنا وقلنا: ماذا سنكسب وماذا سنخسر
لو ذهبنا إلى محمد وبايعنا بالإسلام؟
الحقيقة أننا لن نخسر شيئا على الإطلاق.. بل إننا سنكسب كل شيء..
سنكسب قومنا مؤحدين غير مُفرقين.. وسنكسب مواقفنا بينهم.. وسنكسب الحفاظ
على أرضنا.. ومواردنا.. وسلامة طرق تجارتنا.. وأسواقنا!!
يا إخوتي ملوك الزمان:
لقد تخلف زعماء لقصر نظرهم عن تبين الحقيقة، وإدراك الواقع.. وانقسمت قبائل
على نفسها فأيد فريق.. وعارض فريق.. وتفككت الروابط.. وتقطعت العرى بين
الأصحاب، والأهل والأحباب.. وسالت دماء المعارضين على سيوف المؤيدين..
فهل تنتظرون حتى تتفرق جموعنا.. وتقل قوتنا.. وتنقسم عرى الوحدة بين شعوبنا..
ويعمل بعضنا السيوف في رقاب بعض؟
هل ما يزال أحد يعتقد في أصنامنا؟
والله إنى لأشهد أنها صماء.. بكماء.. عمياء.. لا تنفع ولا تضر..
ولنر ماذا فعلت؟
في جرش.. ماذا فعل إلهها.. «ذا الخلصة» الذي كانت تعبد ختم عندما أوت إلى
جرش وحطمه محمد أمام الأشهاد؟ لا شيء..
ومن قبل عندما هدم المغيرة بن شعبة.. «اللات» في ثقيف؟ ماذا فعلت؟ لا شيء..
وفي بني تميم.. وبني سعد.. عندما هدمت أصنامها وكانوا يعتقدون أنها تُعْمى وتصيب
بالبرص.. والجنون.. ماذا فعلت؟ لا شيء..

ومن قبل عندما حطم محمد هذه الأصنام، وأزالها من حول الكعبة، وكانت قريش تعتقد فيها، وتعبدوها.. ماذا فعلت؟! لاشيء..

الآن حصحص الحق.. ووضح الزيف.. وزهق الباطل..

يا قومنا.. أجيئوا داعى الله.. ومدوا أيديكم.. أيدى السلام والمحبة.. والعقل والحكمة مدوا هذه الأيدي إلى الرحمة.. وادعوا معى الإله الواحد أن ينير لنا طريقنا.. ولنكن رواد صدق وخير لشعوبنا!!

فقاطعه الأشعث بن قيس:

- والله يا وائل بن حجر.. لكأنى أسمع هذا النداء تجلجل أصدائه فى سويداء قلبى.. وإنى وأيم الحق للبيه..

ونهض ربيعة بن ذى المرحب من مكانه وقال بأعلى صوته، وقد عقد يديه فوق رأسه:
- وأنا معكما، وإن أتخلف عن النداء.. والله يا وائل بن حجر.. ما لبيت مستجيبا لحساب الكسب أو الخسارة.. ما لبيت إلا قريانا لمن يملك ناصية الخلق بيده..

وعسانا أن نكون من المقبولين..

وتوالى الصيحات من كل الجنبات.. هى فى جملتها تعبير عن الاستجابة.

فوقف الأشعث بن قيس وقال:

- يا ملوك «حضر موت» العظام.. وملوك الزمان..

ستسجل لكم الدنيا هذا الحدث.. ولن ينساكم التاريخ أبدا.. ومارأيتم من سعادة شعبى.. وسرور قومى تفويض لى بأن أذهب.. وأبائع عن «كندة» كلها.. فمن كان لديه تفويض من شعبه.. وقومه.. فلينضم إلى جمعنا.. فإننى عازم منذ اللحظة على تكوين وفد يذهب إلى المدينة.. وفى الوقت متسع لدى الجميع.. فمن يرد أن يطلع قومه أولا.. فهو وما يريد.. ودعائنا له بالتوفيق.

★ ★ ★

ثمانون رجلا تكون منهم الوفد.. على رأسهم الأشعث بن قيس.. ووائل بن حجر..

ومعهما ملوك آخرون..

وفد عظيم.. يمثل شعبا عظيما.. استنقذ نفسه.. ومستقبله.. ومستقبل أجياله حتى يرث الله الأرض ومن عليها!!

وفد عظيم استمد عظمته لأول مرة.. لا من جبروته وطغيانه.. وقوته المادية على الأرض ولكن من كلمة «لا إله إلا الله.. محمد رسول الله» كلمة قال عنها رسول الرحمة، ونبي البر والإحسان ﷺ :

«أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي.. لا إله إلا الله..»

هى ميزان العدل.. ومفتاح الحق.. وصولجان الملك.. وغاية ما تصبو إليه نفس المؤمن من صدق.. وطهر.. وغنى لا يعادله غنى.. وثراء لا يساويه ثراء.. وهى الحرية والأمل.. كل الحرية.. وكل الأمل لمن حرمة الدنيا من الحرية.. وأقعدته عن بلوغ الأمل.. لكن لا تزال فى الوفد مسحة جاهلية..

فقد تكلموا.. وتزينوا.. وحلوا ملابسهم بالحريز.. والديباج..

ربما لأنهم تصوروا الرسول على غير صورته.. وتوهموه على غير هيئته.. وكما اعتادوا مع بعضهم البعض من مظاهر الملك وأبهته.. أخذوا زينتهم التى فى زعمهم تليق بهم فى حضرة رسول الله الكريم..

لكن.. لا يهم..

كل هذا سيتغير.. وسوف تصحح المفاهيم قريبا.. وسيعودون بعد البيعة الكاملة إلى بلادهم خلقا جديدا بأمر الله..

★ ★ ★

انطلق الوفد..

وأخذت الأرض زخرفها.. وازينت..

لمرتكب الخيل وهى تنطلق بهم ريحا.. تسابق الريح..

لم تكبُ الخيل من حصى الجبال وحجارتها..

ولم تغص أسوقها فى لين رمال الصحراء

كانت وهى على الأرض مفروشة بالرمال.. كأنها على بساط ذهبى يسبى النواظر..
كانت كأنها على وسادة من الهواء.. تطوى اتساع الصحراء الشاسع بالوفد الذى
تساوى فيه الجميع.. فما عاد بينهم ملك، ولا خفير.. الكل يتجهون إلى ضيافة الرحمن..
على قدم واحدة من المساواة، والإخاء..

وكلما ضربوا فى أعماق الصحراء لا تجد لهفة أحدهم إلا شوقا للقاء الرسول..
وكان سباقا جميلا.. رائعا.. ذا لون ومذاق متميزين.. كان سباقا حلوا.. جليلا..
إنه سباق الإيمان!!

وما كان يشغل أى واحد منهم كلما بعد عن الديار، واقتربوا من المدينة إلا متى
يصلون إلى المدينة.. ويرون محمدا؟

.. نعم.. سيتغير كل شيء.. كل شيء!!

★ ★ ★

تستنير المدينة على نورها.. تستنير مهد البر والرحمة.. تستنير ملتقى المؤمنين
وتتطهر بمسك التقوى والصلاح وهى تستقبل الوفد الكبير.. ويسبح نبي الرحمة، بحمد
ربه.. ويستغفره فى جلال وخشوع أن هدى الله أمتة، ووفقها لنوره وهدا..
﴿إذا جاء نصر الله والفتح * ورايت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح
بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ «سورة النصر».

يسبح الرسول بحمد ربه.. ويستغفره.. ويفرح بتحقيق وعد الله ونصره..

﴿ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينجى الله من يشاء﴾ (الروم: ٥٠٤)

ويُسَرُّ الرسول الكريم، وهو يستقبل هذا الوفد الكبير.. وقد بلغ سرور النبي ﷺ
بمقدم وائل بن حجر أحد ملوك «حضر موت» على رأس وفد «بنى وائلة» فى هذا الجمع
الغفير أن نادى بالصلاة العامة ابتهاجا بوصوله (١)

★ ★ ★

دخلوا على الرسول فى مسجده.. فهالهم ما رأوا من سماعة فى غير تفريط..

(١) نشأة الدولة الإسلامية

وبساطة تغلفها الهيبة والوقار.. وحب يسع الدنيا كلها لو وزع عليها.. وحنان في رحمة يحملان كل شيء.. ويحتويان أى شيء..

وتجاذب الرسول الكريم معهم أطراف الحديث.. قال:

– ألم تسلموا؟!

قالوا:

– بلى يا رسول الله.. أسلمنا..

قال:

– فما بال هذا الحرير فى أعناقكم!!

وينصهرون فى بوتقة الإيمان.. ويتحولون إلى مثل للتواضع.. وتمسهم الرحمة فيصирون خلقا جديدا.. بلا جاهلية.. ولا شيء من مسحتها.. يحتويهم الإيمان فيطبعهم بطابعه الذى يتساوى بسببه الناس.. كل الناس أمام الله ولا يتمايزون عنده إلا بتقواهم.. ويعملهم الصالح.. «لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح».

وينزع الإيمان ما عليهم من زخرف.. من زينة هى لباس وتفاخر.. ودليل تكاثر ليست للمؤمنين..

ويقومون فينزعون الرياش، والزينة من ملابسهم، ويشقونها منها..

واقترب الأشعث بن قيس من الرسول ﷺ وحببته بساطته.. وأعجبت منه سماحته فأراد أن يغترف من حديثه، ويسمع من صوته قدر ما يستطيع.. اقترب من رسول الله ﷺ وقال:

– نحن بنو أكل المرار، وأنت يا رسول الله ابن أكل المرار..

يسعد الأشعث بن قيس بأن يقول للرسول ﷺ إن بيننا وبينك صهرا ونسبا..

فالتاريخ يذكر أن من جدات رسول الله صلى الله عليه وسلم من هى من ذلك القبيل (بنى كندة) منهن: دعد بنت سرير بن ثعلبة بن حارث الكندى.. وهى فى بعض الروايات أم كلاب بن مرة.. وقيل بل هى جدة كلاب أم أمه هند.

والأشعث بن قيس من ولد أكل المزار من قبل النساء..

وهي قصة يطول شرحها في هذا الحيز الضيق..

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:

– ناسبوا بهذا النسب العباسي بن عبد المطلب.. وربيعه بن الحارث.. فكانا إذا ذهبا بتجارتهما في بعض بلاد العرب فسُئلا من هما؟ قالا: نحن بنو أكل المزار.. ينتسبان بذلك إلى ملوك «كندة» كلون من ألوان التقوية والتعزيز.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأشعث ومن معه:

– لا.. بل نحن بنو النضر بن كنانة.. نقفو أمنا.. ولا ننتقى من أبينا

يريد ﷺ أنهم لا ينتسبون إلى أمهاتهم وإنما إلى آبائهم.

فقال الأشعث بن قيس لمن معه من قومه:

– هل فرغتم يامعشر كندة.. والله لا أسمع رجلا يقولها إلا ضربته ثمانين.

ومن طرائف اللحظة أن يثار موضوع الخلاف على الأرض المتنازع عليها بين «كندة» و «وائل» ويعرضون الأمر على رسول الله ﷺ يحكمونه فيما بينهم..

لا بأس.. فهذا هو المطلوب.. وهولون من ألوان التغيير، والاندماج يحكم الرسول لوائلة.. يمثل الجميع لحكم رسول الله ﷺ ويحسم الخلاف الذي طال أمدا ليس بالقصير.. فما أحلاك.. وما أبهاك يا رسول الله:

«من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله.. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه..»

واقصد صمم هؤلاء الملوك العظام وأتباعهم ومن ورائهم شعوبهم على أن تكون هجرتهم لله ورسوله.

وعادوا إلى ديارهم «نورهم يسعى بين أيديهم وعن أيمانهم، وعن شمالهم»

★ ★ ★

والزمان يدور!!

وفد الأزد

قال صُرْدُ بن عبد الله الأزدى لرفاقه الثلاثة فى اجتماعه بهم، وليس فى ذهن أى منهم إلا شىء واحد، وهو أن يعدوا العدة، ويجهزوا للإغارة على «خثعم» تلك القبيلة التى كان لها على «الأزد» أيام مرة.. أغارت فيها عليها، وأوجعتها بهزائم ثقيلة متلاحقة، وقتلت الكثير من رجالها، ونهبت، وسلبت مالها.. وسأقت نساءها سبايا.. واستباححت أرضها، وديارها.. وقطعت عليها طرق اتصالها.. وتجارتها وجعلتها بورا.. أو قاعا صافصفا!!

وكلما حاولت «الأزد» الثأر والانتقام.. وغسل العار.. والتشفى لموتها بغارة عنيفة.. تتبعتها هزيمة ساحقة «لخثعم» تجد نفسها أعجز عن فعل شىء.. أى شىء..

وكان شبح هذه القبيلة المتوحشة يطارد هؤلاء الأربعة، وهم كبار القوم فى الأزد، والمسئولون عن حماية الأرض، والعرض.. والانتقام للشرف، والكرامة المهذرة.. وألم الهزائم المتلاحقة من الخثعميين لا يرحمهم فى ليل أو نهار..

يحسون به فى عيون الشباب المنهار.. والشيوخ اليائسين.. والأطفال المشردين.. بل وفى عيون النساء التى لا ترحم فى كل وقت، وكل حين..

قال صُرْدُ بن عبد الله الأزدى:

— منذ أن عاد محمد بن عبد الله من تبوك، والدنيا ساكنة، لا حس لها ولا حركة فيها..

وناهيك عن «خثعم» كلما فكرنا فى الإغارة على قبيلة أو حتى عشيرة تصدمنا حقيقة مرة، وهى أن هذه القبيلة.. أو العشيرة صارت محمية محمية.. إذ ذهب وفدها إلى المدينة يبايع عن نفسه، وعن قومه بالإسلام.. ويعود الوفد، وهو يحمل من محمد كتابا يحدد فيه أرضهم، ومياهم، ومزارعهم، ويجعل كل مالهم حلالا لهم ومحرمًا على غيرهم..

يعود الوفد بكتاب يؤكد تحالف القوم مع محمد.. فتصير القبيلة أو العشيرة قوية بإسلامها.. وبالتزام محمد بالدفاع عنها، والوقوف بجانبها.. بل ومطاردة من يحاول الاعتداء عليها..

فقال خالد بن ضمادة الأزدي:

- وما تزال الدنيا تذكر السبب الذي أدى إلى فتح مكة.. وإلى هزيمة قريش وعنتها نفسها في النهاية يا عتاق الإسلام بعد صراع مرير دام سنوات طويلة قادت العرب فيها ضد محمد.. عنتها نفسها باعتناق الإسلام..

ما تزال الدنيا تذكر السبب، وهو يتمثل أول ما يتمثل في التزام محمد بالدفاع عن حلفائه، والثار لهم ممن اعتدى أو يحاول الاعتداء عليهم..

وقد جعله هذا الالتزام يهب لنجدة خزاعة التي انحازت إلى محمد بعد صلح الحديبية.. وقد اعتدى عليها فريق ممن انحاز إلى قريش.. فكان على قريش أن تدفع الثمن.. وكان الثمن فتح مكة، وإخراج قريش نهائيا، وإلى الأبد من دائرة الصراع مع محمد.. ثم المحافظة على بقائها باعتناقها الإسلام.

فقال أبو ظبيان عمير بن الحارث الأزدي:

- ومحمد اليوم غير محمد يوم فتح مكة.. لقد ازدادت قوته.. واتسع نطاق عمل هذه القوة!!

محمد اليوم له اليد الطولى.. والباع الأرحب.. ولم يعد تأثيره في حدود الجزيرة.. وإنما امتد إلى حدود الشام مع الروم..

وعندما ذهب إلى تبوك لم يكن يقصد المناوئين له من العرب في هذه المنطقة بقدر ما كان يقصد الروم.. ذهب يتحدى الروم في عقر دارهم.. فهل يعز عليه أن ينزل من يفكر في منازلته من أهل الجزيرة.. أو يحاول الاعتداء على قبيلة أو عشيرة بايعت بالإسلام، وصارت بإسلامها حليفة لمحمد بل محمية محمدية؟!

فقال جنادة بن مالك الأزدي:

- وهذه جيوشه تجوب المنطقة.. منطقتنا.. شرقا وغربا.. وشمالا وجنوبا.. وما تزال

أحداث «صداء» وما جرى لها، وما اتخذته من وسائل لحماية نفسها، والإبقاء على حياتها.. بعد أن عجز ملوك «حضر موت» عن تقديم أى عون لها، وذلك قبل أن يبايعوا بالإسلام!!

ولم يكن أمامها بعد أن ضاقت كل السبل في وجهها لإنقاذ نفسها من عداوتها لحمد.. وإساعتها للمسلمين حولها، وإطباق أحد جيوش محمد عليها من كل جانب للقصاص منها.. لم يكن أمامها إلا إعتاق نفسها بالإسلام.

أحس الأربعة من زعماء «الأزد» في الهدوء الذي عم الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ما عدا بعض جيوب هنا أو جيوب هناك.. أحسوا في هذا الهدوء الذي وصل شمالا إلى الشام.. وشرقا إلى العراق والبحرين.. وجنوبا إلى اليمن.. وسيطر على المنطقة التي يعيشون فيها طوقا يلتف حول رقابهم.. يغلهم، ويشل حركتهم، وهم ما ألفوا هذا الهدوء ولا هذه السكينة أو الاستقرار.. ما ألفوا إلا حياة الإغارة والنهب والقتل والبغضاء والشحناء!! وأرانبوا أن يكسروا هذا الطوق بإغارة على قبيلة.. لكنهم وقد باتوا يخشون محمدا، صار هو شاغلهم الأول والأخير.. وغدا التفكير فيه جزءا من حياتهم اليومية.

فكما ياكلون.. وكما يشربون. هم كذلك يفكرون في محمد.. ويتابعون أخباره، وتحركاته في القرب أو في البعد.. وتحركات جيوشه التي باتت الجزيرة كلها ميدانها ومضمار سباقاتها!!

وقال صرد بن عبد الله:

– لم يبق يا رفاق إلا «خثعم» فهي لم ترتبط بعد بمحمد.. ولعلها بعد تغير خارطة الأحلاف، والتحالفات أن تكون تقطعت الروابط بينها وبين أحلافها القدامى بعد أن أسلموا..

هي إذن وحدها الآن..

فقال خالد بن ضمادة:

– إن واجهتنا الآن ستواجهنا وحدها، ونحن قادرون عليها في هذه المنازلة.

فقال جنادة بن مالك:

– وإذا هزمتها فزنا بما نطلب.. وفزنا بالثأر لما كان لها من أيام سابقة علينا.

فقال أبو ظبيان عمير بن الحارث:

– كم لها من أيام علينا!! لن ننسى هذا ما حيينا.. لذا فلا بد من سحقها، وهزيمتها
هزيمة لا تقوم لها بعد قائمة.. وتحقيق أعظم نصر لنا.. يداوى جراح السنين، ويغسل
عار الزمن، وتتغنى به أجيال الأزدي جيلا إثر جيل..

واتخذوا قرارهم.. وحددوا للإغارة زمنا.. وضربوا للهجوم على «خثعم» موعدا..
وربما فضلوا أن يكون عملهم عقب ليلة مقمرة... ليلة يكون القمر فيها بدرا!!

* * *

.. والقمر في البادية له سحره، وتأثيره على الناس في حياتهم البسيطة.. ففي
ضوئه يلهو الصبية، ويمعشون، ويلعبون، ويمرحون، ويمتد لهوهم ومرحهم حتى الهزيع
الأخير من الليل.. وشيء من الأمان يخالطهم فلا يقلقون.. أو يتحفظون، أو يحذرون.

والقمر في البادية مجتلى الذكريات.. ومثار الحنين والأشواق، وتلمس الوصول
للحبيب هناك خلف الوادي، بعيدا عن الرقباء، والعيون، فهو يوقظ الناس معظم الليل..
ثم عندما يأتون إلى مضاجعهم يغطون في نوم عميق.. كأنه سبات مستأنسين بالضوء
حولهم ينتشر في كل مكان!!

وعندما تخفت حركة القوم، ويقل نشاطهم.. وعندما ينامون يغير الأربعة بفرسانهم..
ويعملون عملهم..

وإثقة صرد في النصر ورفاقه من كبراء الأزدي وفي نجاح هذه الغزوة، قدروا أنها
تمت، وقد أخذوا القوم على غرة. فقتلوا منهم من قتلوا، واستسلم الشيوخ والنساء
للكارثة مولولين.. هاتفين: البقية.. البقية.. ولا بقية إلا السيف.. وبقيت القبيلة مرتعا
مستباحا.. وغنموا المال، والذهب، والجمال، والأغنام.. وعادوا.. وما بقى إلا أن يقابلهم
قومهم في الأزدي، بكاليل الفار يجللون بها هاماتهم.. وينحنون أمامهم في إعزاز وإكبار
للمنصر المذهل الذي مسح العار.. عار الهزيمة أمام «خثعم» في مرات سابقة والغنمية

التي ستسعد الجميع..

وهم يهينون الفرسان من الأزد لهذه المهمة، والتي تصوروها رحلة سهلة ميسورة..
وهم يمنون أنفسهم الأمانى بالصيد الوفير، والكسب الجليل، والنصر المؤزر.. ثم العودة
بلا خسارة..

لكن يحدث ما ليس فى الحساب وما لم يكن متوقعا..

ماذا؟

لقد فرت «خثعم».. تركت الديار.. وذهبت بكاملها، وانحازت إلى «جرش» وجرش
مدينة مغلقة.. بها مجموعة من القبائل اليمنية انضوت خثعم إليها وصارت بها فى
منعة.. وإن يتسطيع صرد ولاغيره النيل منها؟!!

ياللكارثة!! حتى «خثعم» والتي أمل صرد، ورفاقه أن يفكوا بغزوها الحصار
المضروب من حولهم.. أن يكسروا الطوق الذى غلهم.. تخرج من دائرة حياتهم التي
ألّفوها.. وتعودوها، وصارت تسيطر على كيانهم وتسرى فى أوصالهم مسرى الدم فى
العروق..

من بقى فى المنطقة إذن لم يذهب إلى محمد يبايع بالإسلام ثم يعود وقد صار قوة..
أو انضم إلى حلفاء جدد كما فعلت «خثعم»؟!!

* * *

كان الوقت عصرا عندما امتطى صرد بن عبد الله الأزدى صهوة جواده، وخرج
بعيدا عن الدور فى مشية هادئة يتريض.. ويختلى.. ويفكر..

وما إن بعد عن الدور حتى ألح عليه التفكير، واستغرق فيه!!

لقد لفت نظره أن الرجال لم يكونوا متحمسين لعمل شئ.. وهو عكس ما كانوا عليه
فى مرات سابقة حيث كانوا يتواثبون فرحا عندما يُدْعَوْنَ للاستعداد والتأهب
للاقتضاض.. بل إنه نفسه لم يكن متحمسا بما يتفق مع وضعه كزعيم ومسئول عن
قومه وجماعته.. فلم تكن به حاجة إلى مال أو عبيد.. أو حتى إزهاق مزيد من الأرواح
تحت أى مسمى.. كالثأر.. أو الانتقام.. أو غسل العار!! ورغم هذه المصارحة الصادقة

مع النفس، فقد صار أهم ما يفكر فيه هو تغير الرجال.. أو ما بدا مما ينذر بتغيرهم!!
هل يكونون تغيروا فعلا؟ وما الذى يمكن أن يغيرهم؟
وكذا الذهن يريد أن يستبين ملامحهم.. إنه لا يتذكر شيئا. ولا تعى ذاكرته صورة،
أو لونا لأى منهم ساعة الإعداد..
هو.. الرجال.. وفى لحظة صدق مع النفس.. أحس نفسه يكشف دائرة مبهمه
غامضة:

«لعمري.. أنا الذى تغيرت!! والفقر الذى يدب فى أوصالى.. والخمول الذى يسيطر
على ذاكرتى.. وذهنى المكبوت الذى لا يسمعنى بشيء.. كل هذا يقول لى: إننى أنا
الذى تغيرت»

وقابلته ربوة كثيرا ماجاء إليها يختلى بنفسه فوقها الساعات الطويلة، تتربع فوقها
شجرة من أشجار «الطرفاء» وحولها بعض شجرات عنب الديب.. فترجل من فوق
جواده، وتركه أسفل الربوة حيث المرعى الوفير من الكلا.. والعشب الأخضر الناضر..
ثم اعتلى الربوة، ودار حول شجرة الطرفاء يتأملها، وكأنه يراها للمرة الأولى فى حياته
ونظر إلى شجرات عنب الديب من حولها فلفت نظره ثمرها الناضج.. فجلس أمام
إحداها القرفصاء محاولا قطف بعض ثمرها.. وأسند ظهره إلى شجرة الطرفاء، وهو
يضع الثمرة فى فمه والظل يلفه ونسمة رقيقة ندية من نسيمات آخر النهار تهدده.. ثم
تثأب.. ولم يستطع أن يقاوم فتعمد فى الظل الظليل.. وأسلم نفسه لإغفاءة عابرة..

أخذته غفوة.. لم يعرف على وجه اليقين كم استغرقت من الزمن.. لكن الذى يعرفه
جيدا كأنه يعيش فى يقظته أنه رأى فى هذه الغوة نفسه تائها فى بيداء مقفرة.. يتلظى
جوها بالسعير من حرارة الشمس، وقد استبد به العطش.. وخارت قواه.. وضاع منه
الطريق ولا أمل فى النجاة.. وهو فى هذه المحنة يجد كأن الأرض تنشق عن خنزير برى
ضخم.. له وجه غريب أدهشه قدر ما أفزعه.. كان وجه صنمهم الذى يعبدون، وفى
رأسه قرنان مديبان غليظان كرمحين.. عيناان يخرج منهما نار كشواظ من لهيب..
ويندفع إليه هذا الخنزير بكل قوته.. ثم يغرس قرنيه فى صدره فينتزع من بين ضلوعه
قلبه على أحدهما.. وكبده على الآخر..

وتنتابه إغماءة من الرعب يحس أثنائها بتحول هذا الخنزير إلى مارء جبار له قرن فى جبهته يهجم عليه ويفرسه فى رأسه فينتزع مخه.. وصرد يصرخ:

– «أريد أن أعيش.. أريد أن أبقى حيا.. لا أريد أن أموت»

وتجحظ عيناه.. ويفغر فاه، وقد تبدد إلى قطع ممزقة.. لكنه لا يزال يحس بما حوله.. ويقدر على الرؤية.. ثم يرى وهو يعالج نفسه كأنه فى النزاع الأخير.. ثم يرى قريبا منه فى قيظ هذه الصحراء بستانا.. لم تر قط مثله عين.. بستانا يمتلى بالخضرة.. والورود.. والخمائل وأشجار الفاكهة من كل صنف ولون وتتفجر من خلال الخمائل عيون تجرى مياهها داخل البستان أنهارا.. ونسمة رقيقة تميل الأشجار فى خفة، وتهز الأوراق فى يسر.. نسمة رقيقة تعيد الصحة للبدن العليل!!

ورأى على باب البستان رجلا يشع النور من بين ثنانياه.. وكان رأسه قنديل من النور فى ملابس بيضاء يشير إليه بعبور المسافة البسيطة التى تفصل ما بينه وبين البستان.. وأحس كأنه يتمل محاولا الوصول.. إلا أن الخنزير يقف حائلا بينه وبين الوصول مرة.. والمارد مرة أخرى.. فيصيح بما تبقى لديه من قدرة وأمية:

– لا أستطيع.. لا أستطيع!!

فسمع صدئى هامسا فى أذنه لصوت وود:

– بل تستطيع إن أردت أن تحيا حقيقة..

وتوقف الصدى لحظة ثم عاد يردد همسا فى ألفة وفى ود أحس بهما يحيطانه من كل جانب:

– أنت الآن تبدد جهدك ووقتك فيما لا يفيد.. احزم أمرك.. واعقد عزمك وافتح قلبك لنور الهداية.. وعقلك لنور اليقين.. وتصد للخنزير اللعين، ولا تخش المارد.. وثق أنك لن تحيا وحدك.. بل سيحيا معك قومك..

– كيف وأنا خائر القوى.. منزوع القلب والكبد والمخ.. وليس معى سلاح..

– معك أقوى سلاح.. معك الإرادة.. بها تسترد قلبك وعقلك..

– الخنزير انتزع قلبى.. والعملق أخذ مخى.. وأنا مسلوب القدرة.. أريد من

يساعدنى!

- إن من تريده يساعدك بجانبك.. اتجه إليه وناده، وسيستجيب لك..

- من هو؟ وأين أجده فى هذا الجحيم وأنا لا أراه؟!

- إن من تقصده هو الله.. تجده فى كل وقت وحين.. يراك، ولا تراه.. ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ [الأنعام: ١٠٣]

قل فقط «يا رحمان، يا رحيم، يا محى العظام وهى رميم، يارب محمد وربنا، ورب العالمين.. أحي موات قلبى، ورد على عقلى، وأعنى على جهاد المفسدين».

- وكيف أعرفهم؟!

- عندما يعود لك قلبك سينصرف عنهم.. وسيرشدك لأقوم السبل إلى جهادهم فقط إذا كنت تريد الحياة لك ولقومك فى هذا البستان.. اتجه إليه وردد ماقلت بقلب سليم.

واختفى الصوت.. ووجد صد نفسه يردد: يا رحمن، يا رحيم.. وأحس نفسه معافى بلا جراح.. وبلا آلام.. وتحول خلقا آخر مختلفا عن خلقه الأول.. فيه ملامحه لكن ليست له صفاته.. ولا عقلية.. ولا إحساسه.. وشعر فى نفسه قيمة لا تعادلها قيمة، وقوة لا تضارعها قوة.. فهجم على الخنزير.. وطارد العملاق، وتلاشيا أمامه فى تيه الصحراء.. وضباب البيداء.. ثم تبخرا ولم يعد لهما وجود، وهو ما يزال يردد ما يسمعه من قول.. وهو يتقدم للبستان لا يمشى على قدميه.. وإنما يطير فى الهواء!!

هبط إلى البستان من أعلى فسمع الصوت نفسه.. ذلك الذى كان يسمعه همسا، ولا يدرى من أين كان يصدر هذا الصوت.. لقد سمعه فى حفيف الأشجار.. ولون الزهور والورود وخيرير المياه.. وانبساط الأعشاب الخضراء.. ورائحة الفاكهة.. تلك الرائحة الذكية التى لم يعرف على امتداد عمره لها شبيها أو مثيلا..

كان يسمع هذا الكلام تردده العصافير فى تغريد بديع شعر به ينفذ إلى أغوار قلبه وأعماق فؤاده!!

فكان يردد، وقد ذهل بالترديد عن أى مطلب آخر:

«يا رحمان يا رحيم.. يا مالك الملك.. يا محى العظام وهى رميم.. يا رب محمد،

وربنا، ورب العالمين.. يا محى العظام وهى رميم أحى موات قلبي، ورد على عقلى،
وأعنى على جهاد المفسدين».

* * *

قاربت الشمس من المغيب.. وساور «عواد» خادم صرد بن عبد الله القلق على
سيده.. فذهب إليه عند الربوة.. فقد كان يعلم مكان خلوته عندما يفكر فى شئ ذى
أهمية.. أو عندما يريد أن يصفو ذهنه مما علق به من أكار الحياة.. أو عندما يريد أن
يستروح من عناء ما يلم بالجسد من متاعب العيش!!

كان خادمه يعلم هذا عنه، ولقد ذهب إليه عند الربوة فقط لأنه قلق عليه.. وما أن
صعد الربوة حتى وجد سيده ممددا على الأرض فى ظل شجرة الطرفاء يتقلب يمينا
وشمالا، والعرق يتصبب منه، وهو يردد هذا القول.. ويسمعه منه خادمه أكثر من مرة..
يتلفت صرد حوله فيبهوله ما يرى.. وكأنه قادم من عوالم أخرى لا علاقة لها بهذا
العالم الذى يعيشه..

الربوة.. وشجرة الطرفاء.. وشجر عنب الديب.. هذه المظاهر الجاهلية مظاهر كونية
ارتبطت بحياته الجاهلية.. صارت قطعة من هذه الحياة.. ومعلما من معالمها، ومأواه
الذى يأوى إليه إذا ادلهم الكون من حوله يراجع فيه نفسه.. ويعيد حساباته.. ويستنبط
الفكر الخلاق..

لكن ما رآه مثير عجب: الخنزير.. المارد.. قلبه المعزق وكبد الجريح.. والبستان..
ومن كان فيه، وما على رأسه من قنديل.. والصوت.. والكلام الغريب يتلفت حوله،
ويتمتم. يا رب محمد، وربنا، ورب العالمين..

اقترب الخادم، ومظهر سيده لا يوحى بالاطمئنان..

ماذا؟ ما أرى سيدي إلا يهذى.. قد يكون حُم..

وساعده حتى استوى على صهوة جواده.. ثم عاد فى ركابه إلى الديار.

* * *

اجتمع الأربعة مرة أخرى فى بيت صرد.. وقد بات كل ترتيبات الغزو بالفشل

الذريع.. وحاولوا أن يجدوا مبررا واحدا ملموسا بالفشل فلم يجدوا الرجال مستعدين
أو هكذا توهموا.. والإرادة قائمة.. والنية مبيتة.. وكل إمكانيات النجاح متوفرة.. لكنهم
فشلوا.. لماذا؟ لا بد من شئ آخر فى ضمير الغيب.. وهو ما تفسره رؤيا صرد فوق
الربوة عندما أغضى فى ظل شجرة الطرفاء.

لقد قلبت هذه الرؤيا أوضاعهم رأسا على عقب.. وفجرت فى أذهانهم معانى عن
العالم الجديد حاولوا طمسها زما.. وفى أعماقهم أحاسيس عن الحياة الجديدة كانوا
يخفونها كبرا من أن يقال رضخوا، واستسلموا..

وبدت الرؤيا إرهاصا بحياة جديدة.. وعالم جديد.. ومن ثم غدت موضوع الاجتماع.
فى أول الأمر كان حوارهم يدور حول من يفك الرموز.. ويحل الطلاسم، ويكشف
ماوراها من أسرار ومخبات..

قال ضمادة:

- كاهن فى دير هناك فى شمال الجزيرة..

وقال أبو ظبيان:

- عراف فى طريق نجد..

وقال جنادة:

- لا والله.. لا هذا ولا ذاك..

لن يفك هذه الرموز، ويحل هذه الطلاسم إلا عقل صرد نفسه!

فاستحسن صرد هذا القول، وأمن عليه، وهو يردد:

- هذا والله رأى له وجاهته، وأنا أميل إليه.. ولكأنى أعيش هذه الرؤيا الآن واقعا
لملوسا.. ولا يعالجها، ويعرف أسرارها سوى..

فقال خالد بن ضمادة:

- ما زال أثر الحمى يسيطر عليه..

وقال أبو ظبيان عمير بن الحارث:

- هو فى حاجة إلى طبيب..

وقال جنادة بن مالك:

- إن طبيبه قلبه.. فأياها يفضلهُ يكون هو الطبيب

فاستحسن صرد هذا القول وأمن عليه، وهو يردد:

- هذا قول حسن.. والله ما يعتل فى داخلى.. وتجيش به عواطفى!!

وقال خالد بن ضمادة الأزدى:

- فما ترى أنت يا صرد؟

قال صرد، وقد سرح ببصره فتخطى حدود المكان، ووقف عند صورة لمكان تبدو على البعد غير واضحة الأركان والمعالم.. صورة لمكان غير هذا المكان.. وأحسن منه.. وناس غير هؤلاء الناس وأفضل منهم..

وسرح بذهنه فتخطى حدود الزمان.. ووقف عند فكرة المعبود.. هل يمكن أن يكون المعبود من صنع العابد؟ وعلى أى أساس تقوم فكرة العبادة؟ العبادة للمعبود لأنه أفضل من العابد.. وذو أيدٍ سابغة عليه بإجراء النعمة.. أو منح الفضل والعقل والمواهب.. ومنح العمر، والرزق، والسمت الجميل.

العبادة للمعبود لأنه الخالق.. وإذا كان الإنسان هو الخالق.. هو صانع صنمه فهل يتفق أن يتحول المخلوق إلى معبود.. والخالق إلى عابد؟ هل يصنع العابد إلهه؟ أم أن المعبود هو الذى يصنع عباده؟

وتواردت الخواطر.. وتوالت على ذهنه الصور..

الخنزير الذى وجهه وجه صنمهم الذى يعبدون.. الإله الذى يتبدى فى هذا الشكل القبيح.. ويعلى على مخلوقه، وهو يعرف أنه ضعيف ليفترسه بدل أن يشد أزره، ويساعده على محنته.. أليكون هذا إلهها؟

وطالت سرحته.. والثلاثة صامتون..

ثم قال:

– والله لكأنى مقبل على حياة غير هذه الحياة وخير منها.. ومفارق هذا العالم إلى عالم آخر أسعد منه.. وأخذ يردد:

«يا رحمان.. يا رحيم.. يا مالك الملك.. يا محى العظام وهى رميم.. يا رب محمد وربنا.. ورب العالمين.. أحي موات قلبى.. ورد على عقلى.. وأعنى على جهاد المفسدين!»
فقال خالد بن ضمادة:

– والله ما شككت لحظة فى أنك مرتاد لنا عالما، تعقله أفكارنا، وتطمئن إليه أفئدتنا، وترتاح له أسمعنا، وأبصارنا.. فإن كنت وجدت فدلنا عليه.. ووالله لن تجدنا إلا صدقا فى القول والفعل.. صبرا عند الشدائد.. لا تلوى وإن انفض الجميع!!
وقال أبو ظبيان عمير بن الحارس:

– والله يا صرد، ما كنت بأكثرنا حيرة.. ولئن كنت أشجعنا فى مواجهة نفسك، والإفضاء بما فى داخلها.. فنحن لا نقل عنك إن لم نزد شكاً وحيرةً فى كل ما تقوم عليه حياتنا التى نحيها!
وقال جنادة بن مالك:

– والله ما عقلت شيئا مما نعبد.. ولا مما تقوم عليه حياتنا من عادات، وتقاليد.. ووالله لأنماط حياتنا التى نحيها أقرب إلى الحيوانية منها إلى الإنسانية.. ولكأننا فى هذه الحياة حيوانات بلا أربعة أرجل.. أو مشافر وأذان طويلة.. حيوانات تسير على قدمين..

أجسامنا أجسام بفال.. وأما أحلامنا فأحلام عصافير!!

وقال خالد بن ضمادة:

– يا صرد.. إن كنت وجدت شيئا فدلنا عليه.. ولك فضل السبق، وفضل الدلالة.. وفضل الهداية!!

فقال صرد بن عبد الله وهو يحس أنه شفى حتى غدا وكأنه روح تجوب الأفاق.. ثم تعود للصحب والرفاق بالرؤى الجديدة..

– يا إخوتى.. لقد حزمت أمرى.. وما أرانى مرتدا فيما سأخذ من تدابير لتنفيذ

ما عزمت عليه.. حتى ولو بقيت وحدي!!

- يا إخوتي.. الآن حصحص الحق.. الخنزير هو إلهنا الضال.. وأنا القلب الذي سيطر عليه هذا العمر الطويل.. وكبدى أبنائى الذين قتلوا فى معارك سابقة.. والذين ما يزالون على قيد الحياة ينتظرهم مصير مجهول لا يدرون ماذا يراد لهم فيه.. والمخ هو العقل المعطل عن التفكير الصحيح.. والمارد هو «خثعم».

يا إخوتي: لقد عزمت على الذهاب إلى المدينة.. إلى يثرب.. إنها بستانى الكبير.. الذى سأجد فيه ما أطلب وما أريد..

هناك محمد.. ألقاه.. وأجد فى رحابه الإيمان.. وفى ساحته الأمان هناك سأبايع بالإسلام.. سأبايع بالحياة الجديدة.. والعقل والقلب العائدين من غربتهما.

وإن كنت بعدها ملاقيا «خثعم» فو رب الكعبة لن ألقاه من أجل أبى أو أخى أو ولدى من قومي، وأبناء قبيلتى.. وإنما سألقاه الله.. وفى سبيل إعلاء كلمة الله!!

فمن كان منكم مقرا بما عزمت عليه.. ويحس فى نفسه صدق النية.. وحسن العقل.. وتوفر الإرادة فليمد يده أشد عليها.

فتواشب الثلاثة.. ووضعوا أيديهم على يده.. وتعاهدوا على خلع حياتهم إلى حياة أكثر أمنا.. وعدلا.. وسلاما.. وتواعدوا على الذهاب فى وفد إلى محمد يبايعون بالإسلام عن أنفسهم، وعن قومهم!!

* * *

وصرد بن عبد الله الأزدى يستعد للسفر.. يرد على خاطره أن يذهب إلى الربوة.. يجلس هناك فى ظل شجرة الطرفاء.. يشم ريح عنب الديب.. ومع الشميم يسترجع عبق الرؤيا وما فيها من جوانب عطرة.. وما لها من أثر ترتب عليه الفصل بين حياة، وحياة.. وكأنه يودع كونا بأسره.. ليستقبل كونا آخر مفايرا له فى معناه.. وفى مبناه!!

وفى زاوية من زوايا الربوة كانت المفاجأة الثانية.. كان خادمه «عواد» يبنو ساجدا.. تسلل صرد وهو يقترب منه.. باذلا الجهد كيلا يثير انتباهه.. ثم جلس القرفصاء من خلفه مرهفا السمع إلى ابتهالاته فى سجوده..

وأثار شجونه أن عوادا فى بعض ابتهالاته كان يورد اسم صرد.. ويدعوه له ربه بالهداية والرشاد.

وكان صرد يظنه بعد أن ينتهى، ويعرف أن سيده فضح سره أن يضطرب.. ويجل، إلا أن ذلك لم يحدث..

اقترب عواد من صرد فى هدوء، وسكينة تامين وقال:

- أعتقد يا سيدى أن محاولة الإخفاء غير مجدية.. فلم أعد قادرا عليها، ولا مطيقا لها.. وبودى أن تعرف الدنيا كلها أنى أسلمت.. وأن حلاوة الإيمان أقوى وأعذب من أى حلاوة فى الوجود.. وأن نور اليقين وهو يخالط القلب، والعقل.. ويمارجهما أروع، وأرقى من أى شىء فى الكون بأسره.. وأن أى تعذيب مهما بلغ من القسوة.. فلن يكون شيئا بجانب ذرة واحدة من إحساس السعادة بالهدى، وحسن المصير..

لم يدهش صرد مما رأى.. ولا مما سمع.. بل لقد كان سعيدا مما يرى، ومما يسمع وصار مهيا له.. واتخذ بشأنه قراره الذى لا نكوص عنه، ولا رجعة فيه.. لكنه تصنع الجد، وقال مخفيا مما زحته:

- منذ متى وأنت..

فقاطعه الخادم

- منذ زمن طويل ياسيدى.. وإن شئت عذبتنى.. أو أرخيت لى العنان أذهب إلى حيث سبيلى

فتصنع صرد الغضب:

- أرخى لك العنان لتفسد فى الأرض؟! لأعذبك عذابا شديدا أو لأذبحك.. أو فأجاب الخادم فى ثبات:

- أو ماذا يا سيدى؟!

- أو لتقولن لى ما الذى أوصلك إلى هذا؟! وهل فى القبيلة مثلك؟!

- لأمتثلن لك ياسيدى فى جانب مما طلبت..

نعم فى القببيلة الكثير، والكثير مثلى.. دلونى على الخير.. وعلمنى كيف أكون مسلما وعلمنى الصلاة - وهى مارأيت - وعلمنى كيف أدعوى ربى، وأنا ألتقى به.. ولقد دعوته كثيرا أن يهديك.. ويرشدك إلى الطريق الصحيح.. طريق الحق، والخير.. طريق الإسلام..

أما الجانب الآخر، وهو: من بالتحديد.. فاسمح لى ياسيدى، ولأول مرة أن أعصيك!!

- وإن عذبتك؟

- وإذا ذبحتنى كما قلت فلن تسمع منى أسما واحدا.. وستدهش إذا قلت لك سوف استعذب آلام الذبح.. فإننى أراه تكفيرا عما مضى من عصيان فى حياة الجاهلية..

فصمت صرد قليلا كأنه يفكر.. فأطمع هذا الصمت خادمه.. وجعل يتوسل إليه توسل المحب يخشى على محبوبه من مصير يراه أليما.. وقال:

- لقد دعوت إليك الله.. ولأنت أولى بالحياة الجديدة.. ولأنت أولى بغفران ربى.

أرجوك يا سيدى.. فرصيدك من المكارم لا يُعادل برصيد.. فاختم عليه بالإيمان.. اختم عليه بالإسلام..

فوالله ما طعمت حلوة مثل حلوته.. ولا أحسست سعادة مثل سعادته.. ولا شعرت بأمن، ولا سلام مثل أمنه، وسلامه!!

فابتسم صرد وقال:

- وإذا قلت إنه قد حدث.. وإنى أود مكافأتك على ما فعلت!

فارتبك الخادم.. وانعقد لسانه.. ولعت عيناه ببريق الفرح، والحبور..

فأردف صرد:

- وإذا قلت لك إنى ذاهب منذ اللحظة فى وفد إلى محمد بالمدينة نباع بالإسلام.

فتهلل وجه الخادم، وزالت ريخته.. وانحلت عقدة لسانه، وقال:

- إذن تعدنى أن أختار بنفسى ما وعدتنى من مكافأة!!

- بحق الله لن أنكص عن وعد وعده.. فاختر هذه المكافأة!
- أذهب معك.. أكون في خدمتك لأصل إلى رسول الله ﷺ أراه.. أملى العين من محاسنه.. والأذن من عذب صوته، وحديثه.. والقلب من نور هداه.. والعقل من صدق دعوته، وخالص توجهه!!

وانكفاً على سيده يقبل وجهه، وكنفه.. ويديه.. فى امتنان بلا حدود.
فسرح صرد ببصره بعيداً.. وكأنه يلاحق ذهنه الذى بعد أكثر فى محاولة لتخطى الحواجز والسدود والموانع استشرافاً للمستقبل الذى ينتظره.. ثم قال:
ستكون رفيقى يا عواد.. فعد للديار، وأعد الرحلة.. وجهز الزاد للرحلة الميمونة..
وجاشت عواطف الخادم.. وانهمرت عبراته صدئ للخبر..
وقبل أن ينصرف سمع من سيده قوله:

- لا عليك يا عواد إذا أذعت هذا الخبر فى القوم.. واعلم أنه لو اجتمعت الدنيا كلها على أن تحول بينى، وبين ماعزمت عليه، فسوف لا تقدر.. ولو حدث فلن يكون بينى وبينها حكم إلا الحسام.. وأظنه فى اشتياق لأن يسئل من غمده الذى طال فيه رقاد.. اذهب يا عواد ميمونا.. تصبحك السلامة.

* * *

لم يكن صرد يعبأ كثيراً برفض الراضين من المعاندين.. فهم آتون حتما للنور.. المسألة مسألة وقت.. ولسوف يأتون.. إنما كان اهتمامه.. وغاية امتنانه بالذين أيدوا وتوافقوا على دأره فى مظاهرة ما كان أروعها وهى تتواصل، وتمتد حتى تودعه، وصحبه وهم يفصلون عن الديار فى رحلة ما أحبها من رحلة إلى النفس، والقلب، والعقل!!

رحلة ليست كأي رحلة من هاتيك الرحلات الكثيرة التى شرق فيها وغرب.. رحلة هيام للقلب.. ويقين للعقل.. رحلة هدى ونور.. تجلت فيها سبحات روحية كان يفرق فى نبع سعادتها، ونعيم اتصالها.. ويعب من كأسها المترعة حتى الثمالة!!

ولو أوتى مجامع الكلم.. فلن يستطيع التعبير عن عظيم ما أحاطه، ويحيطه من بهاء وجلال وهو يقترب من صاحب الدعوة.. ومدينته التى باتت مزاراً للرواد من المتقين، وملأه المؤمنين فى نصر الله، ورضاه.. ومهبط الصالحين الذين نذروا أرواحهم، وأنفسهم فى سبيل نصرة دين الله..

.. ما هذا الذى يحتويه، وهو يقترب من المدينة؟!

إنه صفاء لم يعيشه لحظة واحدة فى عمره المديد فيما مضى.. خال معه نفسه وروحه، وعقله، وقلبه تصل إلى السماوات العلا، وتدرك بلا تجسيد مهبط الوحى، وتحس عظمة الخالق المبدع فيما خلق، ويتبخر فى هذا الصفاء كل أثر للحقد أو الموجدة، ولا يبقى إلا الغيرة على محمد، ودين محمد.. والحب الشديد له، وإلهه الذى بعثه بالحق، والصدق..

لم يبق إلا الود يبذل بلا من ولا رياء!!

لم يكن طوال الرحلة يحس بما حوله أو بمن حوله ممن معه.. وغفل حتى عن نفسه، وما كان يتداركه بالطعام أو الشراب إلا خادمه عواد الذى كان يرمعه، ويشعر تجاهه بمسئوليته هى مسئولية الأمين فيما أؤتمن عليه.. المحب الصادق فى حبه.. وقد علمه دينه.. علمه إسلامه أنه عندما يحب لا يحب إلا الله.. وتنتقل العدوى لصد.. فيجد نفسه يحب..

لكن ماذا يحب؟! لا يدري.. إنه يحب.. وكفى.. حتى غدا حبا صرفا.. حبا حقا، وصدقا!!

* * *

ويصير الوفد على مشارف المدينة.. وتعلو وجوه الجميع مسحة من رواء.. من فرط بهائها تتأبى على وصف الواصف مهما بلغ من دقة الصف.. وبلاغة القول فيه!! وتسيطر على القلوب مسحة من سماحة.. من فرط جمالها تجعلهم يودون لو يعانون الإنسان، والجماد يصادفهم فى طريقهم إلى المدينة.. وتسيطر على العقول مسحة من يقين من فرط جلالها تجعلهم يستعظمون ما بقى من الطريق، ولم يبق منه شئ.. ذو بال أو أهمية ليحتضنوا محمدا بأنفسهم وأرواحهم، وقلوبهم، وعقولهم.. ويذرفون الدمع على ما بدر منهم ومن أقوامهم، ويعتذرون مر الاعتذار على أن تأخروا هذا الزمن الطويل.. وما كان لهم أن يطيعوا الشيطان.. ويصادقوا الباطل.. ويعصوا الله، ولا يصدقوا الرسول!!

ويقترب الواقدون بعضهم من بعض، فلا يكون حديث إلا عن محمد.. ويتعد

الوافدون بعضهم عن بعض، فلا يكون هيام إلا في محمد!!

«الله.. ما أعظمك!! يا محمد».

وتخضل الأجفان.. وتبتل العيون.. وينبض الشوق في النفوس.. ويهيم الحب في القلوب.. ويعجلهم اللقاء إلى اللقاء.. فيهرعون فور دخولهم المدينة إلى مسجد رسول الله ليرووا الظمأ بليقاه.. ويملأوا العين بمرآه.. ويشغفوا الأذان بعذب حديثه، ويرطبوا القلوب بحلو الإيمان ينهلونه من مصدره الفياض، ونبعه الصافي!!

ويسبح الرسول ﷺ بحمد ربه.. ويستغفره، وهو يتلقاهم بالنور. يسرى في القلوب فترى ما لا تراه العيون.. ويدرك ما لا تدركه الأسماع، ولا يستطيع عواد أن يتمالك نفسه فيسمعه القوم يصيح، وقد شرق بدمع غزير ذرفته عيناه..

«أبْتُ إليك يا حبيب الله.. فاقبل أوبتي.. وسل ربك الرحمن يقبل توبتي.. وخذ بيد سيدي يشرح الله صدره.

.. في المسجد يستقبلهم نبي الرحمة.. ويرى صرد بعين البصيرة ما لا تدركه الأبصار.. ويكاد يهتف:

- سامحتي يا رسول الله.. تأخرت زمنا ليس باليسير.. حرمت فيه ما لا يعوض إلى يوم الدين.. جئت اليوم تائباً عن ذنوبي.. مبايعاً عن نفسي وقومي بالإسلام وأرجو أن تدعو الله لي يقبل توبتي!.

ويسمع صرد بقلبه ما لا يسمع بأذنه.. يسمع ما يزيل الرهبة والخوف.. يسمع ما يقرب الرجاء ويحيي الأمل في عفو الله ورضاه.. يسمع كأن الرسول يقول قولاً يذهب الخوف من قلبه، ويطمئنه إلى حاضره، ومستقبله، وحاضر ومستقبل أهله وقومه.. كأن الرسول يقول: «الإسلام يَجِبُ ما قبله»!

فيهتف في نفسه:

- بشري.. بشري.. وما أراني أكتفى بهذا..

فيسمع كأن قرأنا يتلى عليه:

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس.. تاملون بالمعروف.. وتتهون عن المنكر ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فيجد صرد نفسه يهتف:

– «وإن أقبل يا نبي الرحمة دون ذلك أبدا.. واسوف أمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر وأجاهد في سبيل الله».

وتشرق الوجوه بنور الرحمة والرسول الكريم يتجلى عليهم.. وتصفو النفوس صفاء غير مسبوق بنظير والرسول يلاطفهم، ويمازحهم، وهو يمازحهم لا يقول إلا جدا..

وتحن الأرواح إلى خالقها.. والرسول الكريم يحدثهم عن خالق الأرواح، ومبدع الكائنات وما له من حق الطاعة.. وحق الفرائض على عباده.. حق الشهادة بأن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.. وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا..

وتستقيم العقول، وميزان العدل.. والرسول يحدثهم عن المساواة بين الناس.. فلا تفاخر، ولا تعالى.. ولا سيادة لأحد على أحد.. الكل أمام الله سواء.. لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح.. الميزان الجديد: التقوى، والعمل الصالح.

وتهفو القلوب إلى الرحمة والرسول يحدثهم عن الحلال والحرام.. المسلم على المسلم حرام دمه.. وماله.. وعرضه ولا يشبعون من حديث الرسول.

ويسأل خالد بن ضماد الأزدي رضي الله عنه كتابا، فيعطيه الرسول ما يطلب:

«لخالد بن ضماد الأزدي: إن له ما أسلم عليه من أرضه على أن يؤمن بالله لا شريك له، ويشهد أن محمدا عبده ورسوله، وعلى أن يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم شهر رمضان، وحج البيت، ولا يؤذى محدثا، ولا يرتاب، وعلى أن ينصح لله ورسوله، وعلى أن يحب أحباء الله، ويبغض أعداء الله.. وعلى محمد النبي أن يمنع منه نفسه وماله وأهله، وأن لخالد الأزدي ذمة الله، وذمة النبي إن وفى»^(١)

(١) نشأة الدولة الإسلامية

وسأل أبو ظبيان الأزدي رسول الله ﷺ كتاباً مثل كتاب خالد، فكتب النبي صلى الله عليه وسلم، كتاباً له.. أبو ظبيان عمر بن الحارث الأزدي: (١)

«أما بعد: فمن أسلم من غامد فله ما للمسلم.. حرم ماله، ودمه، ولا يعثر، ولا يحشر وله ما أسلم عليه من أرضه».

وسئل الرسول عن الثمار في الشجر فذكر أن للجائع الحق في أن يكفى حاجته دون أن يأخذ معه شيئاً، وإذا أخذ ثماراً فيغرم ضعفها، ويعاقب، وإذا سرق تقطع يده».

ويجد جنادة رغبة في نفسه لأن يحصل على كتاب مثل رفيقيه، فيمنحه الرسول ما يرغب ويعطيه كتابه الذي يشتمل على الآتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد رسول الله لجنادة الأزدي وقومه، ومن تبعه، ما أقاموا الصلاة، وأتوا الزكاة، وأطاعوا الله ورسوله، وأعطوا من المغنم خمس الله وسهم النبي صلى الله عليه وسلم، وفارقوا المشركين، فإن لهم ذمة الله وذمة محمد بن عبد الله».

وتقدم وقد بارق وهم جماعة من الأزد مثلوا في وفدها الكبير، وقبلوا الإسلام وطلبوا من النبي ﷺ كتاباً يضمن لهم حقوقهم في الزرع، والمرعى، ويستجيب الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعطيهم كتابهم على النمط التالي:

«هذا كتاب من محمد رسول الله لبارق:

ألا تجذ ثمارهم، وأن لا ترعى بلادهم في مريع، ولا مصيف إلا بمسألة من بارق ومن مريبهم من المسلمين في عرك أو جذب فله ضيافة ثلاثة أيام، فإذا أينعت ثمارهم فلاين السبيل اللقاط بوسع بطنه من غير أن يقتنم»

* * *

وقد استراحت القلوب، وأطمأنت النفوس.. وتلفت القوم إلى صرد كتابهم يستحثونه على أن يطلب من الرسول ﷺ ما طلبوا.. والرسول لا ييخل على أحد أو جماعة..

لكن صرد لم يسأل الرسول ما سألوا..

(١) المصدر السابق وأبو داود

كانت له رغبة واحدة.. أحسها رسول الله ﷺ بقلبه.. كما أدرك ببصيرته ما سوف
يؤول إليه أمره وما سينتهي إليه.. ومصيره.. وما سيترتب على مواقفه وتحركاته من
خير للدعوة والمسلمين في كل مكان.. وهذا ليس بغريب على من قال فيه ربه ﴿ وما
ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾. [النجم: ٣ ، ٤]

ومن قبل حدث عدى بن حاتم عندما لقي رسول الله ﷺ وسمع منه ما سمع.. قال
عدى عنه: «إنه يعلم ما يُجهل»

لم يسأل صرد رسول الله كتابا.. وإنما كان يود لو يقبله ربه في المجاهدين في
سبيله، ويتمنى لو يحقق له الرسول الكريم هذه الأمنية، ويأذن في مجاهدة الكافرين!!
ويستجيب الله سبحانه.. ويقبل صرد مجاهدا في سبيله، وذلك عندما يحقق له
الرسول ﷺ أمنيته..

.. فقبل أن ينصرف وفد الأزد الكبير عن المدينة قافلا إلى الديار.. وفي آخر لقاء مع
النبي يُؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم صرد بن عبد الله على من أسلم من قومه..
ثم يأمره بأن يجاهد بمن سلم من أهل بيته المشركين من قبائل اليمن.
وتكتمل الفرحة في نفس وقلب صرد.. وخادمه عواد.

ولكن عواد يستأذنه في أن يبقى في مدينة النور بجوار رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقوم على خدمته ما بقى فيه عرق ينبض.

وأذن له صرد.. وأكثر من هذا.. فلقد طلب من خادمه أن يسامحه، وأن يعفو عنه
فيما بدر منه طوال فترة قيامه بخدمته، وأن يذكره في حضرة الرسول الكريم بالدعاء
له.. وأوصاه ألا يغفل عن هذا الطلب فإن أحداثا جسيمة تنتظره هناك، وإن وعودا
ضخمة قطعها على نفسه، ورجا الله أن يعينه على الوفاء بها!!

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فممنهم من قضى نحبه وممنهم من
ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾. [الأحزاب: ٢٣]

ولقد صدق صرد فيما عاهد الله عليه، وبر بما وعد فيه... وقاتل المشركين، وعبدة
الأصنام.. عبدة الطاغوت.. وجاهد «خثعم» في الله جهادا مريرا، وأذاقها مر كأس

باطلها.. وما زال بها حتى ذهبت عنها غشاوة الضلال.. وانتشعت عنها سكائب الكفر..
وأبت إلى حظيرة الرحمن، ووفدت على المدينة، وقد شرح الله صدرها، وبأيعت، وحصلت
من الرسول ﷺ على كتاب أمانها، وهنائها:
﴿إذا جاء نصر الله والفتح* ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا* فسبح
بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ [سورة النصر]

عائد من الغربة!!

عدى بن حاتم الطائي

لا يدري أحد في قومه ما الذي جعله في الأيام الأخيرة لا يهدأ له بال... أو يستقر له قرار!!

فهو لا يحدث أحدا في قومه إلا علا بصوته عليه حد الصباح.. ونهره.. وسفحه.. وربما سبه.. ثم يشيح بوجهه عنه، وينصرف محتقا مفيظا، ضائق الصدر مكلوم الفؤاد.. فما الذي يحقنه هذا الحق حتى جعله يغير طبيعته هذا التغيير المخيف؟

يعرف الجميع أن عدى بن حاتم لم يكن يحقن على أحد في الدنيا قدر ما كان يحقن على محمد بن عبد الله في المدينة.

فمنذ بعث الله محمدا نبيا ورسولا، وهو لا يطيقه: يكرهه.. ويحقد عليه، ويكيد له في الغدوة، والروحة، في الصباح وفي المساء، ويؤلب عليه الناس الآخرين.. مشاركا في حملات الشك، والتشكيك، في البوادي، والواض، بل ومشاركاً برجاله، وسلاحه في أي عنوان عليه، وعلى المسلمين في أي مكان.

لماذا يكره عدى محمدا هذا الكره الشديد؟ ويحقد عليه هذا الحقد الأسود المرعب؟

وماذا فعل محمد حتى يستحق منه هذا العداء السافر المر له، واجتماع المسلمين؟

كان عدى بن حاتم شريفا في قومه من قبيلة طي... وكان بينهم محل إعجاب، وتقدير، ولقد بلغ من إكبار قومه له أن جعلوه عليهم ملكا.. فكان يعيش فيهم بالرباع^(١) على عادة الجاهليين.. فيأخذ منهم ربع ما يغنمون... يقطعون له وحده ربع ما عندهم، والقوم جميعهم الباقي.

وكان يعيش عيشة جاهلية، وإن كان يدعى أنه لا يدين دين قومه زاعما أن دينه دين نصارى أهل الشام. وكان لقومه صنم يعبدونه يطلقون عليه اسم «قلس» هو معبودهم الذي يدينون له، ويقدمون له القرابين، وينذرون له النذور..

وحقيقة أمره أنه ما كان يدين بدين الصابئين، ولا كان يدين بدين النصارى.. كان

(١) ابن هشام ج٢، نشأة الدولة الإسلامية

ركوسيا^(٢) كما قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.. لكن تحكّم حياته مع قومه عادات وتقاليده الجاهلية فى كل الأمور الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية.

فهى حياة الإغارة.. والسلب.. والنهب!!

وهى حياة الخمر.. والميسر.. والربا!!

وهى حياة الشرك وعبادة الأصنام، والأوثان!!

وهى حياة الامتيازات الطبيعية دون مبرر.. للقوى فيها الغلب.. وللغنى فيها السيطرة والتحكم والسيد فيها الاستعلاء، والتعالى.. حياة الفوضى البعيدة عن كل منطق، وعقل راجح، وفكر سديد.

حياة ليس للإنسان فيها من الإنسان أو آدمى إلا شكله.. أما عقله.. وأما روحه فشئ آخر.. هكذا كان عدى مع قومه.. وكان قومه معه..

أما محمد فكان يقيم فى المدينة بعد هجرته إليها من مكة.. وكان منذ بعثه الله نبيا ورسولا.. لا يفتأ بنشر دعوته، ويبث عقيدته بين الأنعام فى كل مكان دون كلل أو ملل، ولا تنبيه عن دعوته أية عوائق أو تمنعه أية موانع!!

وعباد دعوة محمد التى أهالت عليه حجارة الجبال.. وقوام حياته وحياة الدنيا كلها معه أن المعبود الذى يدعو له واحد.. هو الأول، وهو الآخر، وهو الظاهر، وهو الباطن، وهو على كل شئ قدير.. ومن ثمّ تنتفى معه حياة الشرك والكفر المتمثلة فى عبادة الأصنام والأوثان!!

ودعوة محمد ترفض الإغارة على الأمنين، كما ترفض السلب، والنهب، والخمر، والميسر، والربا، وتجعلها أشياء محرمة تحريما قطعيا!!

ودعوة محمد تقن القوانين.. وتسن التشريعات التى بمقتضاها لا تكون الحياة للأقوياء.. أو الأغنياء.. أو من يدعون السيادة فحسب، لكن لتكون الحياة للجميع بالحق والعدل..

ودعوة محمد تعيد للإنسان روح الإنسان وعقله، وقلبه، وتجعله يشعر أنه آدمى حقا

(١) ابن هشام ج٢

إنسان محضاً .

ودعوة محمد لا تمايز فيها لفرد على لفرد، ولا لجماعة على جماعة.. ولا لجنس على جنس إلا بالتقوى والعمل الصالح.

مفاهيم جديدة تتسق مع الطبيعة الإنسانية الأصيلة، والقطرة الصافية السليمة، والعقل الواعي المستنير.. ولا يرفضها إلا معاند مكابر!!

ابتدأ محمد دعوته، ورقعة الكفر متسعة فسيحة.. يستولى الكافرون فيها على كل مقدرات الحياة في الجزيرة.. ورقعة الإسلام ضيقة محدودة، وليس فيها للقلة من المسلمين من مقدرات الحياة إلا ما يقيم الأود.. ويكسو البدن.. لكن محمداً بصبره، وخالص توجهه، وصدق دعوته جعل الحال يتغير، والخريطة تتبدل خطوطها ومعالمها، ففتتسع باطراد رقعة الإسلام.. وتضيق رقعة الكفر..

* * *

كان عدى بن حاتم أول أمره بالدعوة بعيداً عن مصدرها، وكان ما يزال داخل رقعة الكفر المتسعة.. ولكن الدعوة سواء في مكة، أو بعد أن انتقلت إلى المدينة تفزعه.. وكان أهم ما ترتب على هذه الدعوة وعى الإنسان، وإدراكه لحقيقة أمره، في الكون والحياة، وتجرده من جموده وتحرره من إساره، وتحطيمه لأغلاله، وأصنامة، وسعيه الدائب لإزالة الحياة الجاهلية بأسرها، واستبدالها بحياة الإسلام.. وانتشاره.. وحينئذ لن يكون ثمة عدى ولا أمثاله.. وإن بقي فسيكون عدواً آخر مختلفاً كل الاختلاف عنه في السابق.. ولو فتشنا في أعماق عدى لنعرف سر هذا الكره الدفين لمحمد وسر رفضه قبول الإسلام وتحريضه الناس، وتآليبهم عليه فلا نجد إلا أن الدعوة ستسلبه امتيازاته الجاهلية، وهي كلها ماديّات توفر له لونا من ألوان الترف، والرفاهية في الحياة!! فضلاً عن فقدان السيادة التي أوجبها له قومه، والتي بمقتضاها يمنح حق التحكم فيهم، وضمنان لآلهم، وطاعتهم.

فلو استسلم عدى للإسلام فستنتهي تبعاً لذلك كل هذه الامتيازات الجاهلية.. ولو وعى قومه سيتمرّدون عليه.. وسينتهي كل ما بينه وبينهم.. فإن كان ثمة علاقة فسوف تكون جديدة تحكمها المفاهيم الجديدة للحياة الإسلامية في ظل مبدأ «الناس سواسية

كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح» ذلك المبدأ الذى يحرص الرسول ﷺ على تعميمه بين الناس كمبدأ إسلامي يناهض مبدأ التمايز الجاهلى الذى يفرق بين الناس بحسب العقيدة، والجنس، واللون، والنسب، والجاه، والثروة، والسلطان، والسيادة!!

* * *

ونظرة بسيطة إلى واقع المسلمين فى المدينة أو مكة أو فى أى مكان على الأرض العربية، وإلى حياة المسلمين فى ظل الدعوة، وما حقق لهم من تحرر فكري، وما ترتب على هذا التحرر من استقرار وهندء بال، وراحة وجدان، وطمأنينة ضمير، وسلام مع النفس، غدا به الجميع أخوة متآلفين.. متوادين.. يعاون بعضهم بعضا، ويعطف بعضهم على بعض.. ويشد بعضهم أزر بعض.. متجافين عن الإثم والعدوان.. ومن ثم صاروا قوة فرضت نفسها، ولا تهزم أبدا!!

نظرة بسيطة إلى واقع المسلمين مقارنا بواقع المشركين أو من لا يزالون على شركهم، ومن لا يزالون على جاهليتهم، يعيشون فى ظل عاداتها، وتقاليدها ونظامها الذى يفتقد إلى النظام، وقانونها الذى خلا من أى قانون.. يدرك المرء الفرق الكبير، والبيون الشاسع بين ناس وناس، وبين حياة وحياة، مما جعل العقلاء، أو من يحاولون استعمال عقولهم الاستعمال الأمثل، ومن يحكمون فطرتهم السليمة.. والمقهورين والمستغلين.. والعبيد.. جعل هؤلاء هؤلاء ينسلون من بين جموع الجاهلين.. تاركين حياة الكفر والشرك معلنين إسلامهم.. ذاهبين إلى المدينة أو أى مكان آخر يأمنون فيه على أنفسهم.. معاهدين على نبذ الشرك فى أى مكان أو موقع متى قدروا على ذلك!

* * *

وتزداد كراهية عدى للنبي ﷺ والمجتمع الجديد يزحف بتشريعاته رفيعة المستوى، وعاداته الصحيحة السليمة فيكتسح المجتمع القديم، ويقوض أركانه، ويقضى عليه باطراد، وعلى ما كان له من أثر أملا فى تحطيمه، وإزالته من الوجود نهائيا.. ومن ثم تزداد اتساع رقعة الإسلام.. وتتكمش رقعة الكفر..

تزداد كراهية عدى للنبي ﷺ وهو ينظر فيجد مستقبله فى ظل الشرك يوشك على

الضياح.. وامتيازاته فى ظل الكفر مهددة بالانهيار..

وبدلا من أن يُعْمَل عقله كسيد، وكزعيم تملى عليه أصول الزعامة والسيادة أن يكون رائدا لنفسه وقومه.. أغلق عقله، وقلبه من دون الله، وصد نفسه أو صدته نفسه عن دعوة الحق، وناصبها، وناصب صاحبها العداء وكان كما حدث عن ذلك بنفسه: «كنت فى نفسى على دين.. وكنت ملكا فى قومي، فلما سمعت بالرسول كرهته»^(١).

وجهر بالرفض، وحرّض قومه على عدم الانصياح.. والإذعان.. بل وحرّض على محمد وألب عليه، واشترك هو وقومه على من كانوا يناوئونه، ويحاربونه حتى لقد أصبح مصدر قلق، واضطراب، وإزعاج للدعوة، ولصاحب الدعوة، ولعموم المسلمين فى هذه المنطقة من الأرض، ولم تغلج معه وسيلة.. أية وسيلة لإيقافه، وإبعاد أذاه، وأذى قومه فكان لابد من تأديبه، ومن أطاع الشيطان من قومه، واعتوا على المسلمين!!

* * *

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد صبر على عدى وقومه من طيى كثيرا رجاء أن يثوبوا إلى رشدهم، ويعودوا إلى صوابهم أو يعود إليهم صوابهم.. ويحكموا العقل ويتبصروا فى أمرهم، ويتفهموا الأمور، ويدركوا أن الزمن تغير، وأن الأرض دارت دورتها، وأن الواقع يتكرر لهذه الحياة التى يحيونها بعد أن غدت بغیضة.. مبغضة لا تتمشى مع منطق أو عقل، أو أية فطرة سليمة فطر الله العباد عليها!!

صبر الرسول ﷺ على عدى، وقومه متمنيا أن يشرح الله صدرهم للإسلام فيقبلوه، ويقبلوا عليه ينهلون من مورده العذب الصافى.. ويبغضهم فى الكفر فيعرضوا عنه، ويفروا منه، ويتخلصوا من كدره، وطينته، وأحواله، وبنسبه!!

صبر الرسول ﷺ على عدى وقومه، عسى أن يكفوا عن وضع العراقيل فى طريق الدعوة، وأن يمتنعوا عن تحريض المشركين، وتآليبهم عليه، وعلى أصحابه، وأن يتراجعوا عن إيذاء المسلمين..

والرسول لا يرغب أحدا على الإسلام، ولا يقهر عليه، فهو يمثل لأمر ربه فى الالتزام

(١) الطبرى

بتعاليمه في آداب الدعوة: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة»
[النحل: ١٢٥]

لكن المودة والمسالمة والخلق الطيب تغرى بصاحبها أحيانا، وهو ما حدث في موقف عدى بن حاتم الطائي الذي ظن الحسن بن علي.. والصبر قلة حيلة.. وعدم رد العدوان اعترافا له بالسيادة.. وتسليما له بأن يفعل ما يريد.

فكلما كان الرسول ﷺ يوادعهم، ويسالمهم، ويدعوهم بالحكمة، والموعظة الحسنة.. كانوا يعصون، ويتمادون في الشرك.. والكفر.. ويتسافهون على النبي، ويتجاوزون السفاهة والفحش في القول إلى الاشتراك مع الآخرين والتهمج والإيذاء.. بل والحرب وإراقة الدماء.. ويسمح الله لرسوله.. ويبيح له الرد.. ويحل له وقف المعتدي وكبح جماحه، وإزالة عدوانه ووقف أذاه: «فمن اعتدى عليكم، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» [البقرة: ١٩٤]

ويكلف الرسول صلى الله عليه وسلم بطلا من أبطاله.. وفارسا من فرسان الدعوة، في مختلف مجالاتها: الدينية والعسكرية.. يكلف على بن أبي طالب بإعداد جيش.. والتوجه به إلى قبيلة لطيء لتأديبها، وتأديب ملكها، وزعيمها عدى بن حاتم.

ويصدع على بالأمر.. ويعد جيشه، ويذهب لطيء.. وزعيمها المغرور، ومعه رجال «أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم رُكعاً سُجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود» [الفتح: ٢٩]

رجال أشداء بإيمانهم.. أقوياء بعقيدتهم.. هم مائة وخمسون رجلا لكنهم، واثقون من أنهم الأعلون، وأن من شقوا عصا الطاعة، وخرجوا على الجماعة، وباعوا بإثمهم وعدوانهم، وخسروا بجاهليتهم هم الأدنون!!

ويحس عدى باهتزاز الأرض من تحت قدميه.. وهو قبل غيره يدرك في أعماقه حقيقة أمره.. وأن الأرض لم تكن في يوم ما أبدا تحت قدميه صلبة إذ كان في أعماقه لا يرى في دعوة محمد ما يعاب.. وأن ما يباعد بينه وبين هذه الدعوة ليس ما جاء فيها كما يزعم الجاهليون.. لأن ما جاء فيها يحفظ الحرمات، ويصون الأعراض، ويحمي

الملكيات ولا يقر عبادة الشرك والأوثان، والأصنام!!

ما كان يباعد بين عدى، وبين الدعوة حقيقة ما اشتملت عليه، فقد كان فى أعماقه يدرك أن ما جاء به محمد حق، وصدق.. إنما كان يباعد بينه وبينها ماترتب عليها من أثر، وهو خوفه من أن يحرم مما امتاز به، وما أتيح له فى ظل الشرك من زخرف الدنيا، ومتاعها المادى!!

إنما كان يباعد بينه وبينها أنها تنزل الناس منازلهم الحقيقية من أنفسهم ومن غيرهم، ومن الكون كله بقدر منزلتهم من الخالق جل جلاله.. وسيحرمه هذا من الشان.. والسلطان، وسيعصف بكل ما له على قومه من هيمنة، ومن سلطان.. وسوف لا تبقى له إلا شيئاً واحداً يتميز به إن أراد، وهو التقوى والعمل الصالح.. ميزان القرب أو البعد من الله..

ومنذ ناصب محمدًا العداء، وهو يؤهم نفسه بالقوة.. ويحاول أن يعمق لدى الناس من حوله هذا الوهم على أنه حقيقة.. ويؤكد ذلك بكثرة عدوانه على المسلمين، وإظهار بغضه لمحمد، وكرهاته، مستغلاً سماحة الرسول، وكرم قلبه..

كان عدى فى قرارة نفسه يشعر بضعفه.. وكان يرتجف وجلاً عندما يتصور محمدًا يتخذ منه متوقف المؤدّب.. لأنه يثق تمام الثقة أن محمدًا قادر وبكل المقاييس على تضيق الخناق عليه لو أراد، والإمساك به وعدم إفلاته.. بل والإجهاز عليه فى أية لحظة من اللحظات وفى أي مكان من الأمكنة!!

وبدا له فى الأيام الأخيرة أن محمدًا يعد للفتك به، والإجهاز على شركه وأذاه، وقومه، ومن كُف فقد توازنه، وامتأ قلبه بالرب، وصار لا هم له إلا ملاحقة أخبار خيل محمد.. فيتوهمها مرة فى جنوبيه، وأخرى فى شماليه.. أو تتحرك شرقه أو تسير غربه!!

وأخذ يَفْرِقُ الْفَرَقَ، ويستولى عليه الهلع، وهو يوقن أن يوم الحساب قريب وأن محمدًا لن يفلته.. وهو لابد أخذ بناصيته، وناصية قومه.. ولن يعصمه منه أحد، وبخاصة أن حلفاء السوء تابوا، وأنابوا، وأخذت وفودهم تتوالى على المدينة مذعنة، مبايعة بالإسلام.

استبد بعدى خوف أذهله عن نفسه، وأنساه مركزه، وفى غمرة شعوره بالأسى

والحزن للمصير الذى ينتظره فكر بطريقة عشوائية على عادته الجاهلية.. ونادى غلاما له عربيا كان يعمل عنده راعيا..

وحضر الغلام مفزعا:

- لبيك سيدى..

فقال وهو ذاهل عن نفسه:

- بل قل القطران عليك ياسيدى..

فوجم الغلام.. وأجمته المفاجأة.. فما هكذا يكون كلام الملوك، وما هكذا يكون مظهرهم.. فلم ير أبهة، ولا خيلاء.. بل رأى تخاذلا، وانكسارا يشوبه إحساس بالعجز والمرار.. فسأل بعد لآى:

- ما بال سيدى؟

فأشاح بوجهه عنه، وأشار بيديه إشارات غير مفهومة.. ثم قال:

- اقدم يا غلام.. واستمع إلى جيداً.. ولا تخبر أحدا بما سوف أطلبه منك... وسكت قليلا، ونظر إلى غلامه نظرات غير مستقرة:

- ما أرانى بعد قليل إلا مكبلا بسلاسل.. أساق سوق العبيد إلى محمد.. وإنى والله تارك الديار.. مباد ما بينى، وبينها، فلا يصل إلى محمد أبدا!!

يا غلام.. أعد لى مجموعة من الجمال السمان القوية.. واجعلها فى متناول يدى عند طلبها.. وأعد راحلتين لى ولأهلى وأولادى.. وجهزهما بكل ما تحتاج إليه لسفر طويل.. وتلمس أخبار خيل محمد.. وما أراها إلا قريبة.. فإن وجدتها فأنذرنى بأسرع ما تستطيع..

وقبل أن يجيب الغلام بشئ، والدهشة والحيرة تعقدان لسانه مما يسمع، ومما يرى برزت من جانب الدار أخت عدى.. سفانة بنت حاتم الطائى.. الباقية من أولاد حاتم، وهى أشد حيرة، وأكثر دهشة من الغلام، وحاولت السيطرة على نفسها وهى تسأل أخاها الملك الهارب عن حقيقة ما تسمع وترى:

- لم تعد الجمال يا أخى وتجعلها قريبة منك، وفى متناول يدك!! الضيفان يطرقون

بيتنا أم تراك تريد بيعها؟.. وما حاجة بك إلى بيعها؟!

ولم تعد الراحلة لك، ولأهلك ولولدك.. تراك ذاهبا في رحلة صيد.. إن كان كذلك فلم تصحب معك جمالك؟!

كانت سفاته تدرك- أمر أخيها، وتعرف سره، وكانت الوحيدة القادرة على تفسير التغير الذي حدث له في الأيام الأخيرة.. لكنها ما كانت تتصور أبدا أن يهرب.. هذا الاخ الملك؟!

وارتبك لظهور أخته المفاجئ ولم يستطع أن يخفى الحقيقة.. وإن أخفاها على الدنيا كلها فلم يقدر على إخفائها عن أخته..

- ما أرى محمد إلا قريبا.. وإن هو وحق الإله إلا قاصدي.. وما أشك في اقتراب منيتي إن بقيت!!

فقال في عجب واستنكار شديدين:

- أشم ريحا لم تكن يوما في آل حاتم.. أتعد للهرب يا أخى؟!

- وما الذي ييقيني؟!

- قومك.. وأهلك.. وولدك..

- قومي يتدبرون أمرهم.. أما أهلى وولدى فسأحملهم، وسأذهب بعيدا.. بعيدا.. إلى الشام مع أهل ديني.

في سخرية وتحد:

- ومنذ متى كان لك دين؟! وإن أبيت إلا الرحيل فأعد لي راحلة تحملني معك علب

إلى الشام!!

ففاجأها بما كاد يصعقها.. أو يصيبها بالشلل التام:

- بل ستبقين هنا.. ستبقين مع كل القوم هنا..

- أوتهدى يا أخى الملك من حمى أصابتك.. أم أنك أفرطت في الشراب؟!

- لا هذا ولا ذاك.. هذا قرار اتخذته..

- إنه قرار خاطئ .. أن تترك قومك، وتتركني.. هذا قرار خاطئ !!

فسكت ولم يرد.

فأردفت:

- أولا تخشى على إذا هجمت خيل محمد، وأصابتنى فيمن أصابت؟!

قصمت ولم يرد:

فأردفت:

- أو تترك عرضك.. وشرفك؟!

فأحجم ولم يرد..

فأردفت:

- أو لست عرضك؟! أو لست شرفك؟!

فقتلته ولم يرد:

فأردفت:

- إذن فاذهب.. لا كُسييت ، ولا أُطعمت.. وليتولاني إله «قلس» وولت عنه خائبة

حزينة

* * *

والفلام يغادر المراعى إلى الديار.. وفي ثنية من ثنيات الوادى رأى خيلا تستتر
هناك استعدادا للإغارة.. فولى هاريا إلى سيده.. وأخبره الخبر ثم عاونه بتقريب
الجمال.. والراحتين.. فحمل عليهما أهله وولده، وانصرف موايا الأدبار تحت جناح تلك
الليلة قاصدا الشام لينزل على قومه ممن اعتبرهم من أهل دينه من نصارى الشام.

وحاولت أخته إثناءه.. أو أن يأخذها معه.. لكنه لم يستجب.

تعلقت بحمائل راحلته باكية متوسلة أن يدفع عنها العار، فباعدها وركض وكأنها ليست بأخته.. وكأنه ليس بأخيها!!

لم تشفع عنده توسلاتها.. ولا رجاؤها.. كما لم تلن دموعها، ولا نشيجها، ولا تذكيرها له بأنها أخته، ولا خوفها من مصيرها الذي ينتظرها، وأنها لن تكون إلا سبية.. كل هذا لم يلبس قساوة قلبه.. فصاحت نادية:

- واحسرتاه.. واحر قلباه!!

وجعلت تولول، وتندب حظها في أخيها.. وفي دنياها كلها.. بينما هو يتخلص منها ويهرب!!

* * *

واجتمع القوم من طيئ على ولوة سفانة بنت حاتم الطائي.. ولم يصدقوا ما روت من هرب أخيها كما لم يصدقوا ما قيل عن خيل محمد خلف الوادي تنتظر لحظة الإغارة..

وبعد الفجر بقليل أفاق القوم على سيوف الفرسان تعمل في رقابهم..

وأدركوا الحقيقة المرة من هروب الملك، وإغارة الجيش..

وكان يوما لم تطلع عليهم فيه شمس.

هجم على بن أبي طالب بكتيبة الإيمان.. هجم عليهم في عماية الصبح.. وأخذهم العرب من كل جانب، وسيطر عليهم الوجل فاستسلموا بعد أن هرب فرسانهم معتقين بهربهم أرواحهم من الإزهاق..

عرفوا الحقيقة، وهم يسكرون رجالا ونساء مكبلين في الأصفاد.. يُساقون أسرى سوق القطيع إلى محمد في المدينة.. وتُساق معهم أموالهم غنائم غنمها الجيش المنتصر!!

وعاد على بن أبي طالب منتصرا غانما.. بعد هدم صمنهم «قلس» وأخذ سيفين كانا عنده ضمن النذور، والقرايين التي كانت تُقدم له.

وتمشى سفانة ترسف فى أغلالها .. محكوما عليها بما حُكم على قومها .. تمشى
ذليلة مهينة .. أفقدها الكفر كبرياعها وعزة نفسها، وأهانها الشرك .. ولطخها، وقومها
وأخاها الهارب بالعار!!

تمشى سفانة تندب حظها العاثر، وحملها الثقل من العار تنوء بحمله العشيرة .. بل
القبيلة كلها .. عار أخيها الملك الفار .. الملك الهارب من حماية العرض والشرف بقطع
من الجمال صار عنده أغلى من شرفه وعرضه .. وسوف لا ينفك عنها هذا العار أبد
الدهر.

تحولت بنت أجدود العرب إلى جارية تُباع، وتُشتري كما تباع الجوارى وتشتري فى
سوق الرقيق!!

يا للعار .. لولا أن يديها مغلولتان لهالت التراب على رأسها تعبيرا عن فجيعتها التى
ما فجعتها امرأة عربية من قبل .. وإن تفجعها امرأة عربية من بعد!!

تسير سفانة وسط قومها، ونظراتهم تكاد تخترقها فتتفدز إلى قلبها، وكبدها
فتمزقهما كأسياف مستونة .. أو خناجر مسمومة، أو سهام رزق حادة كآنياب الأغوال
وكأنه ما كان يكفيها عار أخيها وعار أسرها .. فزيد عليها تعذيب قومها لها بنظراتهم
الحادة النفاذة!!

* * *

يعود البطل منتصرا بأمر الله. ويقبل على قائده مستبشرا بما أفاء الله عليه حامدا
ربه .. شاكرا فضله!!

ويستقبله الرسول الكريم عاليا جبينه .. ميمما وجهه صوب السماء .. مبتهلا حامدا
أنعم الله مسبحا له .. مستغفرا .. شاكرا ما منحه من نصر .. وما أذكى من تثبيت،
وإعلاء.

ويأمر النبى صلى الله عليه وسلم بحظيرة تقام أمام المسجد، ويترك فيها الأسرى
ويضرب من حوالهم سور .. وتقام عليهم الحراسة ليلا ونهارا حتى يقضى الله أمرا كان
مفعولا.

* * *

ويتفتح عقل سفانة.. ويتكشف لها بعض من جوانب الحقيقة.. وتستطيع أن ترى على أضوائها بعضاً من خلال نبي الرحمة.. وتدرك أنها عند محمد في الحظيرة ليست أسيرة بقدر ما هي معاقبة.. وقومها على ما ارتكبه في حق محمد وأصحابه، وما اقترفوه ضده، وضد أصحابه من إساءات، وبذاءات تكررت في سنوات طويلة، مضت.. نعم تدرك على ضوء هذه الحقيقة أنها في الحظيرة ليست أسيرة.. فلا تتناسب الحظيرة إلا مع البهائم.. ولعل هذا يكون آخر درس يقدمه محمد لهم لعلهم أن يفقهوا من غشية الجاهلية!!

ولعلها فهمت الدرس جيداً، ووعته.. وعرفت من خلال تفكير عميق أتاحه لها حبسها في الحظيرة أنهم جميعاً ما كانوا يعيشون عيشة آدمية.. ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ﴾ [الفرقان: ٤٤]

ومحمد إنما ينزل الناس منازلهم التي يستحقونها، والتي تليق بهم أحسست سفانة أن بقاءها في الحظيرة مرهون بتغيرها.. من قبل لم يفد أبا سفيان إلا الحظيرة.. إلا أن ربط مع الحمير والبغال!! ولو أفاقت.. وتغيرت.. لتغير حالها.. ولتغيرت منزلتها!! لقد قالت لأخيها إن الإله سيحرسها.. وسيحميها، وما هو ذا الإله يتحطم، ولا يقدر على حماية نفسه.. فمن يحميها؟!

وتزداد الأضواء إضاءة للنفوس.. والقلوب، والعقول.. ويمر الرسول بين حين وآخر يتفقد الأسرى.. يتفقد عليم بأحوالهم.. شفيق لهم.. عطوف عليهم.. رحيم بهم..

وتطمئن سفانة إليه.. وتأنس إلى جانبه.. وتطمعها رحمته في الإفضاء إليه بدخيلة نفسها.. ما عادت تحس به قائداً منتصراً.. بل أحست به أبا ينزل العقاب بأبنائه عندما يخطئون.. ويرفع العقاب عندما يستقيم أمرهم، وينصلح حالهم.

وتقترب سفانة من الصلاح.. فتقوم إلى الرسول الكريم وهو يمر بجوارها.. وتحديثه حديث مكلومة في أخيها، وقومها.. لا حديث سببية!!

– يا طبيب النفوس والقلوب.. يا أرحم الناس بالناس، وأرفقهم بهم، وأكثرهم عطفًا وحنانًا لهم.. يا رسول الله: هلك الوالد.. وغاب الوافد فامنن على من الله عليك».

وتغمر قلبها السعادة، ويحيط بها الأُنس من كل جانب، ويشرق في نفسها الأمل وحبيب الرحمن يجيبها:

– ومن وأفدك؟! –

فتقول في لهفة وشوق:

– عدى بن حاتم.

فيقول الرسول ﷺ في نبرة أسف وإشفاق:

– «الفار من الله ورسوله»؟^(١)

ويتركها، وينصرف إلى ما هو أهم ممن هم في الحظيرة جميعاً.. فما يزال لهم وقت يقضونه حتى تتكشف الغشاوة التي رانت على القلوب والعقول.

وتحزن سفانة.. لأن الرسول اقتضب حديثه معها وتركها.

كانت تتمنى لو يطول.. ويطول إلى الأبد فلقد اكتشفت أنه ليس أفضل، ولا أحب ولا أحلى من الحديث مع رسول الله.. ولولا عار أخيها الذي ما فتى يطاردها، ويتفوق في مراره وألمه على مرار وألم الأسر في الحظيرة

* * *

ويمر الرسول ﷺ في اليوم التالي يطمئن على حال الأسرى كعادته، ولما يأذن الله له فيهم بشئ.

وتعاود سفانة الحديث.. أو الحوار الشهي.. حوار اللسان ينفذ عبيره الطيب إلى سويداء القلب، وأعماق الفؤاد.. وتتردد أصدائه في جنبات النفس فتخشع وتقيء إلى أمر الله!!

(١) ابن هشام ج٢

تقول سفانة ما قالت بالأمس.. وتسمع من الرسول الكريم فى جوابه ما أجاب به بالأمس!!

ويعمر اليوم ولا تعلم إن كانت تواتيها فرصة أخرى أم لا.. ولا تدري سفانة أتفرح لأن قلبها تفتح لنور اليقين.. أم تحزن لأن أملها الذى كانت تؤمله، وتفتحت له نوافذه بل وأبوابه.. قد غلقت منه نوافذه، وأحكمت أبوابه من دون تحقيق رغبته! إلا أن الرسول ﷺ يمر فى اليوم التالى، وهو اليوم الثالث على التوالى..

فما كان يمل السعى من أجل تبليغ رسالة ربه، ولا فى الاطمئنان على الناس والعباد!!

وهمت أن تعاود الحديث.. لكن توهمها بعدم استجابة الرسول فى المرتين السابقتين كاد يثنيها فتقعد متحسرة حزينة.

إلا أن رجلا كان يمر مع الرسول.. يسير خلفه.. ولا يتقدمه.. يحرضها سرا على الحديث.. ومعاودة الطلب.. يحرضها على أن تعاود الحوار، ولا تياس.. فاليأس ليس من طبيعة المؤمنين.. ولا الذين يتعاملون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا من استطاع فهمه، وأحس حديه على الناس.. كل الناس على السواء.

ويعاود سفانة الأمل.. وتتحرك أوتار قلبها برجاء اعتقدت تحققه.. فقالت للمرة الثالثة فى اليوم الثالث على التوالى:

- يا رحمة مهداة.. ولسان صدق فى العالمين.. وملاذ الخائفين، وأمل المجاهدين، ومحرد العبيد.. يا من تحمل الكل.. وتقرى الضيف.. وتعين على نواشب الدهر: «يا رسول الله.. هلك الوالد وغاب الوافد، فامنن على من الله عليك».

وتوهجت فى قلبها شعلة من نور.. وأفعم صدرها بسعادة عامرة والرسول الكريم يقول:

- «قد فعلت.. فلا تعجل حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم أذنيني»^(١)

(١) ابن هشام ج٢ - أذنيتي: أعلمني أو أخبريني.

وبقدر ما ملأت جوانحها السعادة لقرب الخلاص مما ظنته أسرا.. شعرت بضيق..
 وديب خواء إلى النفس والقلب، وكانا قاربا على الامتلاء رافة، وأنسا، وحنانا من
 حضرة رسول الله.. وتحدث نفسها: «يا لك من نبي رسول حقا وصدقا!! تخشى على
 وأنا أسيرتك، وتحفظ كرامتى وأنا سبيتك، وتصون كبريائى، وتخاف على عرضى
 وشرفى من أن يمسا وأنا فى الحظيرة.. فتشترط لذك ما ظننته قيذا، وإطلاقى مما
 اعتبرته أسرا، وجود الأمين من قومى.. ومن أثق فيه ليوصلنى إلى بلادى لتضمن نقاء
 ثوبى، ونظافة ذيلى، وطهارة عرضى وشرفى، وقد هرب منهما أذى.. ابن أبى وأمى..
 حامى عرضى وشرفى!!

يا لك من نبي ورسول حقا وصدقا.. والله الله على من كذبوك وآذوك.. لهم النكال
 والخسران المبين..»

وبقيت تنتظر من يقدم من قومها على يكون ثقة..

وكلما أحست بقرب قدوم من يحملها كما وعد الرسول الرحيم، اعتراها إحساس
 بالغربة، وشعور بالكآبة، وإقرار بأن حظيرة الرسول خير من الدنيا كلها.. لكنها رغم
 ذلك كانت مدفوعة بخاطر كان يحملها قسرا على أن تخرج وتذهب لا إلى ديارها..
 وإنما إلى من تنكر لها.. إلى أخيها بالشام!!

أما لماذا تود البقاء حتى ولو ظلت فى الحظيرة بقية عمرها؟

قلها يقول، وينطق: إنه رسول الله.. تبقى بجواره، وتراه فى غدوه ورواحه..
 ويقدم على المدينة ركب.. قالوا لها: إنه من قضاة.. وقال فريق: إن الركب من بلى..
 لا يهم.. فلها فى قضاة أهل وثقة.. ولها فى بلى كذلك من ينفقون الذل، ويفرقون من
 العار.. ويحافظون على العرض والشرف محافظتهم على أرواحهم.

ثم جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخبرته بما كان طلبه منها:

– يارسول الله.. قد قدم رهم^(١) من قومى لى فيهم ثقة وبلاغ.

وجاشت عواطفها.. وانخرطت فى بكاء عظيم ورسول الله ﷺ يخرجها من

(١) رهم: جماعة

محبسها، ويحنو عليها، ويرق لها.. ثم يكسوها كسوة تليق بكرم محتدها، ونباله أصلها، وكأنه يقول للناس: «أكرموا عزيز قوم ذل!»

ثم يعطيها المال الذى تنفق منه على نفسها.. بل وعلى من معها طوال رحلتها إلى الشام.. ويمنحها الراحلة التى سترحل عليها.. والتى ستحملها حتى توصلها ما ترجو، وتقصد ..

وخرجت سفانة من عند رسول الله ﷺ عروسا فى أبهى حللها، وأروع زينتها: النفسية، والروحية، والوجدانية، وكأنها لم تُسَقْ إليه أسيره بجللها وقومها العار!!

خرجت سفانة من عروس المدائن «يثرب» عروس الأسارى تحفظها عناية الله وتكفلها رعايته، على يدى النبی الأمين، والرسول الكريم محمد بن عبد الله!!

* * *

منذ ترك عدى الديار هاربا لا يلوى على شىء.. ومنذ وصل إلى من يدعى أنهم قومه من دينه، وهو لا يفكر فى شىء.. لا يعبأ بشىء.

كان يدرك أن الدائرة تدور عليه، وعلى قومه، وكان يرى الطوفان قادما من بعيد يكتسح أمامه أى شىء.. ويفرق بعده كل شىء..

وكان الحال والعرف يقتضيان أن يبقى مع قومه الذين نصبوه ملكا عليهم وأباحوا له ما حرموه على أنفسهم، وأن يقاسمهم متاعهم، وماله.

لكنها الجاهلية بكل ما تحمله بين طياتها من أنانية، وغدر، وخلف للوعد، ونكت للعهد.

لم يهرب عدى من قومه فحسب.. وإنما هرب من عرضه، وشرفه عندما ترك أخته الوحيدة.. وداس على كل شىء فى سبيل أن ينجو، وأهله، وولده وقسطا زهيدا من ماله.

وعدى فى الشام ينعم بالاستقرار، والراحة، وهوى البال لاعتقاده فى بعد ما بينه وبين محمد من مسافات تقطع الطريق على أى أذى يلحقه أو ضرر يمس أو يمس أهله وولده!

وعدى فى الشام يومهم نفسه ببعد الخطر.. وهو يجلس بين بنيه فى دعة يفاجأ بما لم يكن فى خاطر أو فى الحساب.

ينظر فيصطدم بصره براحلة.. عليها هودج يقودها، ويتبعها أناس عرف من ملامحهم إلى أى القبائل ينتمون.. فدقق النظر، وقد هجس به هاجس.. وتأمل الركب وهم ينيخون الدابة أمامه بعد أن عرفوا أنه عدى.. ثم ينزل من الهودج امرأة فى أحلى ملابس.. وأكمل مظهر.. امرأة كأنها عروس فى يوم زفافها.. لولا أن لها ملامح أخته سفانة..

ويضطرب قلبه اضطرابا عظيما.. ويخفق خفقانا شديدا، وهى تقف غير بعيدة عنه، وتصوب إليه نظرات حادة.. يقدح منها الشرر.. ثم تقدم عليه فى حدة تكاد تفسد الشكل والروح معا..

ويعلم أنها أخته.. وهى تقترب منه.. وتندفع فى كلامها، وتعنيفها، ولومها دون أن تعبأ به أو بمن يستمع من القوم المرافقين.
تقول سفانة فى غيظ وجفاء:

- القاطع الظالم.. احتملت بأهلك وولدك، وتركت بقية والدك.. عورتك.. كلام قاس.. وشديد.. ولعلها وهى تشتد عليه وهى من صلبه تحاول أن تبين له جرم ما ارتكب لا فى حقها فحسب، ولكن فى حق محمد أيضا..

وكأنها تقول له إذا كنت ظلمت من هم من لحكم، وأهدرت كرامتهم دون مبرر.. أفبعد عنك أنك قد ظلمت محمدا.. وغررت بقومك، وهم يتبعونك على كراهيته والحد عليه؟!

وكان تقرعها، وتعنيفها أشد ألما من لسع السياط.. أو الحرق بالنار، وقد بدا يفيق من سكرته التى أغرقه فيها شيطانه.. فقال:

- أى أخت.. لا تقولى إلا خيرا.. فوالله ما لى عذر.. وأعترف بذنبي، وخطيئتي.. وأقر أنى صنعت ما ذكرت، وإن أكون نذلا مرتين، ولا جبانا أو عاقا فى الحالتين.. ولأنت الآن بين أهلك.. تقيمين معى على الحرب والسعة، وما أرجو إلا أن تغفرى لى زلتى.. وتصفحى عن إساعتى، فوالله ما أنا فى حاجة أشد مما أنا فى حاجة إليك الآن.

أعرف حزمك.. ورجاحة عقلك.. وإننى مستشيرك فلا تحنقى على وتكذيبى.. إننى مستشيرك.. ومستنصحك، فأشيرى على وأخلصى النصيح!!

فقلت وقد أخذ قلبها المفعم يرق له.. ويحنو عليه.. إذ أخذ يحس بمدى ما هو فيه من تورط.. ومن يؤس وخذلان، وهى ما تزال واعية الدرس: «أكرموا عزيز قوم ذل».

قالت:

- هات يا أختى ما عندك.. وإننى والله ما قدمت عليك إلا رجاء الخير لك، وما عتبت إلا لأنك أختى، وأمرك يهمنى، وفى المدينة يقولون: ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ [المائدة: ٩٥]

فقال فى لهفة شديدة:

- ماذا ترين فى أمر هذا الرجل؟! لقد كنت قريبة من محمد.. ولك نظر ثاقب وبصيرة نافذة.. فما ترين فى أمر محمد؟

فأجابت فى حزم وبلا تردد:

- أرى والله أن تلحق به.. وأن تذهب إليه.. وأن يكون ذلك سريعا فلا تتمهل، ولا تتريث، وإن رأيت ما رأيت، وكان نبيا، يكون لك فضل السبق إليه وإن كنت تأخرت زمنا طويلا ما كان يحق لك.. ولك أنت بالذات يا بن أجود العرب، وأفهمهم للناس.. ما كان يحق لك أن تتأخر..

ثم غمغمت:

- وإن يكن ملكا.. فلا يذل أحد بقرب مليكه.. وإنما له العز وأى عز!!

لم ترد سفانة أن تفرض عليه رأيا معينا مخافة أن يترك هذا رد فعل لديه.. فيتهاهما فى أبهتها التى صنعها لها محمد بالتحيز له.. وإنما تركت له الخيار.. فلم تنس أنه كان ملكا، وكانت له الكلمة.. ولم يتعود إلا أن يقول هو.. وأن يرى هو.. لذا قدرت بعد أن يذهب إلى محمد.. وأن يرى ما رأت، وأن يدرك ما أدركت.. فإن أضواء الحقيقة ستخالط عقله، وقلبه، وسيصل إلى ما وصلت، وسينوق حلوة كلمة «رسول الله» عندما ينطقها.. مجرد أن ينطقها فى حضرة النبى ﷺ!!

تركت الخيار له.. وهى واثقة من أنه سينتهى حتما إلى ما انتهت إليه.. وسيصدق

بمحمد نبيا، ورسولا، وسيؤمن كما آمن الناس، ويؤمن للدين الجديد، ويبايع بالإسلام!!
ولسوف يعود من عند محمد أكثر منعة.. وأوفر عزا.. وأمانا.. وسلاما.. بما لا يقاس
بما كان عليه قبل الإسلام.

سعدت سفانة، وأدركت حكمة الله في أنها رغم حبها البقاء الطويل بجوار رسول
الله حتى ولو كان في حظيرتها.. أدركت حكمة الله في إصرارها على أن تلحق بأخيها
في الشام رغم ما أحسسته من خواء نفسى وروحى، وهى تفكر مجرد التفكير فى ترك
الرسول بعد أن كانت قاربت على الامتلاء، وهى فى الحظيرة!!

سعدت وأدركت الحكمة.. وازدادت يقينا، وهى تسمع رأى أخيها، وقراره الأخير:

– بحق الإله إن هذا إلا رأى.

* * *

وعدى يتجه إلى المدينة رسم لمحمد صورا كثيرة.. تخيلها ذات أشكال، وألوان،
وكانت تتلشى هذه الصور واحدة تلو الأخرى، وهو يقترب من المدينة.. ما عدا صورة
واحدة علقت بذهنه.. هى صورة الملك.. قد يكون محمد ملكا..

ويخفق قلبه كلما اقترب خفقانا غريبا لم يألفه من قبل.. خفقانا مفعما بحب غريب
انمحت به كل أثره لكراهية..

وكانت نفسه تهفو بالإيثار.. حتى لقد انسلت منها وهو يقترب من المدينة آخر شعرة
للحق!!

وكانت روحه تخلق فى سماوات بعيدة ثم تعود متقمصة جسده بالطهر، والسمو،
والعفة.. حتى لقد غدا وهو يدخل المدينة.. منجذبا.. ويذهب من فوره إلى المسجد.. يريد
أن يسلم على محمد.. فلقد غدا من اللحظة روحا.. وروحا فقط لا يدري من أمر دنياه
شيئا كبيرا كان أم صغيرا، وهو الأمر الذى جعله لا يحس بمن لقيه، ولا بمن قابله فى
طريقه إلى رسول الله، ومن تقدمه ليدله على مكانه.. غدا روحا.. روحا فقط تخلق فى
سماوات عالم جديد.. أخذت تستبين له معالمه.. وطرقاته.. ويا لها من معالم، وطرقات
كلها نور فى نور!!

– «رباه!! ماذا كنت.. وكيف كنت؟! يا لك يا سفانة.. إن كان نبيا فسيكون لك فضل
السبق.. والله لهو النبي!»

ويلقى الرسول في مسجده.. ويسأله رسول الله ﷺ:

– من الرجل؟!

ويقول:

– عدى بن حاتم الطائي!

وينهض الرسول ﷺ من مجلسه في المسجد.. ويأخذ عديا الضيف الذي طالت
غيبته ويذهب به إلى بيته.. ليقوم له بحق الضيافة.. وحق التكريم، فهو ضيف الرحمن
وهما في الطريق تلقى الرسول امرأة بسيطة.. ضعيفة.. مسنة.. وتستوقفه.. وتحدثه
عن حاجتها حديثا طويلا.. ويذهل عدى بما يرى عما يدور بينهما.. وتطول الوقفة،
والرسول يستمع إليها، ويرفق بها دون ملل من الاستماع أو الوقوف..

ويستيقن عدى من أنه ليس ملكا.. فما هكذا الملوك في أقصى حالات تواضعهم!
وتنتهى المرأة من عرض حالتها، وطلب حاجتها من الرسول.. ولا ينصرف الرسول
قبل أن تنصرف هي..

ثم يواصل الطريق بضيفه إلى بيته.. ذلك البيت البسيط الذي لا يزيد في شكله ولا
تصميمه عن أقل بيت لأفقر إنسان في المدينة!!

ويدلفان إلى الداخل.. لا أثاث.. ولا ريش.. إن هي إلا وسادة محشوة بالليف يعطيها
الرسول لعدى يجلس عليها.. ثم يجلس هو على الأرض!!

ويستقر المجلس.. ويسامر الرسول ضيفه، فيقول له بما يعالج نفسه.. وقلبه وعقله..
وروحه أيضا:

– إيه ياعدى بن حاتم.. ألم تك رَكُو سِيًّا (١)؟!

فيجيب عدى:

(١) الركوسى من الركوسية: وهم قوم لهم دين بين دين النصارى والصائبين.

- بلى!!

فيقول الرسول الكريم:

- أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟!

ويجيب عدى:

- بلى!!

فيقول الرسول الكريم:

- فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك!

فيقول عدى:

- أجل والله!

وهنا وصل عدى إلى نهاية الشوط... ووقف به جواده عند آخر المضمار.. ويتيقن من أن محمد نبيا ورسولا.. لأنه على حد تعبيره.. «يَعْلَمُ ما يُجْهَلُ».

وكان طبيب النفوس والقلوب يعلم أن الذي باعد بين عدى وبين الإسلام.. لم يكن عدم اقتناعه بما جاء به الإسلام.. إنما كان متاع الدنيا، وزينتها.. وميزاتها المادية الرخيصة.. كما كان يدرك أنها ستجرده من هذه الميزات يوما إلى شيء لا يدرى قيمته إلا الله..

لذلك أردف طبيب القلوب، والنفوس موضحا أن الإسلام سينتصر في كل مجال.. وسوف تتجلى هذه الانتصارات في أهم ما يسيطر على البشر منذ الخلق الأول.. وهو المال.. لكنه المال الحلال.. المال الذي يفيد ولا يفسد، يينفع، ولا يضر.. المال المصحوب بالعرق.. والجهد.. والبذل.. المال الذي فيه حق معلوم للسائل والمحروم..

فقال صلى الله عليه وسلم:

- «لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم- المسلمين- فوالله ليوشكن المال أن يفيض عليهم حتى لا يوجد من يأخذه!!
ولعله إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم، وقلة عددهم.. فوالله

ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف!! ولعله إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وإيم الحق ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم^(١).

ويكاد عدى بعد أن رأى ما رأى.. وبعد أن سمع ما سمع.. يكاد يجأر حتى يسمعه كل إنسان في كل مكان..

- لقد نطقت صدقا.. وقلت حقا.. وإيم الحق إنك لنبي الله.. وإنك لمرسل من عند الله.. وإيم الحق ما قلت إلا ما كنت أخفيه بين جوانحي، ولا يصل إليه أحد.. أو يعرف كنهه مخلوق على وجه الأرض..

ثم يهمس وكأنه يستعرض حياته السابقة، وما فيها من كفر، وذنس... وهل يستطيع التكفير عنها.. يهمس في وضوح خاشع:

- يارسول الله.. أشهد ألا إله إلا الله، وأنت يا محمد رسول الله!!

* * *

ويعود عدى.. ويقع ما حدث به الرسول الكريم.. ويطول العمر بعدى حتى يخبر بما كان أخبره به النبي صلى الله عليه وسلم.. ويرى القصور البيض من أرض بابل قد فتحت.. ويرى المرأة تخرج من القادسية في العراق على بعيرها لا تخاف الطريق حتى تحج البيت.. ويحدث عدى فيقول:

- «إيم الحق لتكونن الثالثة: ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه!!»

* * *

(١) ابن هشام ج٢

خير الماكزين!!

عامر بن الطفيل

قال «حُصَيْن» لرفيقه «نمر» ومما عائدان من المراكى يسوقان أمامهما أجمالاً،
وأغناماً كثيرة لسيدهما من بنى عامر:

– لم أعد أطيق يا رفيقى!!

فقال «نمر» فى نبرة حزن واضحة:

– ولا أنا والله يا «حصين»!

فقال حصين فى ضيق:

– لماذا نبقى فى هذا الذل.. وقد منحنا الله أعظم قوة للتحرر، والخلص من هذا
القيد اللعين؟!

إن العقل والمنطق يرفضان هذه المقولة التى يعيش على أنغامها سادة بنى عامر كما
عاش على أنغامها السادة من قريش فى مكة زمناً.. تلك المقولة التى تصنف الناس إلى
عبيد وسادة، وإلى أقوياء وضعفاء، وحكمت بذلك على من اتصفوا بالعبودية أن يظلوا
يرسفون فى أغلالها إلى الأبد!!

لقد جاء محمد، وحطم هذه المقولة، وقضى على كل بواعثها، وبوافعها.. وما عناد
بنى عامر إلا من أجل مصالحهم هم.. ما عناد بنى عامر أو السادة فى بنى عامر إلا
نوع من الأنانية البغيضة الأثمة.. يريدون أن يظلوا سادة ولو بقى الناس كل الناس
عبيداً!!

فقال نمر، ومما تزال نغمة الحزن تغلف صوته:

– دانت الجزيرة كلها أو كادت تدين لأمر الله.. والذين وفدوا على رسول الله ممثلين
لقبائلهم وعشائهم تعلن قبول الدعوة، والإيمان بالله، والتصديق برسوله الكريم.. لم
يفدوا جزافاً.. أو عفو خاطر.

فقال وما زال ضيقه ظاهرا:

- بل كانت وفادتهم مقرين بالدين الحنيف خالعين حياة كاملة إلى حياة جديدة كل الجدة، متحملين تبعات ما أمر به الدين، وما نهى عنه..

كانت هذه الوفادة بكل ما ترتب عليها قائمة على حسابات دقيقة.. بل غاية في الدقة.. لعب فيها المنطق بعد تجارب عديدة مريرة دورا لا يخطئ في جليته، ولا في دقيقته، وكانت النتيجة مقنعة أقر بها العقل عن يقين لا يقبل الجدل أو الشك!!

فقال نمر:

- وما المفاخرة التي سمعناها من بعض الوفود في حضرة محمد إلا النزع الأخير في جسد الشرك المنهار، وإلا احتضاره المحتضر، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

فقال حصين في أسى:

- إن كان شذ عن جادة الصواب وقد بنى عامر، وانحرف عن الطريق السوى واطرح المنطق، وابتعد عن العقل البصير، فإن بنى عامر آتون حتما للنور، وهم بلا شك سيُفلَبون في النهاية صوت العقل، وسيدركون أن النجاة ليست في أنفة زعمائهم، وتعصبهم لأنفسهم، وتعلقهم بزعامة واهية، وعبادة يعلمون قبل غيرهم أنها عبادة لا تحترم في قليل، ولا في كثير.. وأن عقيدتهم التي يعتقدونها ليست إلا غطاء زائفا لحياة لا حياة فيها:

فقال نمر، وكأنه يعزى نفسه:

- إن كان عذر بنى عامر أنهم تأخروا عن الإسلام زمنا، وإن كان يسيرا بسبب اختيارهم من يفدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمثال عامر بن الطفيل، وأريد بن قيس وجبار بن سلمى، وهم الثلاثة رؤساء القوم، وشياطينهم.. إن كان عذر بنى عامر أنهم تأخروا عن الإسلام لأنهم لم يحسنوا اختيار من يرتادون لهم طريق الحياة الصحيحة، وقد واثت الفرصة لذلك فإن أقبح من هذا العذر أنهم سلفا صَمُوا أذانهم عن الصيحة التي ترددت أصدائها في جنبات الجزيرة لتضع الحق في نصابه وتدحض الباطل الذي استشرى، وطال به الأمد في هذه الأماكن ذات السوابق الدينية

السليمة منذ ابراهيم وولده اسماعيل، والتي بقيت فيها الكعبة شاهد صدق على التوحيد والإقرار بريبيية الواحد، الأحد، الفرد الصمد.

وتوقف عن الكلام وحصين يجرى خلف نعجة شذت عن القطيع.. ثم يعيدها.. وتهدأ أنفاسه ثم يقول لنمر:

- نعم.. صمت بنو عامر أذانها، وأغلقت عقولها، وقلوبها من دون هذه الصيحة.. وكأنهم بهذا الاختيار يجازون أنفسهم بأنفسهم.. ويوقعون العقاب على أنفسهم بأنفسهم.. فإنهم وقد علموا بعد أن تأخرهم في قبول الإسلام كان هو العقاب المر، وأن هذه الفترة اليسيرة في عمر الزمن كانت عليهم أطول من دهر.. عاشوها لا يفرقون فيها بين حق، وباطل، ولا بين إنسان وحيوان! فقال نمر:

- كان على بنى عامر أن يعرفوا منذ اللحظة الأولى أنهم لن يدركوا بهذه الوفاة خيرا، وإن يدركهم خير.. فقد رفض مملوهم الانصياع، والانقياد، والإقرار بالإسلام. فقال حصين.. وهو يتنهد في مرارة وألم:

- رفض مملوهم أن يعبوا من الحياة الحقيقية يستقونها من رسول الله.. ثم ينقلونها لمن ملكوهم زمام أمرهم، واتمنوهم على أعراضهم وأموالهم وأنفسهم من بنى عامر!

فقال نمر في ضيق وحزن شديد:

- لقد تمادى الرفض فيهم حد التآمر على هذه الحياة ييغون طمسها، والقضاء عليها.. فغنوا يمكرون بنبعها، وهم يحاولون الكيد لرسول الله.. والتآمر عليه.. وهيئات أن يغيض النبع.. وهيئات هيئات أن يصلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.. فقال نمر في توسل:

- ليتهم أرهفوا السمع لبلابل الحق تشدو بأغاريده الصادقة، وليتهم تركوا البصر في رؤاه ترشده أنوار الهداية.. بل ليتهم تركوا للقلوب نوافذ مفتحة تغمرها أضواء الحقيقة!!

فمنذ اللحظة الأولى رفض عامر بن الطفيل الانصياع.. منذ اللحظة الأولى رفض عامر بن الطفيل الحياة.

فقال حصين:

- ما أشقاء وهو يرفضها.. بل ما أنكده وما أنحسه وهو يحزم أمره، ويعزم على قتل الرسول.

قال له قومه، وهو يتجه إلى المدينة:

«يا عامر.. إن الناس قد أسلموا فأسلم!»

فأجابهم في صلف، وغرور، وكبرياء هو صلف، وغرور وكبرياء الأحمق:

«والله لقد كنت ألبيت أن لا أنتهى حتى تتبع العرب عقبي.. أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش؟!»

فقال نمر في حدة:

- خسى والله.. يحلم بزعامه.. هي زعامه ضالة، ومضلة معا.. يحلم بزعامه العرب جميعا.. ويستكثر.. بل يرفض في وهم هذه الزعامه أن يسير خلف محمد..

فتشاغل حصين بأجماله قليلا.. ثم عاد وقال في دهشة:

- تصور.. حتى اسم محمد لا ينطق به؟! فما هو عنده إلا فتى!! مجرد فتى من قريش!!

فقال نمر في تقزز:

- أى صلف هذا، وأى غرور أحمق يتمكن من هذا الرجل.. وأى حقد أسود يسيطر على عقله، وقلبه، وكل كيانه!!

فقال حصين:

- إن ما حدث كان فظيعا..

لقد دبر عامر، وأربد خطة لقتل محمد.. وهما في الطريق إلى المدينة.. يدنو عامر من الرسول.. وبقرب منه أريد.. والطيور على أشكالها تقع..

يبسط عامر لأريد خطته.. وأريد هو الأمين على تنفيذها..

فقال نمر فى إنكار:

- اعتقد الوغد أنه يتخلص من محمد فى هذه الرحلة!!

فقال حصين فى أسف بالغ:

- يضع عامر الخطة متصورا أن عقله الفارغ، وقلبه الخاوى يمكن أن يمنحاه خطة تجوز على محمد.. كما جازت على غيره ممن تعامل معهم من قبل فى ستر الجاهلية.. غير عالم أن ظلمات الجاهلية انقشعت أو بسبيلها إلى أن تنقشع إلى غير رجعة، وأن ما جاز بالأمس على غير محمد يستحيل أن يجوز على محمد لسبب بسيط وخطير فى الوقت ذاته، وهو أن محمدا مؤيد من قبل ربه.. وربه حاميه، وراعيه وهو الذى يتولى الدفاع عنه.

فقال نمر فى زهو ورضا:

- نعم والله حاميه وراعيه، وإن يضيعه الله أبدا!!

فقال حصين:

قل لأريد تفاصيل الخطة.. أو تفاصيل المؤامرة.. ويا لها من جريمة.. إنها سموم ناعمة امتلا بها جوف الشيطان، وأراد أن يفرغها فى محمد!!

فعلق نمر فى حنق:

- بئس ما اقترفا!!

فأكمل حصين:

قال عامر لأريد:

إذا قدمنا على المدينة باعتبارنا وفد بنى عامر الذى جاء يبايع بالإسلام.. سينخدع بذلك محمد.. وسأستغل أنا الموقف.. وأعمل على استدراجه.. ولسوف أشاغله حتى أحوله عنك بحديثي.. وسأجعله يتجه إلى بكل كيانه.. فيكون وجهه فى وجهي.. وعيناه فى عيني.. سأجعله لا يبصر ما عن يمينه ولا عن شماله.. وعندئذ تأتي أنت من خلفه، فتقفز عليه.. وتهوى بسيفك على رقبته.. فتقتله، وأقتله، وأفرغ أنا وأنت منه.. فلا يكون محمد، ولا يكون دين محمد.. بل لا يكون إلا أنا وأنت، ونبقى ويبقى لنا دين الآباء والأجداد.. وتصير لنا القيادة والزعامة على العرب جميعا!!

فقال نمر:

– ﴿ويعكرون، ويمكر الله، والله خير الماكرين﴾ [الأنفال: ٣٠]

فعقب حصين:

– نعم.. وصدق الله العظيم..

ويسكت قليلا كأنه يتدبر معنى كلام رب العالمين ثم يردف:

وقدموا ثلاثتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم.. والتقوا به.. ويبقى جبار يحرس النواب..

ولم يكذب عامر بن الطفيل خبرا.. أو يضيع وقتا.. وشرع منذ اللحظة في تنفيذ خطته الشيطانية.. ونادى على رسول الله:

– «يا محمد خالتي^(١) أريدك أخا وصديقا.. أكون لك خليلا.. وأكون وإياك بحكم الصداقة في خلوة.. أكون أنا وأنت على انفراد في خلوة

فيعلق نمر في لهفة:

– بأبى أنت وأمى يا رسول الله!!

ويعقب حصين عليه مرددا مثل قوله.. ثم يردف:

– لا يستسيغ رسول الله صلى الله عليه وسلم منطق عامر.. ولا يستريح للهجته ويعلم رفضه مؤاخاة مشرك قائلا:

– «لا والله حتى تؤمن بالله وحده»

فيسعد نمر.. وتبدورنة السعادة في صوته وهو يعلق:

– فذاك أبى وأمى يا حبيب الله.

ثم يردف:

– ويعود عامر بن الطفيل.. يعود نحو النور ويكرر: يا محمد خالتي..

(١) خالتي: اجعلنى لك خليلا.

وجعل يكلم الرسول، وينتظر من أريد أن يقوم بدوره الذى رسمه له فى الخطة الشيطانية كما قدر وأراد..

وأخذ فى إصرار يشاغل رسول الله، وهو يتوقع من أريد أن ينفذ ما كان أمره به.. وأريد يقف مكتوف اليدين كأنه غُلُّ بقيود من حديد.. ذاهلا حتى عن نفسه وعن حوله.. لا يحير شيئا من أمره.. ينظر فى دهشة، وحيرة معا.. وقد فغر فاه وجحظت عيناه دون حراك.

وحار عامر من صنع صاحبه.. ما له لا يتحرك؟! ما له لا ينفذ ما اتفقا عليه وقد أتاح له كل الفرص، وهياً له كل إمكانيات الغدر، والقتل، والقتل؟!

ورغم حيرته من صاحبه ما يزال يطمع فى تنفيذ خطته.. ويلج على الرسول قصد مشاغلة به عن تنفيذ ما يدبر له.

فعلق نمر:

– يزعم هذا اللعين أنه يستطيع إطفاء نور الله، وهو لا يدري أن الله متم نوره، ولو كره الكافرون!

فيقول حصين:

– يلح.. يا محمد خالنى.. ويرد الرسول رده الذى لا يتغير، ولا يحيد عنه.. رده الواثق من ربه، وصدق نبوته ودعوته، ويقينه أن الله راعيه.. وحاميه.. ومؤيده، وناصره، وأن يضيئه:

« لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له ».

واستعصى على عامر أمره.. وخشى افتضاح موقفه وهو بين يدي محمد.. فانهزم فى خزي وبهتان وأدبر على عقبيه فارا من أمام رسول الله.. وظلام شرك الجزيرة كلها يتجمع ليتكور فى عينيه، وعينى صاحبيه.. ويهرع إلى جواده يمتطيه ويولى الأدبار قائلا للنبي فى نزع أخير: «أما والله لاملأنها عليك يا محمد خيلا.. ورجلا!»

ويتبعه صنواه: أريد بن قيس، وجبار بن سلمى.

* * *

ويتوارى ثلاثتهم فى غبار أثارته الخيول بحوافرها .. وتبتلعهم ضبابات الصحراء ..
كما ابتلعهم ظلام العصيان .. ويجد الرسول ألا أمل فى عامر .. فيضرع إلى الله قائلا:
«اللهم اكفنى عامر بن الطفيل».

* * *

فقال نمر:

– غادروا .. وفارقوا .. لا رُبُّوا ، ولا عادوا .

فقال حصين:

– ما ابتلعوا كثيرا عن أرض الرحمة حتى جعلت لعنة الله تطاردهم .. وكانت بداية
ملاحقة لعنة الله لهؤلاء الجاحدين أن أخذ عامر يعاقب أربد محنقا مغيظا، والشر يتقد
فى عينيه .. وجعله الغيظ يتهم صديقه بالتقصير .. بل التآمر عليه والخيانة له .. وإفشال
الخطة والتدبير ..

ويدب الشقق فى قلوب الرفاق .. وصدق الله .. «تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى»
[الحشر: ١٤]

ويحتدم الخلاف بين عامر، وأربد، وبوادر التصدع تعزل كلا منهما عن الآخر،
فيصرخ عامر فى وجه صديق غدره، وكأنه وهو يصرخ يَخْرُجُ من جوفه رِيحٌ حاقدة
تحمل فحيحا كفحيح الأفعى:

– ويلك يا أربد .. أين ما كنت أمرتك به؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو
أخوف على نفسى منك .. وايم الله لا أخافك بعد اليوم أبدا!!!

ويلقى أربد الجفاء بأشد منه .. والقسوة بأعنف منها، وأواصر الصداقة والدم
تتقطع، وتتآكل وهو يحاول دحض تهمة عامر له بالعجز والجبن والخيانة .

وشغلته أنفته وغروره، كما شغلا صاحبه من قبل .. وأعماه كبرياؤه عن تبين حقيقة
مذهلة عاشها واقعا ملموسا، ونطق بها وهو يدافع عن نفسه دون أن تحظى منه ولو
بلحظة عابرة من الفكر الصادق، والقلب الواعى اليقظ .. أعماه كبرياؤه عن تبين برهان
ساطع لجلاء الحق، وطمس الباطل.

قال أربد:

- لا أبا لك.. خسئت والله، وخسئت همتك مروءتك.. تصفنى بالعجز وتتهمنى بالجبن وأنت العجز نفسه.. والجبن كله.

إليك هذه الحقيقة التي كنت حاولت إخفاءها حتى لا يطمع فينا الطامعون.. والله ما هممت بالذي أمرتني به إلا وجدتك تدخل بيني وبين الرجل.. فما كنت أنظر عن يميني ولا عن شمالي ولا أمامي، ولا خلفي أتبين محمدا أين هو إلا كنت أراك أنت أفكنت أضريك بالسيف؟ أفكنت أقتلك أنت؟!

فكاد نمر يصبح معجبا:

- يا رحمة الله!! لم يكونوا يواجهون محمدا ببغضائهم.. ولم يكونوا ينفثون فيه سمومهم فقد احتوت محمدا عناية ربه.. وحجبته عن أنظارهم، وأبعدت عنه غدرهم، فراحوا يواجهون بعضهم البعض بهذه البغضاء.. وينفثون حقدهم، وسمومهم في أنفسهم.. ومحمد الطيب النصح يكافح في دأب ليستل الضغينة، والحق.. يستل الداء من عقول وقلوب مريضة.. استشرى مرضها.. فلم يعد ينفعها إلا علاجه يمنع به الداء، ويحفظ على الجنس البشري كله كرامته المهذرة، وإنسانيته المفقودة، وأدميته التي أودى بها الجهل، وأهاضها.. وحطها في الدرك الأسفل!!

نزع محمد الأقنعة عن وجوههم فبدت قبيحة.. بدت شائنة.. وأراد أن يعيد لهذه الوجوه طبيعتها الحلوة.. طبيعتها الفطرية السليمة التي أوجدها الله عليها يوم أوجدتهم على ظهر الأرض، وقد كانوا عدما.. أراد محمد بدعوة الحق أن يزيل عنها مسخ الجاهلية.. وشوه الباطل.. وزيف الكفر.. وأرادوا إلا أن تظل هكذا صورة مجسدة للضلال والبهتان!!

وسكت نمر متأملا..

فقال حصين:

- تواروا عن محمد في ترابهم المثار من حوافر الخيل.. لكنهم لم يتواروا عن خالق محمد ومرسله.. كان المجهول في انتظارهم ليواريهم الثرى المثار بفئوس البشر.. يواريهم بطن الأرض حيث لا خير فيهم على ظهرها.. يواريهم بحقدهم ومرارتهم..

وأعد المجهول لهم أكفانا تليق بهم.

حقدهم الأسود الذى صبوه عل محمد كان هو السلاح ذاته الذى ارتد إليهم وأرداهم

أرادوا أن يطوقوا به محمدا.. فطوقوا به أنفسهم.. وظل يضغط على أعناقهم لتجحف عيونهم فى رعب لم يعيشوا مثله من قبل.. وتزهق أرواحهم فى صورة مهينة لم يشهدها عربى من قبل.

لم يبتعد عامر بن الطفيل كثيرا عن النبى.. وحين ظن أنه بمنجاة.. وهو فى أرض غربيته، ولما يصل إلى دياره، وأرضه، وقومه، ولم يكد يتنفس الصعداء، وهو فى هذه الأرض حتى أحس أنه سيظل غريبا.. وإلى الأبد.. فلن يصل أرضا يحس فيها بالراحة.. أو الطمأنينة، وكتب على نفسه الاغتراب..

الاغتراب عن الأرض.. والاغتراب عن النفس. والقلب.. والعقل.. والاغتراب عن الأهل والولد.. الاغتراب عن الروح الإنسانى!!

تاه عامر توهانا جديدا.. وتلقاه الله فى توهانه.. تلقاه فى غربيته بطعنة قاتلة: سلط الله عليه الطاعون.. أصاب رقبته.. وصار طوقه الذى يضغط عليه فى تؤدة.. فيجعله يبرك كما يبرك البعير الأجرب المنبوذ..

ولا يجد أحدا يؤويه فى غربيته غير امرأة ليست فوق مستوى الشبهات.. تعطف عليه وتؤويه.. امرأة من بيت فى بنى سلول..

ويبرك هذا الصنديد العنيد.. وتخور قواه.. وأين؟ فى بيت سلوليه يتمرغ فى وحله.. ووحلها.. وهو فى وطأة مرضه.. وشدة طعنته.. وألم معاناته لا يفيق من غيبوبة آلامه إلا ليدرك حقيقة واحدة أرادها الله ليعيشها قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.. فتصير الثانية الواحدة فى ظل هذه الحقيقة عذابا يعدل عذاب دهر باكلمه.. وتلك الحقيقة التى أراد الله أن يعيشها قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة هى أنه كم هو مهين.. وكم هو حقير، وأين هو من نبى الرحمة.. الذى تأمر عليه.. وهاهو ذا الظلام يلفه بأرديته السوداء، وقد كان النور يسعى إليه فيهرب منه.. ثم يتأمر عليه عندما ران عليه الجهل، فلم ير منه بصيصا، قد كان فى مكتته لو أراد أن يسعى به البصر إليه.. وتأوى إلى ضوء هداه البصيرة!!

ويجأ عامر، وهو يعيش اللحظات الأخيرة مع هذه الحقيقة.. يجأ في صوت حبيس، وكل نبرة تخرج من فمه تحمل وجعا وألما، لو وزعا على الجزيرة كلها لأوجعها وألمها..

يجأ عامر وهو يرى مقدار ضآلته، وحقارته، وهوانه:

- يا بني عامر.. أعدة كعدة البكر؟

يا بني عامر.. أعدة كعدة الإبل.. وموتا في بيت سلوية؟

ويسدل الستار على عامر بن الطفيل، وإلى الأبد.. وما كان قد ارتفع عنه ستار منذ رفضه الإسلام.. هو الذي كان توهم ذلك!!

* * *

وعاد أصحابه من نونه بعد أن أرياه التراب بعيدا عن قومه.. ودياره.. وما كان إحساسهما بالضيق منذ تركوا رسول الله ﷺ بأقل من عامر .

ولم يجد القوم إلا أريد، فاجتمعوا عليه.. وسألوه ما كان.. واستفسروا منه عما حدث.. ولم يعتبر الشقي مما حدث لصنوه، ولم يهده أى تفسير... ولو لظهر واحد مما مر به

أجاب في غطرسة:

- لا شيء والله.. لقد دعانا . يقصد محمدا- إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله!!

ولا يمضى وقت طويل.. ما هما إلا يومان.. يومان فقط بعد هذا الافتراء ويشرد جمل لأريد.. ويتبعه ليسترجعه.. يقبض عليه، ويعيده إلى معطنه، لكن الله يستدرجه بهذا الجمل إلى حيث لا يدرى.. ولا يعلم ماذا سيصيبه، ويبعد عن الديار.. ويرسل الله عليه، وعلى جملته صاعقة فتحرقهما، وتطوى صفحة شقيين حاداً الله وسوله.. ومن يحادد الله ورسوله فإن الله شديد العقاب وينزل الله سبحانه في ذلك قرأنا:

﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار* عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال* سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، ومن هو

مستخفباً الليل وسار بها النهار* له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال* هو الذى يريكم خوفنا وطمعنا وينشىء السحاب الثقيل* ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خفيته، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال. له دعوة الحق* والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباطس كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو بباله، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴿[الرعد: ٨ - ١٤]

* * *

ويقترّب الشبان من الديار وهما يسوقان أمامهما النعم.. يسقيانها من قلب قريب وعند مجتمع القوم حول القلب.. انفلت حصين من رفيقه نمر، وانتزع من كتفه قوسه ووضع فيها سهمه، وصعد مرتفعاً قريباً.. وهو يصيح:

- يا قوم.. سحقاً لكم أيها الكفرة.. والله الذى لا إله غيره لقد أسلمت من وراء ظهرائكم.. ولقد تعلمت من مبادئ الإسلام الكثير، وحفظت سوراً بأكملها من القرآن الكريم وحفظت ما أنزل فى شأن أشقيائكم الثلاثة.. وأنا منذ اليوم مفارق لكم.. وتعلمون مقدار مهارتى فى الرمي.. فمن يرد أن تقاجنه منيته فليقف حائلاً بينى وبين ما أريد..

وهاله أن أحداً لم يهتم.. وإنما نظروا إليه معجبين بمنظره.. وهم يتصاحكون.. لقد اتفقت بنو عامر فى هذا اليوم.. وقبل أن يصل حصين ورفيقه من المراعى على تكوين وقد يتحلى بروح جديدة.. يذهب إلى المدينة.. ويلقى محمداً.. ويعتذر عما سلف.. ويباع عن نفسه.. وعن كل بنى عامر بالإسلام.

﴿ إذا جاء نصر الله والفتح* ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا* فسبح بحمد ربك واستغفره.﴾ إنه كان تواباً ﴿[سورة النصر]

* * *

المراجع

- ١- القرآن الكريم
- ٢- صحيح البخارى طبع المجلس الأعلى
للشئون الاسلامية - نهضة مصر
- ٣- تفسير القرطبي
- ٤- تفسير الكشاف
- ٥- صفوة التفاسير.
- ٦- السيرة النبوية لابن - هشام القسم
الثانى
- ٧- محمد رسول الله د. عبد الحليم محمود.
- ٨- تهذيب سيرة ابن هشام تحقيق عبد السلام هارون
- ٩- الإصابة لابن حجر
- ١٠- مقدمة ابن خلدون تحقيق د. على عبد الواحد وافي.
- ١١- قصص الأنبياء لابن كثير.
- ١٢- قصص الأنبياء عبد الواحد النجار.
- ١٣- عيون الأخبار لابن قتيبة
- ١٤- أدب الدعوة فى عصر النبى د. عبد الصبور شاهين
- ١٥- نشأة الدولة الإسلامية على عهد النبى د. عون الشريف قاسم.
- ١٦- حكم الأسرة فى الإسلام محمود أبو الفيض المنوفى الحسينى
- ١٧- سيرة سيد المرسلين
- ١٨- سيرة الرسول محمد عزة دروزة

تابع المراجع

- ١٩- من أخلاق النبي د. أحمد الحوفى
- ٢٠- محمد رسول الله والذين معه عبد الحميد جوده السحار ج ١٨
- ٢١- عبقرية محمد عباس محمود العقاد
- ٢٢- عبقرية الصديق.
- ٢٣- عبقرية على
- ٢٤ عبقرية عمر
- ٢٥- الصديق أبو بكر د. محمد حسين هيكل
- ٢٦- دولة القرآن طه عبد الباقي سرور
- ٢٧- حقوق الإنسان فى الإسلام د. على عبد الواحد وافي
- ٢٨- بحوث فى الاسلام والاجتماع
- ٢٩- الإسلام ظهوره وانتشاره على عبد القادر
- ٣٠- الأمثال من الكتاب والسنة تحقيق على محمد البجاوى
- ٣١- الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى د. محمد البهى
- ٣٢- شريعة الله حاكمة السيد على جريشة
- ٣٣- تفسير آيات الأحكام عبد المجيد عبد الله دراز
- ٣٤- مع القرآن الكريم د. أحمد الحوفى
- ٣٥- تاريخ القضاء فى الإسلام محمود بن محمد بن عرنوس
- ٣٦- معالم الطريق إلى الله محمود أبو الفيض المتوفى الحسينى

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
تمهيد	٧
الصدقة .. واللؤلؤة - وفد ثقيف	١١
النخيل .. وثمار الجنة ! - وفد بنى تميم (١)	٣٧
اليتيم وذو العقيصتين !! - وفد بنى سعد	٥٥
أبواب الجنة -- وفد همدان	٧٣
الشاطئ .. والرمال الناعمة !! - وفد عبد القيس	٩٥
الربا .. والربيع - وفد مراد	١١١
ملوك الزمان .. والكنز !! - وفد ملوك حضرموت	١٢٩
والزمان يدور !! - وفد الأزد	١٥٩
عائد من الغربة !! - عدى بن حاتم الطائى	١٨١
خير الماكرين !! - عامر بن الطفيل	٢٠٥
المراجع	٢١٧



هذا الكتاب



يحتوى آراء وأفكار جريئة وجديدة تضع الحق فى نصابه بالنسبة لفترة من أخصب فترات الدعوة والرسالة المحمدية ، وهى الفترة التى أعقبت غزوة تبوك تلك الغزوة التى ترتب عليها الخير الكثير للإسلام وللمسلمين ... إذ أخذت القبائل والممالك العربية فى الشام ، أو وسط الجزيرة أو سواحل الخليج أو اليمن والتى كانت تخلفت عن الإسلام ... أخذت تتوافد منفردة أو مجمعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تباع بالاسلام فى المدينة فى مظاهرة إيمانية صرفة لم يشهد التاريخ لها مثيلاً .

وميزة هذا الكتاب :

أولاً : أنه يعرض الأحداث فى هذه الفترة بأسلوب جديد كل الجدة ، وصيغة فنية مبتكرة غير مسبوقين يمكنان القارئ والدارسين وبخاصة الشباب المسلم المتعطش للمعرفة من سبر غور حقيقة ما دار فى هذه الحقبة الخطيرة والخصيبة بوعى وإدراك .

ثانياً : أنه يجلى دوافع وفلسفات ومواقف هؤلاء الوفود فى ذهابهم إلى المدينة مبايعين النبی الكريم بالإسلام وأن ذلك لم يكن فى جملته خوفاً من بطش السيف كما قال كثير من المؤرخين وبخاصة المستشرقون ...

وإنما كانت دوافعهم ، وفلسفاتهم ومواقفهم شيئاً آخر تماماً

فما هى تلك الدوافع ؟

وما هى تلك الفلسفات ؟

وما هى تلك المواقف ؟

ذلك ما سيجيب عنه هذا الكتاب فى شجاعة وقوة !!

طبع
نشر
توزيع



دار الامين

DAR AL AMEEN

القاهرة : ١ ش محمد محمود - باب اللوق (برج الأطباء) ت : ٣٥٥٨٤٦١
الجزيرة : ١ ش سوهاج من شارع الزقازيق - خلف قاعة سيد درويش - الهرم